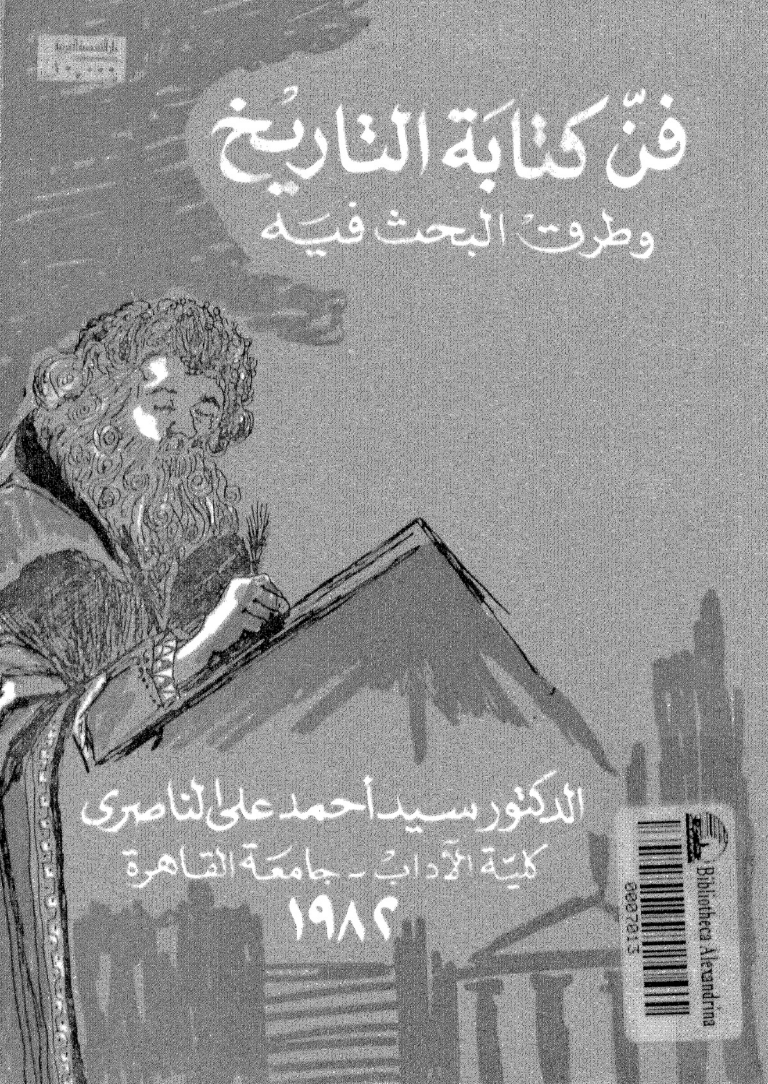

فن كتابة التاريخ
وطرق البحث فيه
الدكتور سيد أحمد على الناصرى
كلية الآداب - جامعة القاهرة
١٩٨٢
Bibliotheca Alexandrina
0007013

فن كتابة التاريخ

وطرق البحث فيه

دكتور
سيد أحمد على الناصري
الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة
والحاصل على جائزة الدولة التشجيعية
فى التاريخ عـــام ١٩٧٩

الطبعة الأولى
القـــاهرة ١٩٨٢

النـاشــر
دار النهضـــة العربيـــة
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

مطبعة جامعة القاهرة
والكتاب الجامعى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، معلمنا الأول ، الذى دعانا لطلب العلم ولو فى الصين وبعد :

فقد كثر عدد الباحثين فى حقل التاريخ . حتى ضاق بهم الحقل ، وندرت الموضوعات ، خاصة اذا ما كانت النظرة اليها نظرة تقليدية ، تنظر الى عملية البحث التاريخى على أنه تجميع أكبر قدر من المعلومات ، وحشرها بين غلافى كتاب أو رسالة ويظل الباحث يتخبط على غير هدى ، وبلا فلسفة تهدية ، أو منهاج يقوده ، وتكون النتيجة ولادة بحث ميت ، بطريقة ميته ، ولا تساوى حتى قيمة الورق الذى كتب عليه .

ان المادة التاريخية واحدة ، لكن طريقة معالجتها هى التى تتفاوت حسب جودة المؤرخ ، ومن ثم فقبل الشروع فى الأبحار الى مجاهل البحث التاريخى لابد من التجهيز والأعداد الأكاديمى ، فضلا عن توفر الموهبة والاستعداد الطبيعى لدى الباحث ، ثم اتباع المنهج العلمى السليم . ان المعرفة الواعية بمناهج البحث ، ومدارس الفكر التاريخى فى العصر الحديث ، سوف تمكن الباحث من تخطى عقبات كثيرة ، وتلافى السقوط فى أخطاء كبيرة ، وتجنب الضياع فى متاهات البحث المتشعبة ، حتى يصل كالربان الذكى ، المسلح بالشجاعة والمعرفة والعلم الى بر الأمان .

ومنذ الحرب العالمية الثانية ، تغيرت مفاهيم ومعايير البحث ، فقد أصبح الأنسان هو بؤرة الأحداث التاريخية ، « أفحسبتم أننا خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون » فبدأ الاهتمام بالعامل الانسانى ، وحياة الانسان الأقتصادية ، والسياسية والأجتماعية والعقائدية ، والأدبية ، والفنية عامة . وغير ذلك مما يكونه ويكون بيئته وماهيته . وبدأ المؤرخون يلجأون الى تخصصات أدق وأدق ، حتى يتمكنوا من أداء الرسالة التاريخية على وجهها

الصحيح.وذلك لأن سبل التاريخ في تشعب مستمر كلما ازدادت الموضوعات عمقا واتساعا . أى كلما ازدادت انسانية الأنسان تكاملا ، على مر التاريخ، وبفضله » (١) . ومن هنا جاء الأهتمام بعلم المناهج فى البحث التاريخى methodology ، من أجل وضع القواعد الأساسية التى تمكن الباحث من السير على هداها ، لكى يصل أو يقترب من الحقيقة العلمية .

لقد ظلت المكتبة العربية خالية من أى مؤلف فى هذا الموضوع ، حتى أصدر الدكتور عبد الرحمن بدوى عام ١٩٦٢ كتابا باسم النقد التاريخى . شمل ترجمة لكتابى شارل ڤكتور لانجلوا وشارل سنيوبوس ، وهو « المدخل الى الدراسات التاريخية » ، والذى ظهرت طبعته الأولى فى باريس عام ١٨٩٨ ، ولم يقصد المؤلفان الفرنسيان أن يكون مؤلفهما مبحثا شاملا فى المناهج التاريخية ، بل قصدا أن يكون كتابا موجزا يهدف الى تنبيه الباحثين الجدد فى جامعة السوربون الى ما ينبغى أن تكون عليه الدراسات التاريخية ، كما ضمن الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه المذكور ترجمة عن الألمانية لكتاب بأول ماس المعروف باسم « نقد النص » Textkritik والذى صدر عام ١٩٢٧ ، كما ضمن كتابه أيضا ترجمة لبحث الفيلسوف « كانت » عن معنى التاريخ العالمى نشره عام ١٧٨٤ فى مجلة برلين الشهرية . وكذلك ترجمة لبحث للفيلسوف ديكارت وهو مقال فى المنهج ، وانهى كتابه بترجمة لخطبة ألقاها الشاعر الفيلسوف بول ڤالرى الفرنسى عن التاريخ ، ضمنها ملاحظات عن فهم التاريخ وكيفية كتابته . وبالرغم من دسامة المادة التى ترجمها الدكتور عبد الرحمن بدوى ، والتى قدمت خدمة كبيرة للباحثين فى مجال التاريخ ، الا أن أغلبها أبحاث ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حتى أن أحدثها يرجع الى عام ١٩٢٧ . ومن ثم لم تعد مقروءة فى عالمنا الحديث فى أفكاره واهتماماته ، والمتمرد على فلسفات القرن التاسع عشر ، فضلا عن صعوبة توصيل أفكار المؤلفين الأصليين الى القارىء العربى عن طريق الترجمة الحرفية .

---

(١) د. حسين مؤنس : التاريخ والمؤرخون ــ عالم الفكر ــ العدد الاول ــ المجلد الخامس ابريل ــ مايو ــ يونيو ١٩٧٤ . ص ١٥ .

غير أن كتاب النقد التاريخى للأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى بقى المرجع الوحيد المتاح أمام الباحثين ، حتى أصدر المرحوم الأستاذ الدكتور حسن عثمان مؤلفه الشهير منهج البحث التاريخى ، والذى صدرت طبعته الأولى عن دار المعـارف عام ١٩٦٣ . وقد اعتمد الدكتور حسن عثمان اعتمادا يكاد أن يكون أسـاسيا . على مؤلف لانجلوا وسـينوبوس ، بالاضافة الى تدوين تجربته الشخصية فى البحث التاريخى ، وصاغ موضوعا متماسكا ، بأسلوب عربى جميل ، ثم أصدر طبعته الثانية عام ١٩٦٥ بعد أن طور فيها . ولايزال مؤلفه هو المرجع الأول الذى يرجع اليه طلاب الدراسات العليا فى مصر والعالم العربى حتى هذه اللحظة .

ولما كان مجال البحث التاريخى قد شهد تطورا مثيرا فى مناهجة ومدراسه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فقد تعاقبت المؤلفات الأوروبية فى هذا المجال بشكل يجعل الأنسان يلهث وراء كل جديد وحديث . ولقد بدأت منذ منتصف الستينيات فى جمع ملاحظاتى وأفكارى فى هذا الموضوع ، أثناء دراستى فى جامعة لندن ولقائى بالأستاذ أرنولد توينبى عندما كانت تجمعنا مكتبة معهد واربرج بلنـدن . ومنـذ ذلك الوقت تراكمت الملاحظات والمعلومات . وأعترف أن تراكم المادة وتعقدها ، وتشعبها ، جعلنى أضيق بها ذرعا ، وكدت أشعر بالأحباط والقنوط عدة مرات .

ثم وقع بين يدى كتاب شيق وجرىء ، هو عبارة عن ندوة حول طريقة البحث التاريخى ، أشرف عليها وشارك فيها المؤرخ البريطانى الشهير هـ.ب.ر فنبرج (١) ، شرح كل متخصص فى هذه الندوة أصول مدرسته وأهميتها ، ومنهج البحث فيها ، وأعجبنى فى هذه الأبحاث الوضوح ، والتبسيط ، وسعة الأفق ، غير أن المشاركين فى هذه الندوة « مركزوا » أنفسهم فى التاريخ الأنجليزى وفى أحسن الأحوال فى التاريخ الأوروبى ، ولم يذكروا شيئا مطلقا عن الشرق الأدنى وتاريخ العـرب . ونظرا لتخصصهم الدقيق فى

(1) Approaches to History-A Symposium. (Edited by H.P.R. Finberg, Routledge and a Kegan Paul, London 1962.

التاريخ الأوروبى ، فقد وجدت صعوبة فى ترجمة بعض التفاصيل الدقيقة والتى لايعرفها الامن تخصص تخصصا دقيقا فى التاريخ الانجليزى أو فى دائرة تاريخ أوروبا الحديث • كما وقع بين يدى العدد الأول من المجلد الخامس لمجلة عالم المعرفة الكويتية والتى صدرت فى يونيو عام ١٩٧٤ ، والتى شملت فى أغلب مقالاتها موضوعات عن فلسفة التاريخ كتبها نخبة من قدماء أساتذة التاريخ فى جامعة الكويت • ولقد كانت هذه المقالات بحق مباراة علمية بين كبار المؤرخين العرب • وقد أفدت كثيرا من مقال اسـتاذنا الدكتور حسين مؤنس ، والدكتور شاكر مصطفى لأنها جمعت بين العمق الأكاديمى والتبسيط العلمى •

وهكذا تراكمت المادة التى جمعتها ، وقدرت أن أمزج كل ما جمعت فى عجينة مستساغة الطعم للقارىء العربى ، فرسالتى أن أهبط الى مسـتواه لأرفعة الى مستواى ، ولا أتحدث اليه من برج عال •

وبالأضافة الى ذلك ، نقد أضفت خبراتى الشخصية فى مجال البحث التاريخى كناشر لوثائق من النقوش ،وكمكتشف ومنقب عن الآثار ، ومؤلف لبعض الكتب والمقالات ، ومشرف على عدد من الرسائل الجامعية لتى قدمها طلاب مصريون وعرب • كما أن دراستى الطويلة فى انجلترا ، ومشاركتى لبعض الأوربيين فى مجال التأليف ، أتاحت لى الفرصة فى التعرف على التفكير الأوروبى فى مجال البحث التاريخ ، وكذلك أتاحت لى فرصة التدريس فى بعض الجامعات الأوروبية والأشراف على رسائل الطلاب العرب ، معرفة حدود العقلية العربية ، نجعلت من نفسى قنطرة ، لنقل الفكر الأوروبى بالطريقة التى تناسب الفكر العربى • واضعا بين نصب عينى ، أثناء جمع المادة ، وتبويبها ، هدفا لم أحد عنه قط ، وهو أن أرسم أيسر الطرق للباحث العربى ، لكى يترك الطريق التقليدى العتيق ، الذى داسته أقدام الوف الباحثين ليسير فى طريق صاعد جديد ، يحقق له الأبداع والأصالة •

انها بداية محاولة وليس نهايتها، والحكم على هذا الكتاب يصدر من القراء والباحثين ، وما أوتيت من العلم الا قليلا . وصـــدق الله العظيم القائل « قل سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الأخرى . ان الله على كل شىء قدير . »

ا.د. سيد أحمد على الناصرى
قسم التاريخ
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

ليلة القدر لعـــام ١٤٠١ هـ
الموافق ٢٩ يوليو عام ١٩٨١ ميلادية

تسألنى عن نظريتى فى الحياة •••• انها تتمثل فى كلمة الارادة •••
فالحياة قصيرة حتى بالنسبة للبعض منا من يعيش عمرا مديدا •• اننا
يجب أن نعيش من أجل القليلين الذين يعرفوننا ويقدروننا •• الذين
يقيموننا ويغفرون لنا ، والذين نكن لهم نفس الحب والصفح • ينبغى
علينا أن نكره فى أضيق الحدود ، لأنها أمر مرهق ، وأن نظل فى كثير من
الأمور غير مبالين ، نصفح أحيانا •• والا ننسى أبدا •••

ساره برنارد

لصحيفة الديلى تلجراف فى ٢٨ مارس ١٩٢٣

"You ask me my theory of life..It is reprsented by the word will.. Life is short, even for those of us who live a long time, and we must live for the few who know and appreciate us, who Judge and absolve us, and for whom we have the some affectio and indulgence. We ought to hate very rarely, as it is too Fatiguing, remain indifferent a great deal, forgive ***often,*** **and** *never forget".*

Sarah Bernhardt

To Daily Telegraph, London 28th of March 1932.

إهـــــــداء

CARRISMO MAGISTRO

Prof. Dr. EZZAT ABDUL KARIM

PATRI HISTORIAE AEGYPTICAE

HOC LIBRUM DEDICO

REQUIESCAT IN PACE

MCMLXXXII

ANNO DOMINI

الى الاستاذ العزيـــــز

الاستاذ الدكتور عزت عـــبد الكريم

ابى التاريخ المصرى ، اهدى هذا الكتاب

طيب الله ثـــــراه ،

عام ١٩٨٢ ميلادية

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الفصل الأول

« مدخل الى علم التاريخ »

قد يتساءل البعض عن جدوى الاهتمام بالتاريخ كله ، خاصة فى عصر كثرت فيه المتغيرات والاضطرابات ، ووصل الانسان فيه الى القمر ، واستطلع الكواكب والنجوم . وهؤلاء قد يتساءلون ، أليس من الأجدى أن ننسى ذلك الماضى ، وننظر الى حاضرنا ومستقبلنا ؟ . غير أنه من السهل تفنيد ذلك الرأى ، لأن هذا الاضطراب الذى نعانيه والتخلص من أدران الماضى وأفكاره ، لا يمكن أن يعالج أو يزال الا بالنفاذ الى جذوره العميقة ، واستئصال أسبابه البعيدة ، ومعرفة العلل والأسباب وطبيعتها ومداها ، لأن كل مشكلة من المشكلات التى تعترض الانسانية لها جذورها وأسبابها المغروسة فى التراث ، الذى ورثته عن الأجيال السابقة . ونحن العرب أحرص الناس على تلك الحقيقة ، لأن التاريخ يطل علينا من نوافذ متعددة ، والتاريخ العربى بأمجاده وتقاليده وبطولاته من أهم مقومات ودعائم الوحدة والقوة . وعندما نتحرى عن أسباب وعلل النكبات والمآسى والأخطاء التى حلت بنا ، نجد أنفسنا نرجع بدون وعى الى التاريخ ، وكتب التراث نقرأ فيها ونستنتج . ولعل أبلغ دليل على ذلك أن العالم الفيلسوف ابن خلدون كتب مقدمته الرائعة — التى تعتبر أبرز آثار التفكير التاريخى والاجتماعى — عندما وجد العالم الاسلامى فى القرن الرابع عشر وقد انقسم الى دول متناحرة ، تغير عليها جحافل الغزاة ، من التيموريين وغيرهم ، فأثار ذلك فى نفسه تساؤلات كثيرة ، عن أسباب نشوء الامم وتطورها وتداعيها (١) .

---

(١) عن ابن خلدون كمؤرخ انظر :
دكتور على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون — سلسلة اعلام العرب ٤ — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة مكتبة مصر بالفجالة (بلا تاريخ) .

ولكى ندرك أهمية الماضى وضرورة دراسة التاريخ، والاهتمام والعناية بتحقيق ونشر كتب التراث التاريخى المكنوز فى دور المحفوظات وفى مكتبات العالم الشهيرة ، فلنفرض جدلا أننا استطعنا بطريقة أو أخرى أن نقطع صلتنا بالماضى قطعا تاما ، أى نحرق دور الكتب ، وندمر كل آثار العمران الراهنة ، ثم ننظر الى حال الانسان ومصير الحضارة بعد ذلك ؟ • الحقيقة أن الانسان سوف يحاول عندئذ أن يعود لكى يبدأ من جديد ، بعد أن فقد خبرات الماضى ، التى هى تراث الاجداد منذ آلاف السنين • ولهذا لا غنى للانسان عن دراسة ماضيه ، ومعرفة تاريخ تطوره ، وأعماله وآثاره ، وأوجه النشاط الانسانى ، ومقومات الحضارة •

وكذلك يلاحظ أن كل عالم ، أو أديب ، أو فنان ، لا غنى له فى عمله أو فنه ، من أخذ التاريخ بعين الاعتبار ، والتأثر به الى حد قريب أو بعيد • فالطبيب عندما يعالج الداء ، يبدأ أول ما يبدأ بسؤال مريضه عن تاريخ نشوء المرض وتطوره ، وعما اعترى المريض من علل سابقة ، والكيميائى عندما يخضع مادة من المواد لتجربة معينة ، يدرس تغيرها من حال الى حال ، من « ماضى » الى « حاضر » أو من « حاضر » الى « مستقبل » • وعالم الاجتماع لا يستطيع دراسة المشكلات الاجتماعية التى يعالجها دون النظر الى الجذور القديمة التى نبتت منها ، والتغييرات التى طرأت عليها، وهكذا الحال فى العلوم الأخرى، الطبيعية منها والبشرية فكلها تهتم بالماضى • حتى الأديب والفنان لا يستطيع أن يتعرى من خبراته السابقه ، ومشاعره الموروثه والمكتسبة ، والجو الذى نشأ فيه ، والتقاليد السائدة فى عصره • ومعنى هذا كله أن التاريخ هو النهر الذى تنساب فيه فروع العلوم والآداب ، مرتبط بها متفاعل واياها ، ولكنه يتميز عنها من حيث اهتمامه بالماضى بالذات ، بينما تتجه العلوم والآداب الاخرى الى أغراض وغايات أخرى ، غير أنها تستخدم التاريخ ، أو تستفيد منه ، فى سبيل تحقيق هذه الأغراض •

وكان الناس فى الماضى — والمؤرخون فى مقدمتهم — يوجهون عنايتهم الى الوقائع الحربية ، والتقلبات السياسية ، ويعتبرونها لب الماضى

وجوهره ، الجدير بالاعتبار . غير أن التاريخ فى أيامنا هذه ، أصبح يشمل الحياة البشرية الماضية بجميع مظاهرها ، فأصبحت دراسة التاريخ الآن تهتم بالنظم الاقتصادية ، والعلاقات الاجتماعية ، والمعتقدات الدينية، والأساليب الأدبية والفنية، بقدر اهتمامها بالأحداث السياسية، والمعارك الحربية .

هل التاريخ علم من العلوم أم فن من الفنون ؟

وكثيرا ما يتجادل الناس عما اذا كان يصح أن نعتبر التاريخ علما من العلوم ؟ فالمؤرخ الشهير بيورى Bury (من أشهر مؤرخى انجلترا فى الربع الأول من القرن العشرين) أعلن « أن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل » ، بينما نجد الفلاسفة الطبيعيين قد انبروا من ناحية ثانية ، ليثبتوا أن التاريخ أقل من العلم بكثير ، هذا فى الوقت الذى نجد فيه رجال الأدب قد انبروا ليثبتوا انه فوق العلم بكثير .

أما الفلاسفة الطبيعيون فيرون أن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم التى يشتغلون بها ، من حيث كونها غير ثابتة وغير قابلة للتحديد وانه ليس من السهل على الانسان أن يعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة ، وان الاختيار والتجربة أمران غير ممكنين فى الدراسة التاريخية ، وبالتالى لا يمكن لحادثة تاريخية أن تتكرر مرة أخرى .

اما رجال الأدب فيذهبون الى أن التاريخ سوا أكان علما أم غير علم ، فهو لا ريب فن من الفنون ، وأن العلم لا يعطينا من التاريخ سوى العظام المعروقة ، واليابسة ، وأنه لا مندوحة عن خيال الشاعر ، اذا اريد نشر تلك العظام ، وبعث الحياة فيها ، فاذا ما أحياها الخيال ، فهى بحاجة الى براعة الكاتب وبلاغته [1] .

وهكذا اختلف الباحثون فى وصف التاريخ بصفة العلم كالكيمياء والطبيعة وغيرهما ، أو نفيها عنه . فذكر البعض أن التاريخ لا يمكن أن يكون علما ، لأن الوقائع التاريخية لا يمكن أن تخضع لما يخضع له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة . وبالتالى

(١) عالج الاستاذ الدكتور شاكر مصطفى هذا التساؤل فى مقالة الشيق : التاريخ هل هو علم ؟ — عالم المعرفة — المجلد الخامس — العدد الاول (ابريل ١٩٧٤) وزارة الاعلام الكويت ص ١٦٧ — ٢١٤ .

لا يمكن استخلاص قوانين عملية ثابتة من التاريخ ، كما هو الحال فى الطبيعة والكيمياء ، وهذا — فى نظرهم — يبعد التاريخ عن صفة العلم •
ويرى بعض رجال الأدب أن التاريخ سواء أكان علما أم لم يكن ، فهو فن من الفنون يستعين بالخيال فى كثير من الاحيان • غير أن « هرنشو » يرى فى كتابه (علم التاريخ) أن التاريخ ليس كعلم الفلك — علم معاينة مباشرة ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، وأن أقرب العلوم الطبيعية شبها به هو علم الجيولوجيا ، فكل من الجيولوجى ، والمؤرخ يدرس آثار الماضى ومخلفاته ، لكى يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضى والحاضر على السواء • ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجى من حيث اضطرار المؤرخ الى أن يدرس ويفسر العامل البشرى والفكرى والعاطفى حتى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية • وربما يسأل سائل ما الذى يبحث فيه التاريخ ؟ والحقيقة أنه يبحث فى المتبقى من مخلفات الماضى وسجلاته، التى قد تعين على جلاء الحاضر، وتوضيحه وهو مقصد البحث التاريخى •

ومعنى هذا أن التاريخ من حيث هو علم يختلف أصلا عن العلوم الطبيعية ، اذ أنه ليس علم معاينة أو تجربة ، ولكنه علم ونقد وتحقيق • ومواد التاريخ « ليست الأشياء التى مضت وانقطع وجودها ، ولكن الأشياء التى لا تزال موجودة ، سواء أكانت روايات منقولة عما وقع ، أم بقايا أشياء وجدت ، أم نتائج أحداث حدثت » •

ومن الأسس الجوهرية التى يتحدد بها قيمة التاريخ هو نوع المادة التى استقى منها الباحث معلوماته ، أهى نقوش أو آثار قديمة ، أم أصول ووثائق ومراسلات ، مستخرجة من دور الأرشيف التاريخية (١) ؟ أم أن المادة التى اعتمد عليها الباحث هى مجرد مراجع ثانوية ليست ذات قيمة علمية (٢) ؟ وهنا تأتى أهمية كتب التراث العربى ، لأنها المنبع الأصيل الذى لا ينضب ، والذى يمد الباحث فى التاريخ دائما بمادة علمية لها قيمتها الجوهرية •

---

(١) وهى المصادر الأصلية ـ أو First-hand informations.
(٢) وهى المعلومات المستهلكة secpnd. hand informations

فائــــــدة التــــاريخ :

ولابد لنا أن نبدأ ببحث قضية هامة وأساسية ، وهى ما هو الهدف الحقيقى والفائدة المباشرة لعلم التاريخ ؟ •

مخطىء من يظن أن دراسة التاريخ ليس لها فائدة ، لأنه لو لم يكن مفيدا ، ما بقى علما من أهم العلوم الانسانية ، « فالناس » — كما قال كونفيوشيوس — حكيم الصين فى القرن السادس ق • م — « منذ قديم الزمن يدرسون (الماضى) بهدف تطوير أنفسهم » • ان دراسة التاريخ تعلم الناس كيف يلتقون ، ويتعرفون على سالف الأجداد ، وأفكارهم ، رغم آلاف من السنين ، التى تفصل بين الطرفين •

ان طلب « المعرفة » غريزة عند الانسان ، فكما تملى المعدة مثلا على صاحبها أن يبحث عن الطعام ، يملى العقل عن النفس الفضول وطلب المعرفة خاصة عن الماضى ، وتتحدد درجة الوعى السياسى والاجتماعى والثقافى للمواطن بقدر المامه بالتاريخ ، والمواطن الذى يريد أن يمارس حقوقه السياسية كاملة فى ظل نظامه السياسى أيا كان ، عليه أن يكـــون واعيا بالقدر الكافى ، ولكن يكون واعيا يجب أن يلم بقدر من الثقافة التاريخية • ان المواطن الملم بالقراءة عادة يقرأ الصحف ليشبع غريزة البحث والمعرفة بماذا حدث وأين وكيف بالرغم من أن الصحف لا تقدم الحقائق كاملة والتى سوف تصبح فيما بعد (قرائن تاريخية) لان الدعاية والمبالغة والتزوير والتشهير ظاهرة واضحة فى الصحف فى العصـــــور الحديثـــــة • حتى الماضى القديم لم يخل أبدا من التزوير والتشهير ، ولهذا نقول للباحث ليس كل ما تقوله الوثائق صادق مائة فى المائة ، الا بعد الدراسة النقدية ، التحليلية والتشريحية ، بل وقراءة ما بين السطور وتحليل المادة التى دونتها الوثائق ، أو تفادتها أو شوهتها ، حتى لا تضلل الوثائق القديمة الباحث فى العصر الحديث (١) •

---

(١) انظر محمد الطالبى : « التاريخ ومشاكل اليوم والغد » (مقال) مجلة عالم الفكر الكويتية (العدد السابق) ص ١١ — ٤٦ ، ومقال د. حسين مؤنس بنفس العدد التاريخ والمؤرخون ص ٥٣ .

وهناك أراء كثيرة فى فائدة علم التاريخ ، فيقول البعض بأنها دراسته ممتعة ومفيدة ، لأنها توسع ادراكنا ، وتنمى مواهبنا الفكرية فى جوانب كثيرة ، ويرى أرنولد توينبى مثلا أن دراسة تاريـــخ الشعوب صاحبة الحضارات ، ذات فاءدة لا تقدر بالنسبة لطالب المعرفة ، وأن أهم ماتتميز به مساهمة المؤرخ فى التراث الانسانى ، أنه يقدم لنا صورة لابـــداع الخالق جل وعلا فى خلقه ، وفى عالم الانسان ذى الحركة الدائبة ، والتى لا تتوقف • فالدارس للتاريخ يرى دون غيره كيف تتحرك حضـــارات العالم ويشاهدها كما يشاهد المتفرج روايات متعاقبة على مسرح كبير ، كل يـــؤدى دوره ثم يختفى •

ولقد عرف نابليون كيف يثير شجية جنوده قبل بدء معركة امبابة ، عندما خطب فيهم قائلا « ان أربعين قرنا من الزمان تنظر اليكم من فوق الأهرامات » • بل أن خصمه فى المعركة وهو مراد بك خطب فى جنوده خطبة مماثلة تذكرهم بالتاريخ الاسلامى المجيد ، لكى يلهب حماســهم للقتال ، ورد المعتدين ، فالتاريخ ان كان مجيدا يمكــن أن يكون باعثا للاحياء القومى ، ومحركا لطاقات الشعوب ، لأن به وفيه تتمثل الكبرياء الوطنى ، ففى أعمال الاجداد العظام دائما نموذجا أسمى ، ومثلا تحتذى به الاجيال • وما من نهضة حديثة من النهضات ، وما من معركة كسبها الجنود ، الا وكان التاريخ باعثا وملهما • وهى احدى الفوائد العمليــة لدراســـــة التاريـــــخ •

ان التاريخ المجيد يلهم الحاضر ، ويجعلنا نتفهم واقعنا وما يـــدور حولنا ، لان الهدف من دراسة التاريخ ، هو الكشف عن الحاضر ، وتفهمه فنحن ندرس تاريخ الشعوب ، والقادة العظام ، وتاريخ المعارك ، التى غيرت وجة التاريخ ، وتاريخ الصراعات والمشاكل الدولية ، التى تنعكس نتائجها على مشكلات العصر الحديث ، فان لم نتفهم مواطن الخـــلاف فى الماضى ، فلن نتفهم نتائجها فى الحاضر ، فالحاضر هو نتيجة لتفاعل احداث الماضى ، كما أن المستقبل سوف يكون نتيجة لتفاعل احـــداث الحاضر ، فالتاريخ قضايا وحلول ، كل فترة هى نتيجة لقضية سابقه ، وهى فى نفس الوقت مسألة لاحداث المستقبل •

ولهذا فاختيار الموضوعات التاريخية يجب أن يكون فى ضوء القضايا التى تهم الحاضر وتساهم فى حلولها . واهتمام المؤرخ يجب الا يكون منعزلا عن الحاضر ومشاكله ومتطلباته ، ولكن على الباحث الا يلجأ الى تشويه الماضى لكى يتماشى مع الحاضر ، ويخدم أغراض هدف معين ، لأن هذا هو تزوير التاريخ ، كذلك من المرفوض أن نعيد رسم الشخصيات القديمة بطريقة تفرض عليها شكلا حديثا ، فلكل شخصية ظروفها الخاصة ، وسماتها النفسية ، وعصرها الذى عاشت فيه ، حيث يجب أن ننظر اليها من خلال العصر الذى عاشت فيه ، فعصر الامبراطور الرومانى أغسطس ليس عصر الدكتاور الاسبانى فرانكو ، ولا الدكتاتور الايطالى بينيتو موسولينى ، ومن ثم لا يجب أن نشوه الشخصيات القديمة بصورة تخلط بينها وبين شخصيات من عصور أو مناطق أخرى .

كذلك فأن المؤرخ يجب أن يكتب التاريخ بعيدا عن روح التعصب العنصرى أو الفكرى أو التحيز السياسى ، بل يكتبه بروح الحياد التام من أجل الحقيقة ، وهذا يمثل أكبر التحديات وأخطرها ، فكثير من المؤرخين لا يجرأون على قول الحق ، بينما يوصى شيشرون من يكتب التاريخ الا يجرؤ أبدا على أن يقول شيئا كاذبا ، وثانيا الا يجرؤ الا على قول كل ما هو صادق(١)، وكثير من المؤرخين كتبوا تاريخهم بروح التعصب والانحياز ، وتركوا العاطفة تغلب على العقل ، فجاء تاريخهم مزورا . فالأوربيون الذين كتبوا عن الشرق ، لم ينجوا من عقده العداء نحوه ، المتأصلة فى نفوسهم ، فكم تعرض تاريخ العرب خاصة فى عصر الرسول ، وفى صدر الخلافة الى التشويه على أيدى المستشرقين ، ولا يزال تاريخهم الحديث يلقى نفس المصير ، وقلما أشاد هؤلاء بفضل العرب على الحضارة

---

1. «x Ne quid falsi dicere audeat, Deinde ne quid Veri, non audeat., Cicero Oratores, 2, 15.

« ان الذى يجرؤ على قول الزور ، لا يجرؤ على قول الحقيقة »شيشيرون الخطباء ـ ٢ فقرة ١٥!».

كذلك انظر مقالى : تأملات فى طبيعة الفكر التاريخى عند الاغريق ـ مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٣ ص ٨٣ ـ ٩٨ .

الانسانية . كذلك عندما يكتب الرجل الأبيض تاريخ أفريقيا السوداء ، فانه يترك لعقده العنصرية العنان ، ليصور المجتمع الأفريقى بدرجة ترضى عقدة الاستعلاء العنصرى عند الرجل الابيض ، واليهود يزورون التاريخ، لينسبوا فلسطين لانفسهم ، ويبعـــدوا حق الشعب الفسطينى فى امتلاك الأرض . كما أن أتباع المذهب السياسى المعين يشوهون كل شىء تاريخى لاثبات المعتقدات الراسخة فى نفوسهم ، ومن ثم يتحول التاريخ الذى يكتبوه الى صورة مزيفة ، وادعاء على الحقيقة ، وتحميلها أكثر مما يجب ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء مؤرخين مثاليين ، كما أن ما يكتبوه هو تاريخ مزور ، وما أكثر ما تعرض التاريخ للتزوير وهذا يلقى على المؤرخ مهمة شاقة ، وهى كيف ينقى التاريخ من الشوائب والمبالغات والافتراءات ، حتى يكون أقرب الى الصورة الحقيقية ، حتى وان كان ذلك على حساب مشاعر المؤرخ ، من حق المؤرخ أن يتنحى ، كما يتنحى القاضى عن نظر قضية له بأحد أطرافها صلة أو علاقة ، يخشى أن تؤثر على حكمة ، وما المؤرخون سوى قضاة فى محكمة التاريخ والبينة على من ادعى .

ان المؤرخ الشجاع هو الذى يقول الحق ، ولا يعبأ بالاخرين ، والمثل على ذلك واضح فى المؤرخ الكبير أرنولد توينبى ، الذى تعرض لحملة نقد شديدة من المفكرين الغربيين ، فقد اتهمه بعضهم بأنه تحامل على الحضارة الغربية عندما صورها بصورة الحضارة التى فى طريقها الى الأفول ، وقالوا أنه قد خان الغرب وحضارته ، بسبب اعتناقه لآراء وفلسفات لاتنبع من الغرب . واتهمه اليهود بأنه متحيز للفلسطينيين ، وبأنه عدو لليهود عندما أعلن ادانته للصهيونية ، وأطماعها ونظرياتها العنصرية . وقد تصدى أرنولد توينبى بشجاعة لهذه الحملة من النقد (١) . وتساءل محتجا كيف يتمنى زوال مجتمع له فيه أحفاد ، انه يحب أوروبا ، ولكن الحقيقة أهم من هذا الحب ، لأنها تخص البشرية كلها . أيضا اتهمــه آخرون بأنه اهتم بتاريخ مصر أكثر من اهتمامه بتاريخ بريطانيا ، فقد

---

(١) عالم المعرفة ــ العدد السابق ص ١٠٠ وما بعدها ، د . حسين مؤنس

خصص لتاريخ بريطانيا فى فهارس موسوعته الخالــدة « دراسة فى التاريخ » مساحة تبلغ سدس ما خصصه لمصر ، ورد توينبى على ذلك أنه فعل ذلك لا راغبا ، بل مرغما لأنها هى الحقيقه ، وقال متهكما لو كانت الفهارس تقاس بكمية التراث ، لما تعدى نصيب انجلترا واحدا مــن ستين بالنسبة لنصيب مصر ، لان مصر ليست بلده ، ولكنها ظلت محــور التاريخ العالمى ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة سنة من تاريخ العالم الحضارى البالغ خمسة آلاف سنة • كما رد بأن مصر قد شغلت سبعين فى المائة من تاريخ الحضارة الانسانية عبر العصور الفرعونية والاغريقو رومانية ، وخلال العصرين القبطى والبيزنطى ، فهى أعطت العالم المسيحى فكرة الرهبنة ، وهى نفسها التى أصبحت فيما بعد قلعة العالم الاسلامى ، ورائدة الأمة العربية • ولولا مصر ودورها لتحطم العالم الاسلامى ، واختفت الحضارة الاســلامية ، لأنها هى التى حمته من التتار عندما هزمتهم فى عين جالوت ، فأنقذت الثقافة الاسلامية من دمارهم • وهى التى انقذت العالم الاسلامى من حروب الصليبيين • كما أن الأزهــر الشريف هو الذى حمى الثقافة العربية من عملية « التتريك » التى حاولها العثمانيون • ولاتزال مصر هى قلب العالم العربى النابض وينبــوع فكره المتدفق • ثم يتساءل أين هــذا من الدور الهزيل الذى قامت بــه بريطانيا فى التاريخ الانسانى • لقد لعبت بريطانيا دورا قياديا لم يستمر سوى مائتين وخمسين سنة ارتكبت خلالها أخطاء كثيرة : ثم راحت تنزوى عن هذه القيادة منذ الحرب العالمية الثانية • هذا مثل نسوقه لشجاعة المؤرخ الحق الذى يجرؤ على أن يقول الحق ويتصدى بشجاعة للهجوم •

أهمية الموضوعات السياسية فى دراسة التاريخ : (*)

اذا كان على المؤرخ أن يبحث عن موضوع له علاقة بقضايا العالم الحديث ، فلابد أن نتساءل عن أهم القضايا التى تشغل بال المؤرخين فى العصر الحديث ؟ هل هى سياسية واقتصادية أم اجتماعية ؟ انها سياسية بلا شك ، فقد شهد هذا القرن حربين عالميتين ، ألحقتا أضرارا كبيرة

(*) انظر الفصل الخاص بالتاريخ السياسى •

بالعالم ، وكبدته خسائر باهظة ، وشهدت منطقتنا من العالم عدة حروب صغرى ، ولا نزال نخوض حروبا دفاعا عن بلادنا • فالفيلسوف برتراند رسل لفت الأنظار الى أن هذه الحضارة الحديثة يمكن أن تقضى علينا أى حرب عالمية بسبب وسائل الدمار واسلحته [١] • ومن ثم فأن الابحاث التاريخية يجب أن تعطى هذه الظاهرة الخطيرة جزءا كبيرا من الاهتمام والبحث ، لانها من أخطر قضايا الساعة التى تقلق بالنا على الصعيدين القومى والـــدولى •

ويتعلق بدراسة الحرب دراسة الجهاز السياسى ، الذى يقع عـلى عاتقة مسئولية اتخاذ القرار بالحرب • وبالتالى فأن جوهر القضية هو سياسى فى الدرجة الأولى ، ويفوق كل القضايا الأخرى ، فعندما تضع الحرب اوزارها تتلاشى القضايا الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، لتصبح ثانوية بالنسبة لهذا الخطر الداهم ، الذى قد يهددنا جميعـا بالفناء ، ويهدد حضارتنا بالدمار ، فالحرب تقضى على الأزمات الداخلية مؤقتا ، حيث تتجلى الوحدة الوطنية فى أروع معانيها ، دفاعا عن الوطن • ومن ثم ، فأن العامل السياسى هو العامل الأكثر تأثيرا فى أحداث التاريخ ، والأجدر بالاهتمام والدراسة • ان القضايا الاقتصادية نفسها تابعـة للقضايا السياسية ، وليس العكس هو الصحـيح • وهذا يخالف رأى الماديين ، ووجهة نظر كارل ماركس ، التى تغالى فى أهمية العامل المادى • وكما يقول برتراند رسل ان القوة الاقتصادية تقوم على القوة السياسية ، وليس شرطا أن يكون العكس • ومن ثم فـأن الموضوعات والقضايا السياسية هى أهم الموضوعات التى ينبغى على المؤرخ أن يبحثها •

وبالرغم من ذلك فأن هناك فريق من يهاجمون الاهتمام بالموضوعات السياسية ، ولكن نقاد التاريخ السياسى لا ينكرون أهميته ، وهم عادة يهاجمون جوانب القصور فى دراسة الموضوعات السياسية أكثر من مبدأ الدراسة ذاتها ، فيقولون أن السياسة تشوه التاريخ ، وكثيرا ما استخدمت

---

(١) برتراندرسل : آمال جديدة فى عالم متغير : ترجمة عبد الكريم احمد ومراجعة على ادهم — الادارة العامة للثقافة (بدون تاريخ) ص ١٠ •
Bertrand Russel, New Hoppes for a changing world :

الدراسات السياسية فى التاريخ كوسيلة لاغراض وأهداف بعيدة عن التاريخ ، وكل باحث سوف يسعى لاستخدام العامل السياسى لكى يتطابق مع وجهة نظره ، ويقول آخرون أن التاريخ تصنعه الايدى العاملة ، وليس افواه السياسيين ، ويقول فريق ثالث ان التاريخ السياسى هو تاريخ السلطة ، التى يفرضها جماعة من الناس على الغالبية من شعوبهم لأنهم يملكون القوة ، أو لأن جماهير شعبهم تنقاد بلا وعى وراءها خوفا منها ، أو عادة لها ، ومن ثم فليس للجماهير رأى فى اتخاذ القـــرار السياسى ، ولكن يمكن أن نرد على ذلك بأن القرار السياسى الــذى تصدره الجماعة الحاكمة ، حتى وان كانت أقلية ، الا أن هذا القرار يؤثر تأثيرا كبيرا على الغالبية •

ان المؤرخ السياسى اذ احسن اختيار موضوعه ، ودرسه بالمنهج العلمى السليم ، سوف يثبت عدم جدوى هذه الانتقادات ، بل علــى العكس انه يستطيع أن يستفيد من النقد ، ومن التطور فى الــدراسة ، ليجعل من نفسه باحثا يفوق رواد مدرسة التاريـــخ السياسى ، التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، خاصة أن القضايا السياسية أصبحت فى النصف الأخير من القرن العشرين أكثر تعقيدا ، وأجدر اهتماما بالدراسة من قضايا القرن التاسع عشر •

ان المعلومات التى تخرجها معاول الاثريين ، والجدل الــذى أثارته المدرسة المادية فى تفسير التاريخ ، يجب أن تلفت أنظارنا الى أهميـــة التكنولوجيا وآلات الانتاج كعامل له أثره فى احداث التاريخ السياسية ، وعليه أن يستفيد من الجدل الذى يثيره رائد مدرسة التاريخ الاجتماعى ج•م تريفيليان G.M. Trevelyan (١) التى تجمع بين العوامــل المادية والسياسية فى قالب اجتماعى • وعليه أن يضع فى ذهنه مقولة اللورد أكتون وهو « ان بعض الأحداث السياسية مرجعها أفكار غير سياسية » أى أنه يجب الا يغفل الجوانب الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، عند دراسة القضايا السياسية •

ويرى بعض أنصار المدرسة السياسية ، وأن أهم ظاهرة فى التاريخ السياسى هى حركات الوحدة بين الجماعات والدويلات والأقطار من أجل قيام كتل سياسية أكبر ، مثل الوحدة الايطالية ، أو الألمانية ، أو الأوربية ، وبالنسبة لنا الوحدة العربية • فكل الدول مرت بمرحلة الاتحاد ، وبدون هذه الحركة ما قامت كثير من الدول ، وسيظل الاتجاه نحو الاتحاد فى كتل أكبر مستمرا ، سواء بالاتحاد المباشر ، أو فى شكل أحلاف وكتل وتكتلات • بعضها يفشل مثل الكمونولث البريطانى ، وبعضها ينجح مثل السوق الاوربية المشتركة • ان على الشعوب أن تتخلص من شعوبيتها ، وتعود نفسها على الاندماج فى وحدات سياسية أكبر ، فالتقدم الاجتماعى والاقتصادى يتقدم بقدر ما تتسع رقعة الاتحاد • وبقدر ما تزيد مساحة الدولة ، بقدر ما تزيد قدرتها المادية ، وتتحسن أوضاعها الاجتماعية ، وتفرض وجودها بين الأمم • ان الدول تسعى من أجل زيادة طاقاتها فتبحث عن وحدة أشمل وأعم ، خاصة اذا ما وجدت الدولة أن قدراتها محدودة لو بقيت فى معزل عن غيرها • ويساعد على عملية الادماج والاتحاد ، أو التحالف ، التطور التكنولوجى ، الذى حققه العصر الحديث ، فسهولة الانتقال بين أرجاء الدول هدمت الحواجز النفسية القديمة ، التى كانت تفصل بين الشعوب • وسهلت اقتناعها بمزايا الاندماج فى اتحاد أكبر ، كذلك فقد شجعت التكنولوجيا الحديثة الدول الصغيرة بضرورة البحث عن محيط أكبر ، سواء من أجل الصالح الاقتصادى ، أو العسكرى ، خاصة أنه كلما كانت رقعة الدولة أكبر ، كلما كانت أكثر انتاجا ، وأغنى اقتصادا وأكثر قوة •

أن التحالفات والاتحادات وحركات الادماج كانت وستظل أساس العلاقات الدولية ، لان قيامها ليس بالامر السهل ، بل هو عملية شاقة وعسيرة ، وهذا هو الحمل الذى تنوء به السياسة • ومن ثم كان على الباحث فى التاريخ ، أن يساهم بقدر الامكان فى اختياره موضوعات تساهم فى هذه القضية السياسية العسيرة • ومن حق المؤرخ أن يهتم بما يدور حوله فى وطنه ، ومن حقه أيضا اذا أراد أن يتطلع الى موضوعات تاريخية تهم البشرية

كلها ، وقديما قال شاعر الرومان الكبير ترنتيوس Terentius « ان كل ما يهم الانسان يهمنى أيضا » .

لقد شهد القرن ألتاسع عشر جدلا عنيفا بين المؤرخين ، حول تفضيل السياسة عن الاقتصاد ، أم الاقتصاد عن السياسة خلال عملية البحث التاريخى . ونجد اعلام المؤرخين من أمثال ليوبولد فون رانكه Leopold Von Ranke (١٧٩٥ — ١٨٨٦) الألمانى ، وادوارد فريمان Edward Freeman ، وسيلى Seeley يدافعون عن أولويه العامل السياسى . فمثلا دافع رانكه عن العامل السياسى ، لأنه يمثل الجانب الأنسانى أو البشرى فى حركة التاريخ ، ويوضح دور الفرد فى توجيه الأحداث ، ولكنه فى نفس الوقت قال أن التاريخ يجب أن يدرس لذاته ، وليس لأى غرض نفعى آخر ، ومن ثم ركز على دراسة الوثائق بحثا عن التاريخ ، كما كان wie eigentlich gewesen وكان من نتائج ذلك أن جاء اهتمام فون رانكه منصبا على التاريخ السياسى والعسكرى ، ولم ينتبه كثيرا الى النواحى الاقتصادية والاجتماعية . وقد سار على نهج فون رانكة كثير من المؤرخين أشهرهم ل بيورى J.B. Bury وهو أشهر من كتب عن تاريخ بلاد اليونان القديمة . ولما بشر كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) بكتابه الشهير رأس المال Das Kapital (١٨٦٧) وكتابه نقد للاقتصاد السياسى ، ناقض الرأى السابق ، وطالب باعطاء الأولوية لدراسة العامل الاقتصادى ، وذلك لأن الأحوال الاقتصادية لأى جماعة هى التى تحدد صورة نظامها الاجتماعى والسياسى والفكرى ، واذا أردنا أن نفهم أى مجتمع مثل نظامه السياسى وحياته الثقافية والفكرية وانتاجه الفنى ، أو حتى طبيعته الدينيه ، فلننظر أولا الى طبيعة نظامه الاقتصادى ، وأن الذى يقرر طبيعة هذه الجوانب هو الانتاج المادى ، ونوعه وأساليبه . ومن ثم فهو المحرك للعامل السياسى . وكانت هذه المغالاة لأهمية العامل الاقتصادى هى رد فعل تصحيحى ضرورى ، للفساد والظلم والأنهيار الاجتماعى ، نتيجة لتحكم الاقطاع والكنيسة ورأس

المال فى المجتمعات الأوربية ، ابان القرن التاسع عشر والتى لم يعد لها وجود بعد قيام المجتمعات ذات الأقتصاد المخطط ، والتى قضت على مصادر الظلم القديم •

ان التفسير الاقتصادى للتاريخ لا ينطبق الا على العصر الحديث ، حيث أصبح الانتاج هو الشغل الشاغل للمجتمعات ، وأصبح التفكير الاقتصادى صفة عامة فى تحليل الأحداث ، لكن لا يمكن أن يطبق على أحداث التاريخ القديم ، حيث لا يوجد فكر اقتصادى معقد بمثل هذه الدرجة ، بل كان يوجد أحداث سياسية بكل مشاكلها وأبعادها ، مثل قضية الاتحاد والتكتلات ، ان أحداث التاريخ القديم منجم غنى للاحداث السياسية بكل أشكالها وتطوراتها ، وكما يقول أميل روستوفتزف «لا يمكن لأحد أن يفهم الحاضر ما لم يكن له دراية وفكرة واضحة عن تطور الأحداث فى العالم القديم » • ولا يمكن أيضا تطبيق التفسير الاقتصادى على أحداث التاريخ فى العصور الوسطى ، لأن رجال الدين والبابوات والأباطرة هم الذين كانوا يسيرون احداث التاريخ ، ثم أن القادة الذين قادوا أوروبا من ركود العصور الوسطى الى آفاق عصر النهضة ، والكشوفات الجغرافية والتقدم الفكرى والعلمى كانوا فلاسفة سياسيين وأصحاب آراء ونظريات ، ولم يكونوا قوى اقتصادية منتجة ، كما أن الحروب القديمة وخلال العصور الوسطى ، بل وفى العصر الحديث كانت صراعا سياسيا فى الدرجة الأولى ، وأن العامل العسكرى الحاسم عامل سياسى وليس عامل اقتصادى ، ويقول برانراند رسل فيلسوف العصر « ان المشكلة الأساسية فى التاريخ القديم كما فى عالمنا الحديث هو سيطرة القوى السياسية » • ولم تكن الحروب فى العصر القديم ولا الوسيط نتيجة لصراع الطبقات كما يفسر الماديون ظاهرة الحرب ، بل صراعا بين قوى سياسية ، كل تريد أن تفرض ارادتها ، مثل الحرب بين الاسكندر والملك الفارسى دارا الثالث ، أو بين روما وهانيبال القرطاجى ، وأن الذى حدد النصر فى هذه المعارك هو القوة العسكرية التابعة للقوة السياسية ، وليس العامل الاقتصادى ، فالاسكندر الأكبر كان فقيرا

بالنسبه لدارا الثالث ، وكذلك كانت روما بالنسبة لقرطاجة صاحبة الامبراطورية التجارية والبحرية الغنية .

أن التاريخ القديم ملىء بأحداث الاتحادات السياسية أيضا ، بل أن فكرة الدولة السياسية من ابتكار العصور القديمة . فقد حققها أجدادنا قدماء المصريين عام ٣٢٠٠ ق٠ م٠ ، وعرفها السومريون والبابليون فى شكل دويلات المدن التى نقلها الاغريق عنهم . حتى فى المرحلة الأولى للحضارة اتحد الناس فى شكل القبيلة والقرية ، لأنهم أدركوا أن الانسان بمفردة لا يستطيع أن يحقق شيئا ، انما بالتعاون يستطيعون اقامة الاسوار والسدود ، والأهرامات ، كما تشهد بذلك الآثار ، التى تدل على ان المجتمع كان منظما تنظيما جيدا . كما ان اتحاد القرى معا ، أو تزايد أهمية قرية سياسيا أدى الى خلق المدينة ، التى يعتبرها المؤرخون أول ثورة حقيقية فى التاريخ الانسانى . وبعد قيام المدن اتسع الاتحاد السياسى ليشمل اقليما كبيرا تتحكم فيه مدينة أو ما يعرف بالدولة السياسية .

وفى العصر الحديث أيضا نرى نماذج من حركات الوحدة مثل الوحدة الألمانية ، والوحدة الايطالية ، وغيرها من حركات الوحدة والتقسيم ، التى خلقت الدول السياسية التى نراها اليوم . ومن ثم فان العامل السياسى والعلاقات الدولية سيظل يشكل العامل الاكبر فى حركات التاريخ، وسوف يجد أنصار التفسير المادى صعوبة فى الرد على هذه الحقائق .

والتاريخ السياسى لا يجد تعارضا مع التاريخ الاجتماعى ، وهو ما ينادى به الفيلسوف والمؤرخ البريطانى جورج تريفليان Trevelyan (١٨٧٦ — ١٩٦٢) فالدولة هى المجتمع ، والمجتمع هو الدولة ، أو بمعنى آخر الدولة هى الأطار ، والمجتمع هى الصورة التى تملأ ذلك الاطار .

ومن هنا يتضح أن أعظم فائدة يقدمها التاريخ للمعرفة هى فهم الحاضر . فكما بينا للتاريخ فائدة تعليمية عظيمة لأنه المنجم الغنى الذى نتعلم منه الدورس والتحذيرات ، ولأن الناس تدرسه كما قال

كونفوشيوس — لكى تطور من حياتها على ضوء تجارب الذين سبقوهم • اذا فهو مفيد ونافع ، خاصة لدارسى السياسة وللسياسيين ، حتى الفلاسفة القدماء مثل أفلاطون أكدوا على أهميته ويقول البعض « ان كان الانسان كما قيل قديما — حيوانا اجتماعيا — فهو أيضا الى درجة أبعد » حيوان تاريخى « لأن التاريخ يغذى ويكيف شعوره ، ولا شعوره ، بصورة تزداد عمقا كلما تقدم الزمن » ، حتى عند الذين يرون ان التاريخ علم مجرد لذاته ، ولا مقابل من ورائه سوى حب المعرفة ، ولذه البحث ، فهم يعترفون نسبيا ، بأن هناك فائدة تعليمية لدراسة التاريخ •

ان دراسة التاريخ تساعد على بناء الشخصية السليمة للمواطن المدرك الواعى ، لتاريخ قومه وتاريخ نفسه ، لأن التاريخ هو الذاكرة القومية التى يجب أن تكون كذاكرة الفرد قوية وسليمة ، فكما يفقد الفرد ذاكرته عندما يمرض ، تفقد الأمة تاريخها عند تدهورها واضمحلالها ، حين يتعرض تاريخها للدس والتشويش والتزوير •

وهو ليس كما يهاجمه البعض بأننا لا نتعلم أبدا من التاريخ ، أو ان الأمم السعيدة هى التى بلا تاريخ ، لأنه منطق اليائسين المستسلمين ، الذين لا يفهمون معنى التاريخ •

والى جانب الدروس السياسية التى نستخرجها من التاريخ لنفهم الحاضر فى ضوء الماضى ، ولنفهم المستقبل فى ضوء الحاضر ، هناك دروس أخلاقية فكما يقول بتس Betts يتعلم الناس من التاريخ أن دولة الأشرار لابد وأن تزول ، ويلقى الأشرار عقابهم • وهى فائدة لا يمكن اغفالها لو وجدناها فى التاريخ ، وعرضناها بأمانه تاريخية دون اختلاق ، لأنه فى بعض الأحيان نجد الاشرار يتبعون وسائل غير أخلاقية من أجل اقامة دعائم أخلاقية ، كما أن السياسة تقوم فى كثير من الأحيان على وسائل ماكيا فيللية ، تبرر فيها الغاية الوسيلة ، وهذا بالنسبة للتفسير الأخلاقى •

كما أننا نجد أمثلة عديدة فى التاريخ انتصر فيها الشرير الذكى على

الطيب الحسن النية . ونجح الشرير فى تحقيق أعمال سياسية عظيمة ما كان للطيب أن يحققها . لكن كما قلنا هناك نمـاذج يمكن للفيلسـوف الأخلاقى ابرازها ليدلل على « أن دولة الظلم تبقى ساعة ، بينما تبقى دولة العـدل الى قيام السـاعة » وانما الأمم الأخلاق ما بقيت ، فان ذهبت أخلاقيا آخر ليثبت ضياع الامم عندما تذهب الاخلاق ، وقد يجد المؤرخ الأخلاقى فى سقوط نينوى عام ٧١٢ ق . م ودمارها على يد أعدائها ، درسا لما ارتكبه الملوك الأشوريون من عنف وظلم ، ازاء الشعوب التى حكموها ، أو يجد فى زوال الامبراطورية الرومانية وتدهورها درسـا أخلاقيا آخر ليثبت به ضياع الأمم عندما تذهب الأخلاق،وقد يجد المؤرخ الأخلاقى فى زوال الامبراطوريات الاستعمارية فى العصر الحديث درسا يدعم به منطقه التاريخى . وأرنولد توينبى طبق ذلك وهو لا يدرى على توقعه لزوال وتدهور الحضارة الاوربية الحديثة لكنه يجب الا يلجأ الى اختلاق أمراض خبيثة حلت بهؤلاء العظام الشريرين ، مثلما فعل اليهود بالنسبة لنبوخذ نصر ، الذى شتتهم وسحق دولتهم القديمة ، لأنهـا اختلاقات تبريرية من جانب واحد .

يتضح مما سبق أن الفائدة الأولى لعلم التاريخ دروس سياسية فى المقام الأول وهى كثيرة ومتنوعة ، والتاريخ ، ملىء بها ، وقد عـبر الفيلسوف الانجليزى سيلى Seeley عن ذلك بقوله « أن التاريخ هو مدرسـة السياسـة » History is the School of States-manship أى أنـه بـدون الالمـام بقـدر كبـير من التـاريخ القـومى والكلى، لا يسـتطيع طـالب السياسـة والمنـاصب السياسـية أن يشـق طـريقه الى هـدفه بنجـاح ، لانه لا يعـرف كيف يكـون وجهـة نظر استنتاجية للاحداث المعاصرة . والحـاكم من أشد الناس حاجـة الى فهم التاريخ ، لكى يقود سفينة أمته وسط عالم الأنواء والصراعات

الى بر السلام ، ولكى يتفادى أن يسير بهـا عكس التيار التاريخى ، فيرهق نفسه ويرهق مواطنيه معه ، دون أن يصل بهم الى شىء ، أو يصل بهم فى النهاية الى الفشل والكارثة • وهذا أيضا ينطبق على المشرع والقانونى ، الذى يريد أن يضع القوانين والدساتير على الصعيدين القومى والعالمى ، فالقضايا لا تزال هى القضايا ، ومشاكل الفرد لا تزال هى نفس المشاكل القديمة ، وان تغيرت ظـروفها وطبيعتها • ولهذا لا يزال التاريخ السياسى يحتفظ بمركزه ويحظى بالاهتمام الأول لدى كثير من المؤرخـــــــــين •

الفصل الثانى

مراحل التفسير التاريخى

عندما يتأمل المؤرخ فى ماضى الحضارة الانسانية وحاضرها ، سوف يرى مشهدا عظيما ومثيرا للانسان ، يجعله قادرا على أن يتنبأ له بمستقبله ، ويتوقع للفرد أو الدولة مسارها ، وهذا ما نسميه « ببعد النظر التاريخى » أو القدرة على التنبؤ أو بمعنى آخر الحاسة التاريخية .

ان قصة الانسان عند المؤرخ تبدأ منذ وجود الانسان على سطح الأرض منذ العصر الجيولوجى الرابع أى منذ حوالى ٠٠٠ ر ٢٠٠ سنة ق.م ، وتستمر حتى بداية أول مرحلة من مراحل الحضارة الانسانية ، والتى نسميها بالعصر الحجرى الحديث والتى يتفق العلماء على تحديد عام ٦٠٠٠ سنة ق.م كمتوسط لها . أى أن قصة الانسان مع الحضارة والفكر بدأت منذ سته آلاف سنة ق . م فقط ، والتى ظهر خلالها مائتين جيل (باعتبار أن الجيل يعادل ثلاثين عاما) مئتا جيل ظهورا وكافحوا ، تحاربوا وتحابوا ، ثم اختفوا الواحد تلو الآخر ، وتساقطوا كاوراق الخريف . لقد سعى كل فرد من كل جيل ، لتحقيق أغراضه الخاصة ، ومتطلباته اليومية ، لكن لو ابتعدنا عن مراقبة الفرد ، سوف نرى حركة على مستوى اشمل ، حركة اجمالية على مستوى الدول بل والجنس البشرى . ويستطيع الفرد أن يشعر بفاروق هذا التطور ، لو قارن حياة اجدادنا المصريين كما يظهرون على الآثار ، وبين حياة الأنسان المصرى المعاصر ، فسوف يلاحظ فرقا هائلا ، وسوف يزداد هذا الفرق كلما تقدمت الحضارة ، وازداد الابتكار عندئذ تصبح المسافة بين الجد الأول للانسان ذلك المخلوق البدائى ، وبين الأنسان الراقى المعاصر أو المستقبل اكثر بعدا . هذه الحركة والتقدم هى حركة التاريخ .

اذا فان دراسة أسباب تقدم النوع البشرى وحركته التاريخيه ، تعرف عند الكثيرين بأسم فلسفة التاريخ ، لكن الكثير من المؤرخين يسمونها « بمفهوم التاريخ » لأن علم التـــاريخ كما يجب أن يكون عليه ، ليس هو ذلك العلم الذى لا يكتفى بمعرفة كيف حدثت الوقائع ، بل يتعداها الى الحد الذى يبحث لماذا حدثت على النحو الذى حدثت عليه ، وليس عـــلى نحـــو آخر •

ان أدراك المؤرخين بالمفهوم التاريخى ، أو بفلسفة التاريخ شيء حديث نسبيا ، وهى كأى شيء آخــر مرت بمراحل مختلفة ، لأن لـــكل جيل نظرة يمليها عليه واقعة الحضارى ، وظروفه الخاصة ، فينظر الى مفهوم التاريخ من زاوية خاصة ، ويعلل الاحداث لماذا حدثت على النحو الذى حدثت عليه ، وليس على نحو آخر باجابات مختلفة ، ان لكل عهد فلسفة عامة ، حتى وان ظهرت أكثر من فلسفة واحدة فى عصر واحد ، فانها تشترك عادة فى اطار عام واحد ، وتشغل نفسها من أجل قضية مشتركة ، مما يجعلها وأن اختلفت فى التفاصيل مدرسة واحدة كبرى • وخلاصـــة القول ان لكل جيل من الاجيال تفسير معين لحركة الاحداث التاريخية • ولكى نيسر عـــلى القارىء اســـتعراض هذه المـــدارس المختلفة للتحليل التاريخى سوف نلخص بعضها حسب تدرجها الزمنى •

١ — مرحلة التفسير الدينى والاخلاقى للتاريخ :

ان معنى كلمة التفسير الدينى والأخلاقى ، تعنى مرحلة من مراحل الفكر حاول فيها الأنسان تفسير ما يحدث حوله ، على أساس أنه حوادث نتجت ، بفعل وبأرادة قوى عليا ، خارجة عن ارادته ، دفعت بالاحداث الى الطريق الذى هو عليه ، ويحلل بعض المفسرين ذلك بوجود احساس فطرى ، يدفع الانسان الى اضفـــاء الصفات الانسانيـــة على كل شيء حوله ، بل وبث الروح والحياة فيها • ولا يزال ذلك ملحوظا فى لغاتنا وتفكيرنا المعاصر • فعندما نقول « هبط الليل » ، أو « اختنق القمـــر » أو « شابت السنون » فكلها صفات مشتقة من صفات الحياة البيولوجية للانسان أضفاها على أشياء جامدة •

وبمرور الزمن ، حاول الانسان فى المراحل الأولى من تفكيره وأطواره الحضارية ، أكتشاف القدرة الخلاقة التى نظمت الكون ، على النحــو الذى هو عليه ، واظهار القدرة الخلاقة التى تتحــكم فيه ، من أجــل تفسير الظواهر الطبيعية ، ولما كانت قدرات الانســـان العلمية فى تلك العهــود السحيقة محدودة ، فقد لجأ الى الأســـاطير الدينية لتفســـير الظواهر الطبيعية ، كالبرق والرعد المطر وشروق الشمس وغــروبها . وأطلق لخياله العنان ، واستمر هذا التفسير البدائى للأشياء ســـائدا طوال مرحلة الحضـــارة الانسانية فى العصر التاريخى ، حتى ظهــور الرسالات الدينية الكبرى : اليهودية والمسيحية والاسلام والتى الغت كل منها الفكر الوثنى القديم ، وقدمت بصورة منطقية تفسيرات جديدة للعالم ، وحركته ، وللانسان وأطواره ، تفسيرات لا تقوم على الخيال الوثنى للعهود السابقة ، بل تقوم على أســـاس جديد ، هو الأســـاس « الأخلاقى » الذى يرى أن عين الله ساهرة لاتنام ، تعـــاقب الشرير وتكافىء الصالح ، وأن المعتدى لن يهرب أبدا من قصاص اللـــه ، وكم أهلك الله من أمم لانها فســـدت وعصيت وحق عليها القــول فدمــرها الله تدمـــيرا .(١)

وكم يكون من المفيد لو اهتم علماء المسلمين باظهار التفسير القرآنى للتاريخ بصورة أكثر تفصيلا وان كان الأستاذ الدكتور راشـــد البراوى قد قدم للمكتبة العربية كتابا أسماه التفسير القرآنى للتاريخ ركز فيه أكثر على التحليلات التى جاء بها الاسلام من أجل تنظيم العلاقات بين الناس ، واجتهادات علماء المسلمين من أحل وضع حلول لمشاكلهم سواء بالقياس أو الاقتباس أو الاستنباط .

ونرجو فى المستقبل ان يهتم علماء وفقهاء المسلمين ويزيدوا مـــن البحث فى مجال التفسير القرآنى للمشاكل الانسانية الكبرى ، ودور

---

(١) راشد البراوى : التفسير القرآنى للتاريخ : سلسلة القرآن والفكر الحديث : دار النهضة العربية ١٩٧٣ ص ١٩٧ وما بعدها .

(١) راشد البراوى ــ المرجع السابق ص ١٩٨ ــ ١٩٩ .

الشريعة الأسلامية فى تفسير سيرة الانسان ، وحضارته ، وللدينياميكية التى تحركه . لكن الاسلام لكونه خاتمة الرسالات الوحدانية يتفق مع اليهـودية والمسيحية فى أن الحـركة التاريخية ليست سـوى تجـل لارادة الله وحـده ، لأنه هو خالق الخلق ، وهو القادر وحـده على التحـكم فيه .

أما فى مدارس الفـكر المسيحى فتتمثل اراء مدرسة التفسير الدينى للتاريخ على نحو اكثر وضوحا . وأول ما يطالعنا من أراء فى ذلك المجال مؤلفات القديس أغسطين (٣٥٤ — ٤٣٠ م) لقد كان أغسطين أسـقفا على مدينة هيبو عنابة بالجزائر فى شمال افريقيا وهو من أشهر أباء الكنيسة ومؤلف ب«مدينة الله » Civitas dei وتتلخص أراء هذا الفيلسوف فى أن الأحداث التاريخية ليست سوى بنت الارادة الربانية وأن العناية الآلهيـة Providentia تلعب دورهـا فى الأحـداث التاريخيـة . (١) وأحيانا تترجم كلمة العناية الآلهية بالقدر أو الأحداث التى تحـدث فجأة ودون توقع أو استنتاج ، وبناء على ذلك يرفض مثلا الفيلسوف برتراند راسـل Russel فكرة التنبؤ الكامل باحداث التاريخ . ويضرب مثلا على ذلك بقوله هل كان احد من المؤرخين القدامى يتوقع اكتشاف القارة الامريكية مثلا ، وما تلى ذلك من انتقال قدر الحضـارة الانسانية فى الوقت الحاضر الى دولة جديدة ناشئة هناك يتعدى عمرها مائتى سنة بقليل ، كما المستقبل قد يخبىء لنا الكثير ، اذا فلابد ان يكون هناك قوى لا نراها تلعب دورها وتحرك مسار التاريخ فيها . (٢)

ولعل فكرة راسل جاءت شبيهة بفكرة القديس اغسطين ، الذى يؤكد بأن الله القوى الجبـار ، الواحد القهار ، هو الخالق لجميع الكائنات ، وموجد كل قاعـدة ونظام ، وهـو الوهاب الواهب لكل شىء ، والذى

---

(١) حسن حنفى حسنين : نمـاذج من الفلسفة المسيحيـة فى العصر الوسيط — دار الكتب الجامعية — القاهرة ١٩٦٩ ص ١ ٣٠ .

(2) Michael Grant : Ancient History, Home study Books, Methuen & Co. Ltd, London (1952) p 14,

بعنايته وقدرته تقوم الامبراطوريات أو تنهار • وقد ضرب القـديس اغسطين مثلا على ذلك بالامبراطورية الرومانية ، وفسر عظمة الرومان بارادة الله • لأنه سبحانه وتعالى عندما أراد للامبراطورية الرومانية أن تصـبح اعظم الامبراطوريات ، وذلك لكى يستخدمها لانزال العقـاب بالامم الكافرة الجاحدة بنعمته، ولكى يحقق ذلك سلم قيادة الامبراطورية رجال طموحين ، يعبدون الأطراء والمديح ، والمجد والتمجيد ، ويرون فى عظمة الأمه الرومانية عظمة مجدهم الشخصى ، ولهذا كانوا دائما على استعداد للتضحية بأنفسهم ، مضحيين فى سبيل ذلك بكل غال وثمين • هذا بالرغم من أن القديس اغسطين ، اعتبر حب المجد والعظمة رذيلة ، وليس فضيلة ، ولكن من الدرجات الدنيا •

وعلى هذا النهج ، فسر اغسطين عظمة الامبراطور قسطنطين ، أول امبراطور مسيحى يؤمن بأنه عبد تقى ، أسبغ الله عليه نعمته ، فجعـله يلفظ عبادة الأوثان ، ويلجأ اليه ليعبده وحده ، ومن ثم جعله الله يقود الامبراطورية الرومانية المسيحية ، ليعاقب عبدة الأوثان والكفار •

كذلك فسر اغسطين ظاهرة الحرب فى المجتمع تفسيرا دينيا ، اذ رأى أن الحرب ليست سـوى ارادة ربانية مقدرة ، أريد بها معاقبة البشر ، وأن الله وحده هو الذى يضبط ميقاتها ، وهو وحده القادر على انهائها ، ومدها ، حسب ارادته ومشيئته •

ويظهر أنصار هذه المدرسة عند مؤرخى القرنين السادس والسابع الميلادى ، والذين عالجوا سقوط الامبراطورية الرومانية المسيحية (١) ، والاسـباب التى ادت اليهـا ، فعندما عـزا آلاريك Alaric روما علم ٤١٠ م ، واستولى عليها ودمر معظم أحياءها ، قال الكتـاب الوثنيون من الرومان أن هذا ما هو الاعقاب من لدن ألهة روما القديمة ، التى خلقت الامبراطورية من قرية صغيرة ، من قرى سـهل لا تيوم ،

---

(1) A.H.M. Pones, Thoughts on the Decline and Fall of the Roman Empire, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XXIII, Part 1, May 1961.

اسمها روما ، وجعلها تبرز كقوة عظمى ، تقرر مصير العالم ، والآن هجر الرومان آلهتهم القـديمة مثل جوبتر وجـونو ، وأبو للون ، ثم انتشرت المسيحية ، التى أنكرت ، بل هدمت قواعد هذه الآلهه ، ثم جاء ثيود وسيوس ليبطل رسميا عبادتها ، ويوقف شعائرها منذ عشرين عاما قبل هجوم آلاريك ، ومن ثم جاء عقاب الالهة الوثنية للرومان ، بأنهم تخلوا عن روما وعظمتها ، وانتقمت ، فجعلت البرابرة ، اعداء الحضارة الرومانية ، والذين طالما سحقتهم روما يندفعون فيسقطون الامبراطورية ، ويستولون على قلبها أعنى مدينة روما •

وقد رد الكتاب المسيحيون بنفس المنطق ، وبنفس التفسير ، فكتب المؤرخ أوروسـيوس Orosius بـأن الرومـان عـانوا الكثـير من النكبات والهزائم ، أيضا فى ظل عبادة الوثنية ، وقبل دخول المسيحية ، وذكر أن سقوط روماليس سوى اختبار من الله ، ومحنة مؤقته أو نكسة عارضة ، وأن الامبراطورية سرعان ما تعود الى وقتها ، وأن البرابرة أعداءها سوف يهزمون ، ويعودون الى حظيرتها ، والى خدمتها فى ظـل الدين المسـيحى •

ومن أقطاب هذه المدرسة أيضا المؤرخسالفيانوس، الذى فسرسقوط روما على أنه غضب وانتقام من الله ، لأن عباده من الرومان المسيحيين ضلوا عن سبيلة ، فأرتكبوا المعاصى وظلموا الفقراء ، وفسدوا ، وانحلت أخلاقهم ، فتركوا الشعائر والعبادات ، وجروا وراء الملاهى ، والملاعب الرياضية ، والمسارح ، وغيرها من كافة المغريات ، ومن ثم غضب الله عليهم ، ولقنهم درسا ، بأن جعل البرابرة الذين هم أدنى مرحلة من الرومان ، ينتصرون عليهم ويستولون على عاصمتهم روما •

وبنفس المنطق فسر الأسقف يوحنا أسقف نيقية John Bishop of Nikiou . سبب انتصار الاسلام ، والدعوة الأسلامية على الرومان البيزنطيين وانتزاعهم مصر من بين براثنهم ، رغم اسـتماتة البيزنطيين فى التمسك بها ، وقال يوحنا أن انتصـار العرب ليس سوى

عقاب من الله ، جزءا وفاقا على الذنوب التى اقترفها بعض الأباطرة الظالمين ، من أمثال كل من جستنيان وهرقل ، ضد طائفة من المسيحيين المصريين ، هم أنصار كنيسة الاسكندرية ، التى انفصلت منذ عام ٤٤٨ م ، عن قانون الايمان المسيحى ، ونادت بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وأطلقوا على أنفسهم اسم اليعاقبة ، بينما ناصرا الرومان أقلية ، ظلت وفية لهم ، أطلق عليهم اسم الملكانيين ، أى التابعين للامبراطور البيزنطى ، المؤمن بالطبيعتين فى السيد المسيح ، وكان هؤلاء الملكانيين أقلية بعكس اليعاقبة ، الذين كانوا يكونون غالبية الشعب المصرى ، وقد حاول الرومان البيزنطيون استئصالهم ، فى حركة اضطهاد بشعه ، خاصة ابان عهدى جستنيان وهرقل ، حيث الحق هذان الامبراطوران بالأقباط المصريين ، كل أنواع العذاب غير الانسانى ، بسبب التعصب المذهبى ، ومن ثم فسر يوحنا أسقف نيقية انتصار الأسلام على الامبراطورية البيزنطية ، بأنه عقاب من الله ، بسبب ظلم الاضطهاد الرومانى للمسيحيين المصريين •

وينطوى تحت لواء التفسير الدينى للتاريخ ، مدرسة صغيرة محدودة هى مدرسة التفسير الأخلاقى للتاريخ • ويرجع أصول هذه المدرسة الى أنصار الأفلاطونية الجديدة Neo-Platonism ، وبعض المفكرين اللاهوتيين • وهذه المدرسة تفسر التاريخ على أنه دروس أخلاقية ، على الناس أن يتعظوا منها • يقول أحد زعماء هذه المدرسة وهو • ر • بتس R.R. Betts أن الناس يدرسون التاريخ ليتعلموا كيف نال الأثمون والمعتدون عقابهم من الله جزاء ما أفسدوا وظلموا • (1)

وبالرغم مما قدمته المدارس اللاهوتية والأخلاقية من تفسيرات للتاريخ ، وبالرغم من أنه لا نرى مانعا على الأطلاق من أن نتعظ أخلاقيا من دروس التاريخ كلما سنحت الفرصة ، الا أن المؤرخ لا يستطيع أن

(1) Michael Grant, op. cit, p 26.

يفرض هذا التفسير على كل حدث من أحداث التاريخ لأن فى ذلك تطرفا ومغالاة ، وتحميل للحوادث أكثر مما تحتمل ، بل يعتبر فى كثير من الأحيان تهربا من البحث الحقيقى ، للأسباب المحركة والتى يلعب البشر فيها دورهم • كذلك يصبح منطق هذه المدرسة غير مقنع ، اذا ما جادلنا بأن أحداث التاريخ شــهدت شخصيات كثيرة ، وشريرة ، ولكنها انتصرت بذكائها ومهارتها على قوى طيبة ، ولكن قليلة الحيلة ، وذلك لأن الحمائم الأخلاقية لايمكن أن تقدر على مواجهة الصقور الشرسة الذكية ، وأن البقاء للأقوى وللاصلح ، بصرف النظر عن مكانته وصفاته الخلقية • كمــا يقول نقاد هذه المدرسة أيضا أن التاريخ ملىء بشخصيات يمــكن أن نعتبرها شريرة ، ولكنها قدمت عظيم الأعمال للبشرية وللانســانية ، وأن الحقيقه التاريخية ترفض مبالغة أنصار هذه المدرسة فى العقــاب الذى ينتظر الظــالمين والمعتــدين ، لكن العناية الالهيــة Providentia موجودة ، وتتمثل فى الاحداث ، التى تحدث دون أى توقع أو حساب ، بل أن الحروب نفسها برغم دقة الاستعداد لها ، لا تزال نتائجها وخط سيرها يتوقف على العناية الآلهية التى هى مشيئة الله • (١)

ولقد أكال المؤرخون الماديون النقد لمدرسة التفسير الدينى للتاريخ ، وركزوا فى هجومهم على القديس أغسطين ، فوصفوا طريقته بأنها عديمة الجدوى عند تحليل الواقع التاريخى ، لأن على المؤرخ أن يبحث عن كل الوقائع ، سواء تلك التى سبقت أو رافقت الظاهرة ، التى يسعى المؤرخ الى تفسيرها • كما انتقد الماديون مغالاة أغسطين فى التدين ، وتقوى الله واسهابه فى الحديث عن العناية الربانية ، دون أن يعطى اهتماما للبشر • خاصة أن التاريخ هو علم البشر ، واحداثه هى صورة الدول والجماعات • كما أن قول أغسطين بأن « سبل الله لا يمــكن سبر أغوارها » اعتراف منه بأن هناك حدودا للبحث ، وقد يعنى ذلك أنه من

---

(١) سيد احمد على الناصرى : الحرب والمجتمع القديم سلسلــة المكتبة الثقافية ، العدد ٢٨٧ (١٩٧٢) ص ٣٠ — ٣١ •

العبث أن يحـــاول البحث والتقصى من أجل تفســـير حـــوادث الحياة الانسانية ، وهو أمر لا يقبله الباحث العازم على رصد حركة التاريخ •

وبالاضافة الى القديس أغسطين ، هناك فيلسوف لاهوتى آخر هو الأسقف الفرنسى الشهير بوسويه (١٦٢٧ — ١٧٠٤) ، وهو مؤلف كتابه « رسالة عن التاريخ العالمى » وفيه أوضح رأيه بأن مصائر الشعوب ، وقيام الامبراطوريات ، واضمحلالها ، انما تنظمها العنـــاية الآلهية ، ويضرب المثل على ذلك بشعب بنى اسرائيل ويقـــول « اســـتخدام الله الأشوريين والبابليين لمعاقبة بنى اسرائيل ، ثم استخدم الا،ـــكندر الأكبر لحمايته ، ثم استخدم أنطيوخوس الثالث ملك سوريا ، لامتحانة ، ثم استخدم الرومان من أجل دعم حريته ضد ملوك سوريا ، الذين لم يكونوا يفكرون سوى فى تدمير اليهود ، وظل اليهود حتى عهد الســـيد المسيح تحت حكم الرومان ، ولما أنكر اليهود المسيح ، قـــدم أولئك الرومان وهم لا يدرون سواعدهم لتكون أداة الأنتقام الآلهى فأبادوا ذلك الشعب القلق « ويقـــول بوسوية فى رسالته أيضا » عنـــدما تمـــر الامبراطوريات الكبرى التى هزت الكون من أمام عينيك فى لمح البصر ، عندما ترى الأشوريين ، والبابليين ، والفرس ، والأغريق ، والرومان ، يتوالون ويذهبون فان ذلك يجعلك تشعر بأنه لا يوجـــد شىء راســـخ وثابت بين الناس ، وانما التقلب والاضطراب هما الســـمة العامة لحركة التاريـــخ •

ومن ثم فأن علم التاريخ الحقيقى ، هو ملاحظة تلك الدوافع الخفية، التى تسبب التغيرات الكبرى ، والتى مبعثها الصفات المتفاوتة ، التى منحها الله لشعوبه ، فى درجات ومرتبات متفاوته • وهكذا فان فلسفة بوسويه اللاهوتيـــة ، تتميز عن فلسفة القـــديس أغسطين ، بأنها تؤكد وتلح على وجوب البحث عن الأسباب الخاصة للحوادث والبواعث ، التى جعلها الله سببا لرفعة أمة أو سحقها • وهذا فى حد ذاته اعتراف من بوسوية بـــأن هنـــاك أسبابا ربانية ، ومسببات انسانية ، للاحـــداث التاريخية ويعتبر ذلك الرأى من أكثر الآراء نضوجا فى مدرسة التفسير

الدينى لاحـــداث التـــاريخ ، لأنها تقف وسطا بين الارادة ــ الربانية والســـلوك الانســـانى •

٢ ــ المفهوم العقلانى المثالى للتاريخ :

كان لقيام الثورة الفرنسية تأثير كبير على تغير النظـــرة الى تفسير الاحداث التاريخية ، فقد قام مفكرو هذه الثورة بالتمهيد الفكرى لها ابان القرن الثامن ، ويجىء على رأس هؤلاء المبشرين بالثورة فولتـــير Voltaire (١٦٩٤ ــ ١٧٧٨) ، والذى نـــادى بـــأن الايمـــان يجب أن يكون بالعقل والتفكير العلمى ، ثم سعى الى تفسير الظواهر التاريخية بالمسببات الطبيعية عن طريق التفسير العقلانى العلمى • وقد جاءت هذه المدرسة كرد فعل لجبروت الكنيسة وتعاونها مع الاقطـــاع والملكية ، ومن ثم فقد عرفت بعدائها السافر والشـــديد للمسيحية ، ولمدرسة التفسير اللاهوتى للتاريخ • وكانت المناسبة لاندلاع العـــداء بين المدرستين ، تحليل المدرسة العقلانيه لأسباب سقوط الامبراطورية الرومانية • فذكر فولتير أن أسباب سقوطهاهو نتيجة عاملين: أولهما هجوم البرابرة الجرمان عليها ، مماقت فى عضدها ، وثانيهما المسيحية وتفشى المجـــادلات والهرطقات الدينية ، ويتساءل فولتير لـــماذا لم تســـحق الامبراطورية الرومانية هؤلاء البرابرة الجرمان ، كما سحق ما ريوس القنصل الرومانى فى عصر الجمهورية قبائل الكمبريين والتيوتون ، الذين كانوا أشد خطرا على روما فى مطلع القرن الأخير ق • م • الميلادى من هجـــوم الجـــرمان على الامبراطورية ابان القرنين الرابع والخامس الميلادبين ؟ ويجيب فولتير على سؤاله بأن السبب هو عـــدم وجـــود رجال من عينة ماريوس لانقاذ الامبراطورية ؟ ثم يجيب الأن جوهر وطبيعة الرومان كانت قد تبدلت ، ولم تعد روما قادرة على انتاج رجال بهذا القدر من الزعامة ، اذ أن الامبراطورية الرومانية أصبح لها من الرهبان أكثر مما كان لها من الجنود والزعماء ، وتحول أحفاد القائد سكيبيو Scipio قاهر أفريقيا ، الى رهبان ورجال لا يعرفون سوى الدخول فى مجادلات دينية عقيمه ، وانتقل الوقار من رجال العمل والزعامة ، من أمثال كاتو

وشيشبرون ، وقيصر ، الى رجال الكنيسة ، من أمثال القديس أمبروز ، وكيرولوس (سيريل) وجريجورويوس • وبعد أن يحكم فولتير الاتهام بأن المسيحية هى التى أودت بحياة الأمبراطورية الرومانية ، يتطرق الى سؤال أبعد ، وهوما الذى جعل المسيحية تنتصر وتتغلغل فى الامبراطورية ويجيب بنفسه بأن السبب هـو الامبراطور قسطنطين ، الذى اعترف بها كديانه لها كيانها ، بل أنه اعتنق الدين الجديد وترك دين الاسلاف • وهنا يكتفى فولتير بهذا السبب ، دون أن يحلل ويبحث العوامل الحقيقة ، التى ادت الى تغلغل المسيحية فى الامبراطورية الرومانية ، وظلت هذه المدرسة سائدة الى أن ظهرت مدرسـة جديدة ، هى مدرسة التفـكير الاجتماعى والاقتصـادى •

وخلاصة رأى فولتير أن التطور التاريخى هو نتيجة لتطور طبائع الشـعوب Les moeurs فى مراحل متعددة ، ونتيجة لتطـور آرائهم وافكارهم ، وأن طبائع الرومان القديمة والتى صنعت منهم أقوى أمة فى الأرض قضت عليها المسيحية ، التى حولتهم الى سلبيين مسالمين ، اذا ضربهم أحد على خدهم الأيمن ، مدوا له الأيسر ، واذا نازعهم على جزء من ثوبهم تركوا له الثوب كله • ومن ثم اختفت الرغبة فى عظمـة الرومان ومن ثم اندثرت الامبراطورية •

وبنفس المنطق الذى حلل به فولتير سقوط الامبراطورية الرومانية ، كتب المؤرخ العظيم ادوارد جيبون Edward Gibbon مؤلفه الضخم عن تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية ، انتهى فيه الى أن طبائع الرومان قد وصلت الى الانحطاط ، بسب ضياع الفضائل القديمة ، لأن المسيحية تسببت فى تدهور الروح المعنوية للرومان ، وقضت على الطموح القومى ، وحولتهم الى شعب مسالم سلبى ، كما أن المسيحية حـولت الالآف من الرجال الأقوياء الى رهبان وقساوسة ، يعيشون فى الأديرة ، فحرمت من قوى بشرية كانت فى أشـد الحاجة اليها ، وبعد انتصـار المسيحية ، ساد التمزق بسبب الصراع المذهبى ، الذى أدى الى انقسام الامبراطورية الى نصفين متعاديين •

ومن اعلام الفلاسفة الطبيعيين الذى ظهروا ابان القرن الثامن عشر الفيلسوف الفرنسى المجرى الأصل هولباخ Holbach (١٧٢٣ — ١٧٨٩) والذى قال بأن تدهور الأمم ليس سوى نتيجة للتدهور أخلاقها ، وتفشى الشرور والفساد فيها ، وأن منبع ذلك هو الجهل والحكم العشوائى على الأمور ، وانعدام الخبرة وضيق الأفق ، وقصر النظر • ويعترف هولباخ بأن شعوب هذه الأمم المتخلفة تحاول تبديل نظمها بحثا عن الشفاء من أمراضها ، وكثيرا ما يكون هذا التبديل والتغير عقيما ، مثله مثل المريض الذى يتقلب فى فراشه دون أن يجد وضعا مريحا ثابتا • وفى النهاية تنهار هذه الأمم ، لأنها عجزت عن مواجهة العيوب الأساسية فيها ، بالشجاعة والقوة الكافية ، وتركت الأهواء العمياء تتقاذفها ، يمنة ويسرة ، كما يتقاذف الموج قاربا صغيرا •

ومن أقطاب تلك المدرسة الفيلسوف الفرنسى هلفيتيوس Helvetius (١٧١٥ — ١٧٧١) والذى نادى بأن أفكار الشعوب تنبع من احساساتها فى المقام الاول ، وهاجم رأى الفيلسوف الفرنسى مونتسيكيو « عن الاقطاع » لانه من صنع القوة ، وهذه القوة هى التى فرضت الجهل على الناس •

ان التفسير المثالى للتاريخ يتضمن بعض الحقيقة ، لأن للرأى العام تأثير نابع على الحكم ، ولكن أفكار البشر وعواطفهم ليس خاضعة للصدفة ، انما تخضع فى نشوئها وتطورها لقوانين ، يجب أن ندرسها ، ومن ثم فأنه يوجد سبب أعمق من التفسير الذى أعطته هذه المدرسة ، وهو السبب الابعد المسبب للحركة التاريخية • كما أن فلسفة جون لوك John Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) ، التجريبية برهنت على أنه لا توجد أى أفكار أو مبادىء أو مفاهيم فطرية فى وجدان الانسان أو عقله ، انما تتكون هذه المفاهيم من واقع التجربة ، التى يخبرها الانسان عن طريق الحواس • أى أن الناس يستمدون أفكارهم ومبادئهم من التجربة ، لانه لا توجد أفكار أو أراء دائمة ، والاخلاق مثلا تتبدل تبعا للزمان وللمكان ، حسب المصلحة والفائدة العملية ، والتجربة الفردية

٣ ـ مرحلة التفسير الاجتماعى :

يعتبر سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) فى الحقيقه وسطا بين علماء الاجتماع وعلماء الأقتصاد ، بالرغم من أنه أكد فى مؤلفاته بأنه ميدانه هو ميدان علم الفيزياء الاجتماعى La Physique Sociale ، وقد كان سـان سيمون من المع المفكرين الفرنسيين ، الذين وضعوا مبادىء فلسفة الثورة حيث أحدثت تغييرا كبيرا فى الفـكر التاريخى •

ويؤكـد سان سيمون على وجوب دراسة الحـوادث المتعلقة بحياة الانسان الماضية ، لكى نستكشف قوانين تقدمها ، ونرصد حركتها ، لاننا لا نستطيع التنبؤ بمستقل الاحداث الا اذا فهمنا الماضى الجماعى للانسان ، وذلك بتحليل المجتمـع تحليـلا فيزيائيا ، بحيث يصـبح علم التاريخ كغيره من العلوم الطبيعية الاخرى • ولكى يؤكد نظريته درس سان سيمون تاريخ أوربا الغربية منذ سقوط الامبراطورية ، وخرج من ذلك برأيه فى أن صراع المصالح الاجتماعية الكبرى هو الذى يشكل حركة التاريخ ،التى هى صراع متصل بين الطبقة العاملة من فلاحين وصناع ، وبين الطبقة الأقطاعية وطبقة رجال الدين • وبذلك نفى سان سيمون رأى المدرسة المثالية ، التى كانت تنادى بأن الأراء والأفكار التى تسود فى أى عهد هى التى تشـكل تاريخه ، وتتحكم فى سيره • وأحل محله رأيه فى أن حركة التاريخ هى صراع مصالح الطبقات الاجتماعية البانية للمجتمع ، والناتج من تعارض مصالحها • ويشرح ذلـك برؤيته لتاريخ أووربا الغربية منذ سقوط الامبراطورية الرومانية ، والذى يراه صراع متصل بين طبقة رجال الكنيسة (الاكليروس) ، وهم الطبقة الأولى وطبقـة رجال الاقطاع (وسماهم الطبقة الثانية) ، من ناحية ، وبين رجـال الطبقة العاملة من فلاحين وصناع (وقد سماهم برجال الطبقة الثالثة Tiers-etat من ناحية أخـرى ، ثم استعرض معالم ذلك الصراع الاجتماعى ، فذكر أن الملوك فى العصور الوسطى انحازوا الى رجال الطبقة الثالثة ضد أمراء الاقطاع ، فمنحوهم حقوقا خاصة لسكـان

المدن من رجال الطبقه الثالثه مما أدى الى ازدهار المدن الصناعية Les bourgs ، وأصبح سكانها الاثرياء بورجوازيين Les bourgeois
وقد قاد هؤلاء البورجوازيون الطبقة الثالثة ضد أمراء الاقطاع ، وبعد ذلك قادوا طبقتهم ، عندما قامت الثورة ضد الملكية ذاتها ، التى كانت تحميها •

ولقد أثرت أفكار سان سيمون التاريخية تأثيرا كبيرا على عدد من مفكرى عصره ، ومنهم تلميذه أو جستان تيرى Augustin Thierry (١٧٩٥ — ١٨٥٦) الذى احدثت اراؤه ثورة حقيقية فى ميدان التفسير الحقيقى للأحداث • لقد كان تيرى من أشد المتحمسين للثورة الفرنسية ، وخاصة لفكرة الحكومة الاشتراكية المحلية المتطرفة • أو ما يعرف أحيانا بأسم الكوميون الباريسى (١) La Commune Parisienne التى كونها رجال الطبقه الثالثه • ومن ثم جعل رجال الطبقة الثالثة محل دراسته وألف كتابا من أربعة مجلدات عنهم سماة « مجموعة من الآثار غير المنشورة الخاصة بتاريخ الطبقة الثالثة » انتهى فيه الى أن التاريخ ليس سوى صراع اجتماعى بين الطبقات ذات المصالح ، وأن الانتاج ومصدر الثورة هم رجال الطبقة الثالثة ، ولكى تصل الى حقوقها كانت تتحالف مع الطبقات الحاكمة القوية • وأنه ما من زعيم قوى أو بطل عظيم الا وكان وراءه رجال الطبقة الثالثة كقوة دافعة وبدونهم ما حقق شيئا ولا أصبح بطلا • ولهذا نفى الفكرة القديمة القائلة بأن التاريخ

---

(١) الكوميون الباريسى : هى حكومة مؤقتة ، غير دستورية ، لبلدية مدينة باريس . اقامها الثوار اليعاقبة ، بعد اسقاط الحكومة الشرعية ، وذلك فى العاشر من اغسطس عام ١٧٩٢ . وقد قامت بسجن الملك لويس السادس عشر والملكه مارى انطوانيت فى قلعة المعبد بباريس . كما القت القبض على عدد كبير من انصار الملكية ، ورجال الدين ، والاستقراطية . ونفذت فيهم حكم الاعدام ، بطريقة بشعة ، فى سبتمبر الأسود من العام نفسه . وقد القى اللوم على الزعيم الثورى الارهابى مارات ، باعتباره المحرض على هذه المذبحة ، التى ظلت وصمة عار فى جبين الثورة الفرنسية انظر : —

Charles Downer Hazen, Modern Europe Upto 1945, S, Chond Company, Delhi 1963, p 129-130,

يصنعه الابطال والزعماء وبهــذا تكون هذه المرحلة قــد مهدت لمرحلة التفسير المادى والاقتصادى للتاريخ •

مرحلة التفسير المادى الاقتصادى :

وهذه المدرسة التى يتزعمها كارل هاينرش ماركس Heinrich Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) نفت التفسيرات المبكرة للتاريخ ، سواء تلك التى كانت ترى أن التاريخ يسيره العدل المطلق ، أو الزعماء والافكار المثلى • وانما ركزت على أن هناك عامل ثالث أجدر بالأهتمام وهو العامل الأقتصادى ، لأنه العامل الذى تسلط على سائر العوامل الأخرى • وقد نشر كارل ماركس هذا الرأى فى عدة أبحاث دعى من خلالها الى احــداث ثورة اشتراكيه تنفذ أفكاره • ويرى ماركس أن التاريخ يحكمه قوانين حتمية مصدرها حــركة التــاريخ ذاته ، وأومــا ســموه بالحتمية التاريخية • historical determinism

ويرى ماركس أيضا أن الوضع الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد صور نظامه ، ودرجة حضارته وثقافته • وأن الانتاج ونوعه وأساليبه هو أساس النظام الاقتصادى ، وأن الانتاج لا يظل على أسلوب واحد ومستوى واحد ، بل دائم التطور ، ولكن ببطىء • ومن هذا التطــور يخرج تطور المجتمع ، سواء من ناحية قوانينه ، أو أفكارة ، أو فنونه ، أو عقائده • وأن الانتاج المادى لأى جماعة هو الذى يحدد مفهوم نظامها الاجتماعى والسياسى • وأن كل ما يلحق بالمجتمع سواء من ثورات أو انقلابات سببها أوضاع العمل والانتاج والملكية • وأن النظام السياسى القوى يقوم على نظام اقتصادى راسخ ومتين ، أى ان العامل الاقتصادى هو العامل المؤثر ، الذى يحرك العامل السياسى ويتحكم فيه •

ومن ثم يكون على باحث الظواهر التاريخية فى المجتمع أن يفتش عن البواعث الاقتصادية الكامنه وراءها ، خاصة فى عصرنا الحاضر ، حيث يلعب الاقتصاد وأساليب الانتاج دوراً أساسيا — ولكـــن الماركسيين يرفضون فكرة الاصلاح التدريجى للمجتمع ، بحجة أنه لا يؤدى الى نتيجة

حاسمه ، بل أن الصراع يجب أن يكون شاملا وحاسما عن طريق الثورة ، التى تقضى على القديم تماما ، وان آلام الثورة وكوارثها هو الثمن الذى يجب أن يدفعه المجتمع من أجل التغير الشامل ، حتى وأن كان العنف وسيلة ذلك . وأن الصراع لن ينتهى ، الا بفرض دكتاتورية البروليتاريا ، أو الطبقة العاملة .

ولقد انتقد كثير من المؤرخين الماركسية ونظريتها فى الثورة الشاملة والعنف الثورى ، لأنه فى كثير من البلدان نجحت فكرة الأصلاح التدريجى الهادى ، أو الاصلاح القانونى ، ووفرت على هذه المجتمعات الكثير من دمار الثورة وخرابها ، بل أن هذا النقد جاء من جانب الماركسيين أنفسهم فيما يعرف بالماركسية الجديدة ، أو الاتجاه الجديد للماركسية .

كما انتقد آخرون فكرة سيطرة العامل المادى أو الاقتصادى فى التاريخ ، ويقولون أن العامل السياسى هو الأقوى والأرسخ ، وأنه اذا كان العامل السياسى راسخا وقويا ، فان الاقتصاد فيه يكون راسخا وقويا ، وليس العكس .

مفهوم فلسفة التاريخ فى العصر الحديث :

وعندما نتحدث عن المعايير ، التى يجب على المؤرخ أن يتسلح بها ليصبح قادرا على كتابة التاريخ كتابة نقدية ، لابد أن نتساءل ، وما هى هذه المعايير المنهجية والفكرية ؟ . لقد حاول الكثيرون الاجابة على هذا السؤال بطرق شتى ، وقد صنفت الاجابات تحت الآراء الخاصة بقضيه فلسفة التاريخ ومفهومه . وهى عموما فى تفسيراتها تتبع أحد الاتجاهين : الاتجاه الصوفى المثالى Mystic وهو رأى الفيلسوف هيجل (١٧٧٠ — ١٨٣٠) ومعاصروه ، الذين تأثروا بالأيمان المسيحى . وهم يؤمنون بالعقل المطلق الذى هو المثل الأعلى لكل شىء ، وهو يسير الأحداث فى الكون كله ، ومن ثم فأن تحركات التاريخ محسوبة ومقدرة أبديا ، وكل الحوادث تسير الى حيث هو مرسوم لها أن تسير ، وكل حادث يأخذ مبرراته من المسار العام للاحداث التاريخية ، وفى ذلك تأثر هيجل بمدارس

التفسير الدينى ، التى ترجع كل شىء الى ارادة الله وتقديره ، وهـذه المدرسة تفضل التأمل فى معالم العصر والحياة عند دراسة التاريخ ، وليس شرطا أن نبدأ من القديم بل نبدأ بالتأمل فى الاحداث المعاصرة ، فاذا ما اكتمل تأملنا لمعالم الحياة ، أمكننا ارجاع النماذج (Patterns) الحاضرة الى أصولها الاولى ، أى أن هذه المدرسة تفضل أن نبدأ من التاريخ المعاصر ونتابع التقصي حتى التاريخ القديم •

أمـا المـدرسة الثانيـة فهـى المدرسـة الماديـة Materialist والماديون من ألد خصوم المثاليين ، وأحيانا يعرف الماديون بأنصار المـدرسة الطبيعيـة Naturalist ، لانهـم نظـروا الى التـاريخ على أنـه فرع من فـروع التـاريخ الطبيعى والعـلمى ، الذى يسقط الجانب الروحانى ، ويتحرى المادة وحدها ولا غيرها ، وبذلك عرفوا أحيانا بأسم أصحاب المذهب الواحد Monists • والمدرسة المادية تقول لكى ندرس التاريخ لابد أن نبدأ من القديم ، حتى نلحظ التطور الذى حدث على المجتمعات الانسانية ، وبذلك نتمكن من رصد حركة التطور ، وعلى ضوء ذلك نضع معاييرا للتاريخ ، وهذه المعايير سوف تهدى المؤرخين الى المنهاج الصحيح عند كتابة التاريخ وتساعدهم على رصد حركته ومساره •

وقد اشتد الجدل بين أنصار المدرستين : المدرسة المثالية ، والمدرسة الطبيعية منذ وقت طويل حول البحث عن النمط ، الذى تسلكه الحركة التاريخية على الوجه الأعم ، ونوع اتجاه هذا التحرك • والجدل طويل ومعقد ، وهو فلسفى أكثر منه تاريخى ويدور الجدل بين ثلاثة أراء هى : —

١ — أن التاريخ يسير نحو التقدم Doctrine of Progress

أن هذا التقدم التاريخى يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمه للتنظيم الاجتماعى ، وأسس جديدة ، ولكن فى نفس الوقت يرون أن التطور التدريجى لا يؤدى الى نتيجة حاسمة ، لأنها لا تقضى على القديم ، بل تحوره وتطوره • ومن ثم فأن الحركة التاريخية فى حاجة

الى دفعة قوية للقضاء على القديم جملة وتفصيلا عن طـريق الثورة الشاملة ، وأن العنف وما يسببه من كوارث وآلام هو الثمن الذى يدفعه أى شعب يبغى تحقيق طفرة كبيرة ووثبة عالية ، ينتقل بفضلها من القديم الى الجديد • والماركسيون هم أصحاب هذه النظرية التقدمية ، وان كانت هذه النظرية لاقت مراجعه من المفكرين الجدد ، الذين قبلوا الاصلاح والتطور التدريجى والذى أعطى نتائج طيبة فى كثير من البلدان خاصة بلدان أوروبا واليابان • وأن الثورة والعنف لم يعودا هما أنسب الطرق للتغيير التقدمى •

٢ ـ نظرية العودة التاريخية : Doctrine of Retrogression

والتى تتلخص فى القول الشائع بأن التاريخ يعيد نفسه ، وكانت هذه النظرية سائدة عند مؤرخى العصور القديمة • وكان أفلاطون قد عبـر عن هذا الرأى محاورته تيمايوس Timaeus ثم وردت فى الأكلوج الرابع عند فرجيل ، وتلاه سائر المؤرخين القـدماء • غير أن النظرية الحديثة المتصلة بعلم الفلك جردت هذه النظريه القديمة من أساسها الفلكى ، الذى اعتمد عليه أفلاطون • وبالتالى لا يوجد دليـل واحد على صحتها • وهذه النظرية ليست صحيحة بدرجة كاملة ، لأننا لا ننكر التطور التاريخى وتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية بفضل المبتكرات والاكتشافات العلمية الحديثه ، لكن صحيح أن بعض النماذج التاريخية قد تتكرر ، اذا تشابهت الظروف النفسـيه والاجتماعـية والاقتصادية وقد يحدث ذلك فى البلدان البعيدة عن تيارات التفاعلات الفكرية • وكان المؤرخون القدماء لا يهتمون بتاريخ البشرية ككل ، بل بالحوادث الفردية ، التى قد تتكرر نماذجها وهذا ما دفعهم الى الايمان بفكرة العودة التاريخية •

٣ ـ نظرية الدوائر اللولبيه : Theory of Cycles

وهى توفق بين المدرستين السابقتين ، وترى أن التاريخ يتقـدم ، والجنس البشرى يرتقى بتقدم الخبرات الحضارية المستمرة ، وهـذا

هو الاتجاه العام للحضارة الانسانية ، لكن فى نفس الوقت تمر كل حضارة فردية بدورة ثلاثية هى : النشوء ، والأكتمال ، ثم الأنهيار Rise, Zenith and Fall وفى بعض الأحيان يكون موت حضارة هو ميلاد حضارة جديدة أكثر تقدما فى منطقة أخرى من العالم • ويعدد أرنولد توينبى عدد الحضارات التى قامت على الأرض بأنها واحـــد وعشرين حضارة ، لم يتبق منها سوى خمس حضارات ، أما الباقى فقد تحلل واندثر ، والذى بقى منها هو الذى استطاع أن يواجه التحديات ويستجيب لها بوثبهتحقق التوازن ، ثم تتقدم منه الى وضع غير متوازن ، يمثـــل فى حد ذاته جديدا ، يتطلب بالمثل استجابة ، وعندما تتوقف حضارة عن مقابلة التحدى بأستجابة ، وعجزت فى ذلك ، أو كانت الاستجابة غير فعالة ، يكون ذلك بداية التدهور والأضمحلال • وقد يكونُ مصدر التحدى من الداخل عن طريق البروليتاريا الداخلية ، التى تنسحب عن القيادة المسيطرة ؛ أو يكون التحدى عن طريق البروليتاريا الخارجيـــة ، أى الشعوب التى ترتبط بالدولة القاهرة ، وتتربص بها ، وتتحين فترة ضعفها للانقضاض عليها •

حقيقى أن كل الحضارات تمر بالمراحل الثلاث : الميلاد ، والاكتمال ، والشيخوخة ، لكن لا نستطيع الجزم بأنها حضارات متشابهة ، أو أن كلا منها يكمل الأخرى ، كما أن تعريف التاريخ بكلمة « حضارة » يشكل صعوبة ، فلا يزال هناك خلاف على تحديد كلمة « حضارة » • كما أن الاحداث التاريخية الكثيرة والمتشعبة أكبر من أن تخضع لقوانين أومقاييس فكرية معينة • وهى لا تسير فى شكل معين ، لا فى خط تقدمى مستقيم ، ولا بالخط الراجع الى الخلف بل تسير فى خط متعرج • ان نظرة على تاريخ العالم القديم ، الذى يبدأ من خمسة الاف سنه مضت لا يظهـــر مثل هذه التصورات ، لا تسير أحداثه فى خط معين ، بل يـــرى البعض أنها تسير حيثما اتفق ، فليست حياة الشعوب آلة تعمل بطابع واحد معين ، حتى يمكن تصنيفها بتلك المقاييس السالفة الذكر • ان الذين يحاولون وضع معايير لحركة التاريخ يبحثون قضايا فلسفية ، وليس

قضايا تاريخية • ويستخدمون الاحـداث التاريخية ليبـرروا آراءهم الفلسفية ، وبذلك يصبح التاريخ مطية للفلسفة ، وهو أمر مخالف لطبيعة الاشياء • وبهذا رفض برتراند رسل مثلا الايمان بالتفسيرات السابقة للحركة التاريخية ، لأنه لا يوجد لها مجرى ثابت ، فالمستقبل القـريب قد يكشف عن حوادث ، قد تجعل مسار التاريخ مخالفا لما قيل ، كما أن مشيئة الله التى تأتى من حيث لا ندرى ولا نتوقع ، لا تخضع لهـذه الحسابات الهندسية للتاريخ • ومن ثم فأن دارس التاريخ لن يستفيد كثيرا من الجدل حول فلسفة التاريخ فى صياغة منهجه الخاص ، اللهم الا اثراء ثقافته التاريخيـة •

قضية الاختيـار التاريخـى :

لو سأل باحث التاريخ نفسه ماذا أختار من موضوعات تاريخية عند الكتابة ؟ فأن الرد يجيء يجب أن تختار ما هو مهم • فالتاريخ مليء بأحداث لا قيمة لها لانه لا تأثير لها • والتى نطلق عليها أحيانا لفظ « الكم المهمل » • وعليه أن يركز على الأحداث والأفكار التى كان لها صـدى واسع ، وكان لها رد فعل ونتائج • فلا أحد يهتم بالأحداث المغلقة التى بلا رد فعـل ، فهى أشبه بالأزقـة المغلقـه Culs-de Sac لا يمـر فيها أحد ، لانها لا توصل الى شوارع أخرى • وكلما كان للحدث صدى أوسع كلما كان أكثر اهتماما ، وأجدر بالدراسة والاختيار ، فموضوعات التاريخ لا تدرس اعتباطا أو عفوا ، كما أنه لا يوجد عند المؤرخ الحق نماذج جاهزة يفصل التاريخ عليها ، بل عليه أن يدقق فى الأختيار ، وان يبحث بنفسه ولنفسه ، ليجد النموذج الأفضل لبحثه ، بعد أن يكون قد كون لنفسه فكره واضحة عن طبيعة وأهمية علم التاريخ •

ولما كان مجال البحث التاريخى واسع كالمحيط ، ولما كانت قـدرات الانسان مهما بلغ من العلم والثقافة محدودة بالنسبة للعلم الكامل ، ولما كان من الصعب على الباحث أن يكتب التاريخ الشامل بعمق ودقة بعيدة عن السطحية ، فقد بدأ الباحثون فى التخصص فى جانب معين من جوانب

التاريخ الانسانى ، ولكن تقسيم الارض التاريخية الى حقول صغيرة كالحقل السياسى والحقل الاقتصادى ، والحقل الاجتماعى لا يعنى أبدا أن يتقوقع كل باحث داخل حقله الصغير دون أن يتعاون مع جيرانه ، خاصة وأن هذه الحقول يرويها نهر واحد هو نهر الأحداث التاريخية . ولهذا سنعرض فى الفصل التالى مفهوم وفلسفة البحث فى كل حقل من الحقول كما يراها المتخصصون فيها ، ودون تدخل من جانبنا الا عند الضرورة القصوى ، حتى يترك مجال الاختيار للباحث فى حرية تامة حسب ميوله ورغباته ، وبقدر ما تسمح له قدراته .

الفصل الثالث

مدارس الفكر التاريخى الحديثة

أولا : مدرسة التاريخ السياسى :[1]

لقد مضى حين من الدهر ، منذ أن أطلق سيلى صيحته المدوية ، بأن علم التاريخ ليس سوى علم « السياسة فى الماضى » ، وأن علم السياسة فى الوقت الحاضر ليس سوى علم التاريخ فى المستقبل « ، كما أن الاعمال التى اعتمد عليها فى تطوير نظريته هذه ، أصبحت عتيقة ، عفا عليها الزمن، فقد صدرت منذ أكثر من قرنين من الزمان ، فضلا على أنها أعمال تناولت موضوعات علــى المستوى القومى ، وليس على المستوى العالمى • ومن ثم ، فقد أصبحت دعوته عتيقة ، ولم يعد اسمة يذكر بين المنظريــــن التاريخيين ، الا عندما يتهكمون على عبارته التى تتيه غرورا « لقـــد غيرنا كل ذلك •• ! » Nous avons changé tout cela' •

ان علم التاريخ ــ كما نعلم ليس كلية هو علم السياسة فى الماضى ، بل هو أيضا علم الاقتصاد فى الماضى ، وعلم الاجتماع فى الماضى ، وعلم الأديان فى الماضى ، وعلم الحضارات فى الماضى ، وبأيجاز كل ما يتعلق بالانسان وحضاراته فى الماضى ، فعندما خرج تريفليان (١٨٧٦ — ١٩٦٢) على الناس بعمله العظيم « التاريخ الاجتماعى للشعب الانجليزى » English Social History ، والذى كتب فيه التاريخ الانجليزى بعد أن سلخ منه الجانب السياسى ، كان أول محاولة لتحطيم نظريـــة سيلى ، ولو لسيلى أن يشهد هذه الدراســـة لهاجمها ووصفها بأنهـــا عمل لا معنى له ، وخارج عنمنطق الأحداث ، غير أن مثل هذه الدراسات الحديثة ، والأتجاهات الجديدة ، لتناول الموضوعات التاريخية مـــن جوانب مختلفة ، قد نمت وترعرعت فى الآونة الحديثة ، وجذبت اليها الأضواء بين الباحثين ، من كافة القوميات والأوطان •

اعتمدت فى هذا الفصل اعقادا كبيرا على مقال البروفيسور س ت بندوف

(1) S.T. Bindoff, Political History - Approaches to History London 1963, p. 1-15.

ان اهتمامات الباحث التاريخى بالماضى ، خاصة عندما يتناول موضوعات تدور حول قضايا مفيدة ومجدية ، مثل كيف كان الناس فى الماضى يفلحون الأرض ويمارسون الزراعة ، وكيف كانوا يصنعون أدواتهم ؟ أو ما ذا كانوا يأكلون ويشربون ويلبسون ؟ وكيف كانوا يقطنون ؟ ، وماذا كانوا يقتنون من أثاث ؟ وكيف كانوا ينظمون أنفسهم فى مجتمعات ؟ أو كيف كانوا يتعبدون الى خالقهم ، أو كيف كانوا يتزاوجون وينجبون ويمرضون ؟ وعندما يموتون ماذا كانت الشعائر التى يوارون بها الموتى ؟ وماذا يضعون معه فى قبره ؟ وفى حياتهم الدنيوية كيف كانوا يقضون أوقاتهم ؟ وفيما كانوا ينفقون أموالهم ؟ وقبل كل شىء ما هى نظرتهم الى كل ذلك السلوك ؟ ، ان مثل هذه القضايا فى البحث التاريخى يرى البعض أنها أجدى وأنفع من أن نضيع الوقت فى الجرى وراء التحرى حول نظم الحكم والقهر ، وحول المعارك والحروب ، ومؤامرات القصور وحياة الحكام الخاصة ، وغير ذلك من الموضوعات التى كانت تفرض نفسها فرضا على الدراسات التاريخية . وعندما بدأت اهتمامات الباحثين فى الفكر التاريخى الحديث تحظى « بالانسان العادى » ، القوة الخلاقة للاحداث التاريخية ، هللوا ووصفوها بأنها المادة الحقيقية للتاريخ الذى يهم كل الناس ، وفضلوها على التاريخ المبهرج والخادع والمزيف ، الذى يدور حول القصور والتيجان والتتويج ، والمجالس والبرلمانات ، والجيوش والأساطيل ، والدبلوماسية والاعيب السياسيين ، والحرب والسلام ، حتى كاد التاريخ السياسى أن يصبح فكاهة قديمة Vieux Jeu واحدى رواسب الماضى . وهناك من المؤرخين من أكالوا الاتهامات للتاريخ السياسى « فهالدين » يرفض دراسته لأنه « قصة تفاهات سياسية لتاريخ الامم » ، ولان دراسة هذه التفاهات مضيعة للوقت ، وأن التاريخ فى نظره لن يصبح مفيدا ونافعا الا اذا درسناه دراسة شاملة ، تشمل الجوانب الاجتماعية ، والاقتصادية ، والحضارية ، لأن ذلك سوف يعطى صورة صادقة لسيكلوجية السياسيين والجماهير على السواء ، هكذا ارتكز هالدين فى نقده على نقاط الضعف فى الطرق غير السليمة ، التى يعالج بها التاريخ السياسى ، واستغلها فى الهجوم عليه . ومن نقاط

الضعف ، التى تعانى منها دراسة التاريخ السياسى ضـــيق أفق بعض الدارسين ، أو رغبة البعض الآخر فى تزويره خدمة لأهداف سياسيــة معينة ، ومن الانتقادات التى وجهت لدراسة التاريخ السياسى النقد الذى وجهة بوبر Popper ، الذى يرفض دراسة التاريخ السياسى لانه فى نظره يمثل تاريخ السلطة ، وتاريخ الزعماء ، الذين فرضوا على شعوبهم أشياء بالقوة والقهر ، لانهم يملكون السلطة ، حتى الذين انقادوا لهــم فقد انقادوا خوفا من السلطة ، أو عبادة لها • ومن ثم ، يجب رفــض التاريخ السياسى ، لأنه وليد الخوف والرهبة ، أو التزلف أو عبـــادة السلطة ، ولكن عزاء المؤرخ السياسى ، هو أن يستفيد من جوانب هــذا النقد ، ويستطيع عن طريق التصحيح الذاتى أن يصلح الخطأ • والذى لا شك فيه ، أن دارسى التاريخ السياسى فى عصرنا الحديث هم أسعد حالا من الذين حاولوا دراسته فى القرن التاسع عشر •

لكن برغم ما قيل ، وكل ما يقال ، لا يزال التاريخ فى معظمه هــو علم السياسة فى الماضى ، بمعنى أن الجزء الأكبر من التاريخ الذى يقرأ ويكتب فى وقتنا الحاضر يدور بالدرجة الأولى حول الجانب السياسى • فلو نظرنا مثلا الى مقررات التاريخ فى المدارس والجامعات ، لوجدناها تدور حول موضوعات سياسية ، أو على الأقل تلعب الموضوعات السياسية الشطر الأكبر فيها ، وبالرغم من أن أقسام التاريخ فى الجامعات تحرص على توسيع نطاق الدراسات التاريخية الحديثة ، سواء التاريخ الاقتصادى أو الاجتماعى أو الحضارى أو التقنى ، الا أن هذه الفروع لا تزال تدرس لخدمة الجوهر السياسى ، وفى أحسن الأحوال تبقى هــذه الدراسات مقصورة على من يتخصصون تخصصا رفيعا فى مجال الدراســـات التاريخــــية •

غير أن فشل المؤرخين السياسيين فى اعطاء التاريخ السياسى حقــه ، أو ابرازه بالصورة التى يجب أن يكون عليها ، لا يمكن أن يسلب هــذا الفرع من الدراسات التاريخية الحق فى كونه سيد أفرع التاريخ جميعا ، وليس هناك من ينكر أن التاريخ لا يزال — برغم الهجوم على التاريخ

السياسى ، وانفصال كثير من أجزائه عنه — « هو علم السياسة فى الماضى بحق » فتواريخ الامم والشعوب ، التى تدرس فى المدارس والجامعات المختلفة ، لا تزال بالدرجة الاولى سياسية ، وعلى حد قول الاستاذ التون Elton والذى حدده فى تقديمه لاحدى دراساته فى تاريخ انجلترا « وبالنسبة لى فأن أكثر الامور أهمية فى نظرى هو حال الدولة ، وكيفية اعادة بنائها ، وتشكل ملامحها تدريجيا — أى تاريخ الأمة وزعمائها ، الذين برزوا على مسرحها السياسى ، وبمعنى أعم وأشمــل هو تاريخ الحكومـــــــة (١) •

لقد كان المؤرخون الانجليز ، أكثر المؤرخين اهتماما بتناول تاريخ بلادهم من جوانب غير سياسية ، فقد كرس المؤرخ أشتون Ashton خمس مجلدات لدراسة تاريخ بريطانيا الاقتصادى ، وتناول «تريفليان» تاريخها الاجتماعى ، وتناولت سلسلة كتب جامعــة كامبردج ثم الآن سلسلة جامعة أكسفورد — تاريخها الفكرى والأدبى كما تخصصت سلسلة الجامعة المنزلية Home University Series فى دراسة تاريخها الفنى • وبالرغم من ذلك فلا يزال المؤرخون البريطانيون يشعرون أن مجال البحث فى التاريخ الشامل غير المقسم — بكل جوانبه السياسية ، والتشريعية ، والدبلوماسية ، والعسكرية ، يحتاج الى دراسة أعمق ، وهو الفرع من الدراسات التاريخية الذى يشكل جوهر المقــررات فى الجامعات ، والذى يحظى وسيحظى دائما بالنصيب الأكبر من الاهتمام ، لأنه ما زال فى حاجة الى جهود أوفر مما بذل فى الفروع الأخرى ، خاصة اذا ما وضعنا فى الاعتبار أن التاريخ السياسى هو الأغنى بأحداثه ، والأوسع مجالا فى موضوعاته ، حتى أن مجال نشاطه يكاد أن يساوى مجال كل الفروع الأخرى التى انفصلت عنه — مجتمعة ! •

ولو أجرينا مسحا للموضوعات التاريخية، التى عالجها المؤرخون خلال الجيل الماضى وحتى الآن — لرأينا أن أكثرها هى التى تناولت موضوعات سياسية بالدرجة الأولى •

---

(1) G.R. Elton, England under the Tudors, Preface, p. V.

من الواضح اذن ، أن التاريخ السياسى بكل مجالاته وتوابعه التى تسير فى فلكه مثل التاريخ الدستورى ، الادارى ، الدبلوماسى ، بعيد كل البعد أن يكون « رجل الدراسات التاريخية المريض » ، فهو ما زال يفرض وجوده فرضا على الباحثين ، بسبب اتساع حقل العمل فيه ، حتى وأن فقد كثيرا من حيويته ، بسبب سوء المعالجة والتقدير ٠

ولقد صدق فيليب جويدالا Guedalla فى قوله « ان التاريخ لا يكرر نفسه ، انما المؤرخون هم الذين يكررون بعضهم بعضا » ! ان هذا النقد اللازع ينطبق على الدراسات التاريخية فى المجال السياسى ، فالاهتمام الظاهر به ، ليس مبعثه الجوانب الهامة والحيوية ، التى يحتويها ، انما مبعثة تراكم الآراء الموروثة ، والاحكام التقليدية ، والتواريخ الثابتة ، والأخطاء التى تحولت الى حقائق من جراء شيوعها وتناقلها بطريقة عمياء ، وكأنها نصوص مقدسة لا تقبل الشك ، فضلا عن التشبث بالمنهج العتيق ، والأسلوب البالى ، والقصة القديمة ، والموضوعات التى قتلت بحثا ٠ والمثل على ذلك واضح فى كثير من المؤلفات والرسائل العلمية لنيل درجات الماجستير والدكتوراه ، بل وفى المقررات والمناهج الدراسية والمدرسية ، حتى فى صيغ الأسئلة التقليدية فى الاختبارات ٠

وبمرور الزمن ، وفى هذه الظروف ، نمت فى بستان التاريخ السياسى أعشاب الاخطاء ، وتكاثرت النباتات الطفيلية ، بالرغم من كل أعمال الاصلاحات والتحسينات والشجاعة ، التى تقوم بها الجمعيات التاريخية والمفكرون الجدد ، لاقتلاع مثل هذه الاعشاب من جذورها ٠ فمن أبسط قواعد المعرفة فى علم الحدائق والبساتين ، أن الأعشاب الطفيلية قابلة للانتشار بسرعة ومن ثم فان زراعة الشجيرات فى بستان التاريخ السياسى بطريقة خاطئة ، سوف تفسد ، بل وتفسد ما حولها ، وتنقل اليها عدوى الامراض ، ولنضرب مثلا على ذلك بفكرة التمسك بتواريخ معينة ، والتشبث بها ، خاصة عند تقسيم الأحداث التاريخية ، رغم علمنا أنها ليست يقينية تماما ، فالمتخصصين فى التاريخ الانجليزى يقدسون تقسيم

S. T. Bindoff, Loc. cit, p. 4.

تاريخهم الى تواريخ معينة هى ١٠٦٦ ، ١٤٨٠ ، ١٦٠٣ ، ١٧٦٠ وهلم جرا ان كان تاريخ من هذه التواريخ ، ان لم يرتبط بحدث سياسى معين ، وتطور اجتماعى ذى مغزى فانه سيظل تاريخا أجوفا لا معنى له ، وأن فرض حفظه على الطلاب أمر يدعو للسخرية ، لقد تحمل جيــلان من المؤرخين الاقتصاديين البريطانيين مهمة ومشقة انهاء تسلط احدى هذه الجداول الزمنية المقدسة وهو عام ١٧٦٠ والذى ارتبط بما يسمى بالثورة الصناعية ، والذى لا شك فيه هو أن هذين الجيلين من المؤرخين الاقتصاديين البريطانيين استعانا فى مهمتهم بالتاريخ السياسى ، فى وقت كان هنـــاك مدرسة جديدة من الاقتصاديين ، تتجه فى دراستها نحو المصادر والأحداث التاريخية لكى تستمد منها قوتها ، من أجل كسر تحكم المفاهيم القديمة والتقليدية . فى علم الاقتصاد ، بل ويرجع الفضل فى قيام هذه المدرسة الفتية الى محاضرات أرنولد توينبى ، التى نشرت على الناس عام ١٨٩٤ . وفى الأصل كان الاقتصادى ماكولى أول من رصد ظاهرة التطور الصناعى فى انجلترا عام ١٧٦٠ ، ولكنه سماها باسم « التطور المذهل للاقتصاد » لكن بعض المؤرخين ، قاموا بوضع هذا التحديد فى قالب دراسى ، ليتحول على ألسنتهم الى « ثورة صناعية » ، ثم بعملية آلية ألصقوا بها تاريخا وهو عام ١٧٦٠ ، واختاروا لهذا التاريخ تاريخ اعتلاء الملك جورج الثالث عرش بريطانيا ، لمجرد أنه قام ببعض المنجزات الصناعية فى مملكته ، (بالرغم من أن لهذا الملك مآثره أيضا على مجال الزراعة فى بلده) وبمرور الزمن أصبح عام ١٧٦٠ تاريخا مقدسا عند المؤرخين التقليديين ، بأنه عام الثورة الصناعية [١] ، ان بقاء هذا الادعاء قائما — رغم تراكم

---

(١) يرجع السبب الرئيسى فى احداث الثورة الصناعية الى تمكـــن الانسان فى الحصول على طاقة جديدة من البخار ، وذلك منذ مطلع القرن الثامـــن عشر ، عنـــدما صمـــم مهندس اسمه نيوكومن Newcomen ، آله تدور بالبخار ، لكن هذه الآله ظلت بدائية مكلفة فى استخدام الوقود ، حتى تمكن جيمس وات James watt (١٧٣٦ — ١٨١٩) مـــن تطويـــر هذه الآله البخارية ليصبح استخدامها اقتصاديا ، ومن ثم اشتهر وات فى كتب التاريخ بأنه مخترع الآله البخارية ، والتى بمثابة عهد جديد ، وهو عهـــد الطاقة البخارية : انظر . Ch.D. Hazen, op. cit, p 254

الأدلة الجديدة على بطلانه ، هو مثل واضح للتخريب المتعمد ، الذى لقيه التاريخ السياسى على أيدى بعض المؤرخين أنفسهم ، أليس من الخطأ اذن أن نتمسك ونتعلق بأهداب نظريات تقليدية ، وآراء بالية وأحكام متحيزة تعلقا أعمى ؟ .

ولو سأل سائل ما جدوى بقاء هذا الفرع من التاريخ على رأس الفروع الأخرى ، وتمتعه بمكان الأفضلية بينها ؟ بالطبع ليس مرجع ذلك الى وجود مميزات للتاريخ السياسى ، لأن للفروع الأخرى مميزاتها أيضا ، وانما مرجع ذلك هو أنه قريب من نفوسنا ، ومحبب اليها ، ففى حقله يعمل أكثر الباحثين فى مجال التاريخ ، ولأنه أقدم فروع التاريخ التى درست ، فان نتاج الابحاث ، والرســائل ، والمقالات ، والكتب كبيرا جدا فى هذا التخصص ، وهذا يجعل طريق الباحث الجديد أيسر وأسهل . وكما يقول المثل « ان الطريق الذى داسته ألوف الأقدام ، أيسر فى السير من الدرب الوعر الذى لم تطؤه أقدام كثيرة » ! ناهيك عن الرغبة الجامحة ، والعشق الدفين ، الذى يتملكنا من أجل معرفة شىء ا عن الذين سبقونا فى المرور من ذلك الطريق .

ولما كان أغلب المؤرخين الخالدين ابتداء من الآباء المؤسسين ، وحتى أحفادهم العظام ، مؤرخين سياسيين بالدرجة الاولى ، فان تعرفنا على وجهات نظرهم بالنسبة لما يجب أن تكون عليه الدراسات فى ذلك الفرع ، لخير دفاع عنه وتعريف به ، ولنتبع أسلوب سقراط الحكيم ، فى عرض هذه الآراء ، وذلك بأن نبدأها بسؤال نجيب نحن عليه . هب أن سائلا سأل ، لماذا ندرس هذا الفرع من التاريخ ؟ فان الاجابة الأولية تكون ببساطة ، اننا ندرسه لأنه موجود وقائم فعلا ، وكما يتسلق الهواة قمة أيفرست لمجرد اشباع رغبة ، ولان القمة قائمة ، فان لكل شىء موجود الحق فى أن يدرس ، ويكون له متخصصون ، ولو أن السائل رد على اجابتنا بسؤال لاحق ، وهو لماذا هو قائم وموجود ؟ ولماذا شغل هذا الفرع نفسه بعلم السياسة فى الماضى ، وربط أحداثه بأحداثها ؟ فان ردنا على هذا السؤال يكون « اذا كانت وظيفة علم التاريخ الشامل هو

استخراج الدروس السياسية المستفادة ، والقيم الأخلاقية ، والخبرات الانسانية ، لتكون مرشدا للأجيال الحاضرة والقادمة ، فان التاريخ السياسى يعكس طبعا وغريزة من غرائز الانسان ، فعلى حد قول أرسطو « الانسان حيوان سياسى بطبعه » ، لأن غريزة المعرفة الفطرية فيه سياسية ، فالمواطن الذى يعرف القراءة يتلهف على تصفح الجريدة كل صباح ، ليلم بأحداث وطنه ، وأحداث العالم انما هو يمارس فى الحقيقة غريزة المعرفة السياسية ، حتى الذى لا يجيد القراءة يستمع لمن يقرأ له الجريدة ، أو ينصت الى نشرات الاخبار من خلال المذياع أو جهاز التليفزيون ، وبالنسبة لغالبية الأفراد العاديين الذين يشقون طريقهم اليومى وسط الزحام ، فان منبع اهتمامهم بالتاريخ السياسى هو رغبتهم فى الاتصال النفسى المباشر ، بالعظماء ، ومشاهير الرجال ، وأبطال المعارك ، والملوك والأثرياء ، ومعرفتهم معرفة جيدة عن قرب ، فكثيرا ما نجد من يتفاخر بأنه عليم ببواطن الأمور السياسية ، لأنه يعرف حياة الشخصيات البارزة معرفة شخصية ، ويلم بخبايا حياتهم الخاصة ، أما بالنسبة للدارس المثقف فانه يرى فى القصور ودواليب وادارات الحكم ، وفى الهيئات التشريعية ، وأجهزة الدولة ، خبايا وأسرار هامة ، لا يمكن اختراقها بسهولة ، وأن التاريخ السياسى هو الوسيلة الوحيدة لأختراق هذه الحجب ، والمرور عبر ذلك السياج ، والارتواء من معرفة الأسرار تعويضا عن الحرمان من لقاء هذه الشخصيات فعن طريق دراسة التاريخ السياسى يستطيع الباحث أن يستبدل النظرة الخاطفة التى يلقيها على الزعيم السياسى بحوار شخصى طويل ومباشر معه بلا خجل أو كلفة ، أو حواجز نفسية ، بل يستجوب بنفسه ذلك الزعيم كأنه يحقق معه ، كما يستطيع الباحث أن يتحاور بلا كلفة مع الوزراء والجنرالات ، ويستطيع أن يلم بدخائل الأمور ، وأسرار الدولة ، وخبايا السياسة ، ويتتبع الأزمات الطارئة ، ويشترك فى التخطيط للحروب التى اندلعت ، ويقيم الانتصارات أو الهزائم ، ويخوض الثورات كما لو كان طرفا فيها ،

ويحضر المؤتمرات وجلسات البرلمانات ، وينظر مع القضاة أهم القضايا السياسية بل وينقض أحكامهم لو شاء ، كل ذلك وهو جالس على مكتبه بين كتبه ، بالرغم من السنين والمسافات التى تفصل بينه وبين هذه الأحداث •

ومن ناحية أخرى ، يرى علماء النفس أن الانسان فضولى بطبعه ، وهذا الدافع أدى الى وجود السير الشخصية ، أو التاريخ الخاص الذى يعتمد فى سرده على فضح الحياة الخاصة للزعماء والسياسيين ، ورجال الحرب وأصحاب الفضيلة ، وتزداد جاذبية هذا التاريخ الباهت اذا كانت هذه الشخصيات مصابة بالشذوذ النفسى أو الجنسى مما يعطى هذه المؤلفات الباهتة شبه التاريخية رواجا بين القراء ، الذين يستمتعون بهذه الفضائح والافتراءات ، انها النظائر التاريخية لصحافة الأثارة والابتزاز فى عصرنا الحديث • ومن ثم يواجه المؤرخ صعوبة فى فصل الحقيقة عن الافتراء ، خاصة وأن الدعاية تلعب دورا هاما فى أحداث العصر ، وهى آفة الدراسات التاريخية فى مجال السياسة بلا منازع • ولكن مهما أخذ على هذا الولع الانسانى بدس الأنف فى شئون الآخرين ، خاصة اذا كانوا من طبقة الحكام وعلية القوم ، وصانعى القرار ، فليس ذلك عذرا لتجريدها من أهميتها ، فعلماء التحليل النفسى للتاريخ ، يرون فى التفاصيل الدقيقة لسلوك ، وطباع ، وأسرر الشخصيات الكبرى كنزا ثريا لتحليلها وتمزيق الحجب عنها • وبالنسبة للمؤرخ السياسى فان معظم القرارات السياسية تنبع من مسببات غير سياسية ، وقد تكون نفسية أو اجتماعية، أو اقتصادية ، لكن اقترابه الدقيق من هذه الشخصيات ، والتسلل الى أعماق نفوسها الخاصة ، قد يكشف الكثير عن أسرار الدولة العامة : وبالتالى فهى ليست مرفوضة تماما ، لكن يجب معالجتها بحذر شديد •

ان الظروف المتاحة لجمع المعلومات عن الشخصيات البراقة مثل الملوك ، والزعماء ، والشخصيات السياسية ، والعسكرية ، أيسر بكثير من جمع المعلومات عن سائر الناس من الطبقات الاجتماعية الأخرى ، ولنضرب على ذلك مثلا فالمتخصص فى التاريخ الانجليزى يجد نفسه

يعرف عن الملكة اليزابيث الأولى أكثر مما يعرف عن وليم شكسبير ، ونعرف عن محمد على باشا أكثر مما نعرف عن رفاعة الطهطاوى ، أو مصطفى المنفلوطى • ونعرف عن جورج الثالث ملك بريطانيا أكثر مما نعرف عن أندريه مالروا •

انه الأمر يبعث على الأسى أن تكرس صفحات التاريخ السياسى لمجموعة ضئيلة من الأفراد تمثل ملوكا ، وسياسيين ، ومغامرين ، وانتهازيين ، ومتسلقين جريا وراء المناصب والشهرة ، التى حققها بعضهم ربما بطرق غير أخلاقية ، لكن ليس فى مقدورنا أن نغير من الأمر شيئا • وعزاؤنا الوحيد هو أن نحاول جعل التاريخ السياسى عاكسا بقدر الامكان لحياة الناس العاديين ، من رجال ونساء ، مهما تباينت فضائلهم أو شرورهم ، آمالهم ، أو مخاوفهم ، حبهم أو كراهيتهم ، ونجاحهم أو فشلهم وباختصار نوسع الدائرة الضيقة والموقوفة على فئة قليلة ، لتشمل فى موضوعاتها أو جنباتها ، أكبر قدر من الشخصيات الأخرى ، التى أسقطها المؤرخون السياسيون من حسابهم •

كذلك لا يختلف الأمر عندما نتطرق الى دراسة الشخصيات شديدة التعقيد ، والتى تفرض نفسها فرضا على أحداث التاريخ السياسى • وهذه الشخصيات هى التى نطلق عليها اسم « صانعو التاريخ » • فلقد دار جدل حاد وعنيف ، وطويل ، حول قضية السببية التاريخية ودور « الرجل العملاق » ، وذلك ابتداء من الاسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ، والامبراطور أغسطس ، وقنسطنطين فى العالم القديم حتى نابليون بونابرت ، وبوليفار ، ولنكولن ، وبسمارك ، ومحمد على باشا ، وغاندى ولنين ، وأتاتورك وهتلر ، وشارل ديجول ، وماوتسى تونج ، وجوزيف بروز تيتو ، وفرانكو ، ونهرو وجمال عبد الناصر فى العصر الحديث • وكان الجدل يدور حول القضية التالية : هل يصنع العصر البطل أم أن البطل هو الذى يصنع عصره ؟ والى أى حد يمكن أن ننظر الى ظهور البطل التاريخى كاستجابة الأمة المتوقعة والحتمية لتحد قائم أو موقف معين ؟ والى أى حد قام صانع ذلك الموقف ، أو المتلاعب به ، بدوره

التاريخى فى حياته ؟ تماما مثلما سأل الامبراطور الرومانى أغسطس المحيطين به وهو على فراش الموت « هل لعبت دورى جيـدا فى هـذه الملهاة » ؟

وحتى وقت قريب كان الاتجاه السائد بين الدارسين ، هو التقليل من دور البطل المطلق ، والحد من التمجيد فيه ، وعدم استخدام صـيغ المبالغة فى صفاته ، مثل الأعظم ، الأقوى ، الامثل ... الخ مقابل زيادة الأهتمام بالظروف العامة غير الشخصية ، والفردية ، التى واكبت ظهور البطل ، فحتى أعظم القادة دورا وتأثيرا فى الأحداث التاريخية ، أصبح ينظر اليه على أنه عامل معجل أو ايجابى للأحداث ، أو معوق وسلبى ، لبعضها الأخر ، وذلك من خلال عملية التغير التاريخى ، وهو الموضـوع الذى اعتبره المؤرخون جديرا بالبحث من أجل الكشـف عن الدوافع والمسببات للأحداث التاريخية .

واليوم نشاهد دلائل تشير الى أن كفة الميزان بدأت تتأرجح نحو الجانب الأخر — جانب الزعماء والقادة والذين ، ان لم يكونوا قد صنعوا الأحـداث التاريخية ، فعلى الأقل لعبـوا فيها دورا بارزا لا يمـكن اغفاله ، ومهما كان الأمر ، فالحقل السياسى هو الذى يشكل الموضوعات الجديرة بالبحث ، سواء فى الحاضر أو فى الماضى ، ولا ينافسه فى ذلك شىء ، سوى الحرب والدين . وحتى الحروب والعقائد الدينية كثيرا ما تتشابك دوافعها مع الدوافع السياسية . وهنا نخرج بحقيقة هامة وهى أن أعظم الأمور الأنسانية المؤثرة فى أحداث التاريخ هى أمـور بطبيعتها وبالدرجة الأولى سياسية ، ومن ثم يمكن القول بأنها هى التى تشكل التحدى الأكبر للباحث وتتطلب منه بالتالى استجابة أكبر .

ويأتى على رأس القضايا السياسية فى التاريخ قضية « عبادة الفرد » Cult of Personality ، وسواء كانت هـذه الظاهـرة موجـودة فى ثنايا التاريخ ، أو فى المجتمعات الانسانية التى تحيط بنا ، الا أنها تنبع أساسا من الممارسات السياسية . فكل واحد من هؤلاء الزعماء العظام — ملك

لشعبه ، ويشكل جزءا عزيزا من تراثه ، مهما اختلفت نظرتنا اليه . أنهم أبطال الأمم التى تفخر بها ، ولهذا تحولت قبورهم الى أضرحة تزار فى المناسبات ، حيث توضع عليها أكاليل الزهور ، وتتدفق عليها جموع الزوار ، يقفون أمامها فى خشوع ورهبة ، وتتوارث الأجيال عبر الأجيال هذا الاحساس بالقداسة ازاءهم ، وبالتالى على المؤرخ أن ينصاع لعواطف الجماهير ، ويحترم مشاعرهم ، ويتفادى نقدهم ، ويعالج أخطاءهم بطريقة دبلوماسية رقيقة ، لا تجرح المشاعر . ولان هؤلاء العظام قد حظوا بهذه المكانة العالية لما بذلوه لشعوبهم من تضحيات ، وما قدموه من عطاء وطنى ، وما أقدموا عليه من بطولات ، فمن حقهم على المؤرخ السياسى أن تظل ذكراهم حية مضيئة ، كالنجوم فى كبد السماء المظلمة ، وأن يكفل لهم أجيالا متعاقبة من المعجبين والدراسين ، فهم يمثلون معالم التاريخ القومى لأممهم ، والأمم عندما تنظر الى الى ماضيها الغابر فانها تنظر اليه نظرة رومانسية ، وعندما تحتفل بأحدى مناسباتها القومية ، فأنها عادة تحتفل بمناسبات سياسية ، ومن ثم يمكن القول أن بين التاريخ السياسى والتاريخ القومى اتصال وثيق لا يمكن فصم عراه ، وترابط حتمى ، لايقدر أحد على حله .

ولكن ذلك لا يعنى أن هذين الفرعين من التاريخ يترادفان فى الجوهر والوظيفة ، لأنهما فى بعض الاحيان يتعارضان مع بعضهما البعض فهناك تباين بين التاريخ السياسى القومى (national) ، والتاريخ السياسى الذى يتخطى الحدود القومية والأممية (Super-national) أعنى التاريخ العالمى ، كذلك فأن هناك تباين ما بين التاريخ السياسى القومى ، والتاريخ الاقليمى أو المحلى ، (local history) ، فبعض الاراء ترى أن التاريخ القومى ، اذا مادرس بالطريقة المثلى ، فأنه لا يشتمل على توضيح تاريخ الأمة من خلال عاصمتها فحسب ، بل يوضح لنا جوانب تاريخ أقاليمها ، وبالتالى فأن التاريخ السياسى القومى يشمل فى طياته التاريخ الأقليمى ، أو المحلى ، وأن هذا الأخير ليس الا جزءا من كل ، والكل هو التاريخ السياسى القومى .

وأما التاريخ السياسى — اذا ما عرفناه كما اتفق عليه — فهو تاريخ قيام أجهزة الحكم والسلطة ، ويشمل ذلك تاريخ الأمة قبل اتحاد أقاليمها حربا أو سلما فى شكل الدولة ، أى أنه يشمل تاريخها الاقايمى أيضا ، والصراع الذى دار بين مقاطعاتها قبل الوحدة ، وكيف خص القدر احداها ، لتفرض سيطرتها على غيرها ، وتقيم الدولة المركزية المتحدة . وفى نظر البعض ليس التاريخ الاقليمى فى حقيقته سوى تاريخ الامة السياسى ، عندما نطبقه على وحدات أقايمية ، أصغر حجما من حدود الوطن أو الأمة ، وأن تاريخ الأمة فى شكله المكتمل ليس سوى تاريخ ادماج وتوحيد أقاليمها تحت حكومة مركزية واحدة ، وقد يكون أحيانا لبعض أقاليم ومقاطعات الدولة المتحدة تواريخا أكثر قدما ، وأكثر اختلافا فى صفاته ، وخصائصه ، واحداثه ، من بعضها البعض ، أو حتى عن خصائص الحكومة المركزية ، خاصة اذا كانت الدولة الموحدة تشمل بين طياتها قوميات مختلفة ، كما هو الحال بالنسبة للاتحاد السوفيتى . مثلا ولهذا يرى البعض وجوب أن يكون التاريخ الأقليمى مستقلا عن التاريخ السياسى الشامل .

أما اذا تجاوز التاريخ السياسى حدود الوطن القومية الى التنظيمات والتحالفات العالمية ، والى مسألة العلاقات بين الأمم ، والحروب العالمية ، فهو يصبح تاريخا دوليا تلعب الدبلوماسية دورا هاما فيه

ودراسة التاريخ الدبلوماسى لم تأخذ طابع الجدية الا فى القرن التاسع عشر ، لكن قيام الحربين العالميتين ساعدا على ولادته ، واعطياه دفعة قوية الى الوجود والتبلور ، وذلك بسبب ما حاق بالبشرية من كوارث وويلات ، نتيجة لممارسة دبلوماسية خاطئة ، وقد شهد النصف الاخير من القرن العشرين مجهودات بذلت بصورة غير عادية ، وأثمرت عن نتائج مذهلة (رغم بعض القصور فى جوانبها) فى ذلك الحقل من الدراسة ، خاصة أن حجم المؤلفات التى صدرت عن العلاقات الدولية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين أصبحت هائلة ، كما صاحب هذا النمو السريع تغيرا سواء فى المجال أو المنهج ، بل والى حد ما فى طبيعة

العلم ذاته ، ففى البداية نظر اليه على أنه ما هو الا جانب من جوانب التاريخ السياسى القومى ، ولما كانت السياسة الخارجية لأى دولة تتألف الى حد بعيد من الظروف الداخلية لتلك الدولة ، والتى قد تعكس أحداثها على المستوى الدولى ، فقد أصبح التاريخ الدبلوماسى عالميا ، اسـما وموضـوعا ، وذلك بشكل متزايد . كما أصبحت المساهمات والدراسات العلمية فى ذلك المجال ، لا تتعدى كونها مجرد نشر للمواد ، التى لاتزال الى حد كبير داخل النطاق القومى للتاريخ ، وقلما تعنى بالموضـوعات أو الجوانب التى تخرج عن نطاق القيام بدراسة مقارنة للوثائق الخاصة بعهد حكومتين أو أكثر ، بل قلما حاولت عرض أفكارها الرئيسية فى شكل مناظرة فكرية ، ومقارنة علمية ، أو من وجهة نظر مخـالفة لأى مـن الحكومتين ، لأن ذلك يتطلب من الباحث معرفة وثيقة بالنظم السياسية المتداخلة فى العلاقات الدولية بدرجة تفوق القدر الذى كان يعطى لها فى المراحل السابقة من أجل تدعيم دراسة تاريخ الأمم المختلفة . كذلك اتسع نطـاق البحث فى المصـادر التى نستقى منها المادة العلمية ، كما اتسعت معها نوعيات المسائل المطروحة للبحث ، اذ دخلت الى مجـال الدراسة الرسائل المتبادلة ، والبرقيات المحفوظة فى الارشيفات بوزارات الخارجية ، الى جانب الرسائل الشخصية ، والمذكرات الخاصة ، ومختلف ما يصدر من نشرات فى المرحلة المبـكرة ، ثم الصحف والدوريات فى المرحلة التالية ، وخلال ذلك تشعبت جوانب التاريخ الدبلوماسى خلال عملية البحث كنتيجة لأتساع مجال المصادر ، حتى أصبح يغطى مجالات تفوق حدود العلاقات بين الحكومات ، والتى كانت تكتفى بها النظـرة القديمة والتقليدية للتاريخ الدبلوماسى (١) .

وبالرغم من ذلك التوسع فى مجال ومصادر التاريخ الدبلوماسى ، الا آن هناك الكثير من العمل أمام الباحثين فيه ، اذ بدت فى الأفق ملامح

---

(١) من أحسن الدراسات الحديثة فى موضوعات التاريخ الدبلوماسى التى تعتبر نموذجا للباحثين فى هذا الجانب كتاب .

Douglas Combs : The Conflict of the Dutch : British Opinion and the Dutch Alliance During the war of Spanish Succession (1958).

التاريخ الدولى بمعنـــاه الاعم والاشـــمل ، والذى لم يتطرق كثيرون لخوض غماره ، الا منذ وقت قريب جدا ، وكمـــا يوجد فى كليات الحقوق أقسام للقانون الدولى ، يتوجب أن يكون فى أقسام التاريخ فرع للتاريخ الدولى أيضا فالتقدم التـــكنولوجى فى العصر الحـــديث جعل وســـائل الإتصـــال قوية ، وأصبح العالم كبيت صغير للبشرية ، وبالتالى أصبحت أحداثه متداخله ، تؤثر فى بعضها البعض ، ناهيك عن العصر الحديث ، وخذ مثلا موضوع الدراسة المقارنة لنظم الحكم فى البلدان المختلفة ، فبالرغم من أن لذلك الموضوع جذور قـــديمة ، وواضحة ترجـــع الى كتابات أرسطوطاليس فى العصر القديم ، ثم الى كتابات مونتسيكيو ودى توكفيل De Tocqueville ، وبرايس Bryce فى العصر الحديث ، الا أن مجال البحث فيه يعد انطلاقه جديدة الى آفاق أبعـــد فى علم التاريخ الدولى • ان علم التاريخ الدولى الذى هو وليد جديد ، سواء فى موضوعه أو فى قضاياه ، هو العلم الذى يعالج العلاقات بين الدول المستقله ذات السيادة فحسب ، بل هو الذى يرصد حركة اتجاه هذه الأمم نحو الاندماج ، فى منظمات أكبر تفوق حـــدودها القومية والوطنية فقبل عام ١٩١٩ ، كان مجال البحث فى هذا الموضوع محدودا ، اذ ورثت اوروبا فى ذلك الوقت عن العصور الوسطى فكرة الأمبراطورية والكنيسة ، غير أن الكنيسة فقدت سلطويتها فى مطلع العصر الحـــديث كما أن فكرة الأمبراطوريات انهارت وأصبحت تراثا من الماضى ، وحـــل محلها محاولات لقيام اتحادات كبرى ، ومنظمات دولية ، مثل منظمة الوحدة الامريكية ومنظمة الاتحـــاد الاوربى • ومنـــذ انتهاء الحـــرب العالمية الثانية شهد العالم تزايدا فى قيام هذه الاتحادات ، والمنظمات الدواية حتى أصبح من الصعب على المؤرخ السياسى تفاديها ، لقـــد شهدت هذه الفترة قيام عصبة الأمم ثم ، منظمة الامم المتحدة ، واتحاد دول وارسو ، والكومنولث البريطانى وجامعة الدول العربية ، ودول عدم الأنحياز ، ومنظمة الدول الاسلامية ومنظمة الدول الافريقية ، كل هـــذه التطورات حتمت على التاريخ السياسى أن يتجه الى الحقل الدولى •

وفى مواجهة الاقتنـــاع التام من جانب المـــؤرخين بأن عصر الدولة

القومية المنغلقة على نفسها قد ولى ، وأن الجنس البشرى يوجه طاقته نحو الاندماج فى مجتمعات ومنظمات أوسع وأشمل ، وفى قيام اتحادات سياسية أكبر وأقوى ، فقد أصبح موضوع التاريخ السياسى القومى ، الذى يكتفى بحدود الدوله السياسية محل جدل ، فمثلا يخبرنا أرنولد توينبى بلهجة الاستاذ الواثق من نفسه ، أن التاريخ الذى يكرس نفسه لموضــوع الدولة القومية وحدها ، هو تاريخ يسىء الى الأنسانية ، ولا يحترم مشاعرها ، خاصة وهى تسعى جاهدة لتندمــج فى تكتلات كبرى ، وكما يقول توينبى أيضا « ان فكرة التاريخ القومى ليست وربما لم تكن أبدا مفهومة »[1] •

لكن مثل هذه الآراء العنيفة ، والأتهامات القاسية ، يجب ألا تمر ، دون بحث الحيثيات ، التى تقوم عليها •

ان كتابة التاريخ تتولد من عاملين : العامل الأول تراث قديم ، وهو الذى يشكل التراث والآثار ـــ التى يتركها الأولون ، والعامل الثانى هو مهارة العقل الحــديث ، وبراعته وخيالهفى معــالجة التراث القــديم ؛ واستخراج الصورة الحية ، والبناء الكامل للمجتمع القديم • ان التراث القديم ، والآثار العتيقة ، هى مصادر غير قابة للتغيير والتبديل ، اللهم الا اذا لجأ المؤرخ الى الدس والتزوير ، أو عندما يميط الباحثــون ، والمنقبون ، اللثام عن مصادر جديدة ، لم تكن معروفة من قبل ، أو كانت مفقودة • ان هذا الثبات والمحدودية للمادة التاريخية ، همــا اللذان يرسمان للمؤرخ الدرب الذى يتوجب عليه السير فيه ، والحدود التى لا يمكن تخطيها فى موضــوعه ، مهما حاول أن يستطلع آفاق الجوانب الأخرى ، لانه ســوف يتوقف عند حد ما • أما الشىء الذى هو على النقيض من ذلك ، فهو درجة وطبيعة الأهتمام ، التى يتناول بها العقل التاريخى الحديث مخلفات ووثائق الماضى ، ومدى ما يبذل من مهــارة وخيال فى عملية اعادة تصوير الماضى • وفى ذلك نقول أن هناك تغيرا

---

(١) Arnold Toynbee : A Study of History, I. pp g ff.

وعن ارنولد توينبى وفلسفته التاريخيه انظر :

د. حسين مؤنس ، ـــ التاريخ والمؤرخون ـــ عالم الفكر ـــ المجلد الخامس ـــ الكويت ـــ وزارة الاعلام ـــ يونيو ١٩٧٤ ص ١٠٠ وما بعدها •

دائما وتطورا محسوسا ، وتــكون درجة الجودة فى الكتابات التاريخية ، بقدر ما ينجح العقل الحديث فى الأبداع فى هذا الجانب .

وفى خلال القرون الخمس التى مضت ، شهد عالمنا دفعة قوية نحو الحضارة الحديثه ، مارست خلالها معظم الشــعوب المتقدمة حياتهــا كاملة ، واكتسبت خبراتها ومهاراتها ، وأطلقت لابداعاتها الاعنة ، من خلال اطار الدوله القومية ، ذات السيادة المستقلة . بالطبع كان هناك فوارق زمنية فى أسبقية تحقيق الأستقلال الوطنى والقومى بين هذه الشعوب ، وكذلك فى درجة التعصب للقومية ، وفى بناء النظم . وكان أثمن ما حققه انسان العصر الحديث هو ما حققه فى مجال الخبرة السياسية ، ففى داخل نطاقها ظل دائمــا يبحث عن مشــاكل عصره ، ويحاول وضــع الحلول لها ، بل ويوفق بين حــريته الفردية ، والألتزام نحــو مصلحة الجماعة ، وبين الحاجة الماسة الى الزعامة وارضاء الذين يسيرون وراء الزعيم ، وبين ماهو لقيصر ، وما هو لله . وخلال عملية البحث وراء الحلول ، ولدت أنواع شتى من نظم الحكم ، من ملكيات ، وجمهوريات رئاســية ، وحــكومات ، ومجالس ، وبرلمانات ، ومحــاكم ، هيئات بيروقراطية ، وقوات مسلحة ، وادارات للأمن والشرطة ، وقوانين لتنظيم سلوك الأفراد ، وقواعد لحرية الرأى والكلمة ، وقواعد لحل مشكلات الاقليات والطوائف . وهو أغنى ما حققه الانسان من تراث ومن خبرات، كلها ولدت من خلال عملية المعاناة داخل نطاق الدولة القومية . كما يجب ألا ننسى أن الامم ، التى سبقت فى تحقيق الزعامة ، والهيمنة عى غيرهامن الدول ، انساقت وراء ظاهرة الأستعمار ، وفرض نفوذها الامبريالى على البلاد الضعيفة ، شبه المستقلة ، وفرضت عليها خلال الأستعمــار نظمها ، وما نتج عنه من مشاكل مثل تطبيق قوانين أمم متقــدمة ، فى مجتمعات متخلفة ، تختلف جذريا مع مجتمعاتهم . والمثل على ذلك واضح فى الاستعمــار الأوربى لبلدان أفريقيا وأســيا ، وأمريكا اللاتينية . وأحيانا يصبح الموقف أكثر صعوبة بالنسبة للبلدان التى تعاقبت عــلى استعمارها أكثر من بلد أوروبى ، خذ مثلا جزر الفلبين ، التى كانت فى

الاصل جزءا من الامبراطورية الاسبانية ، انتزعتها الولايات المتحدة من أسبانيا فى أعقاب الحرب الامريكية الاسبانية عام ١٨٩٨ ، وظلت تحت الاستعمار الأمريكى الكامل حتى منحت استقلالا ذاتيا عام ١٩٣٥ ، ثم أصبحت دولة مستقلة ذات سـيادة عام ١٩٤٦ ، بعـد أن منحتها الولايات المتحدة دستورا على غرار الدستور الأمريكى تماما ٠

كل ذلك يشـكل قضايا البحث فى التاريخ الحديث ، وما دام اطارة الأصلى هو الدولة القومية ، فبالتالى يتوجب أن يكون دراسة التاريخ من الجانب القومى ٠ أما الذين يقولون بأن التاريخ القومى قد أصبح عقيما ، ولا يتناسب مع الظروف الحاضرة ، لان مشاكل ومشاغل البشرية أصبحت تتعدى الحدود القومية ، فأن هؤلاء يطالبوننا بأن ندير ظهورنا لشطر كبير من الخبرة الأنسانية ، البالغة القيمة ، دفعت الأجيال ثمنها بالدم ، والعرق ، والكفاح ٠ ثم دعونا نتساءل ، هل تطور وبقاء التاريخ القومى يعيق تقدم التاريخ العالمى ؟ وهل وقف التاريخ القومى يوما ما فى وجه النظريات والمشاعر نحو العالمية ؟ ، حتى ولو سلمنا جدلا ــ كما ادعى المدعون على التاريخ القومى ــ بأنه كان الوسيلة ، التى أشعل المتطرفون عن طريقها نظريات التسامى القومى ، والأستعلاء العنصرى ، وهى التى الحقت الكوارث بالانسانية ، فان تقديمة كأضحية ، من أجل فكرة الاخوة الانسانية ، والانتماء الكونى ، يكون أيضا خطئا ٠ ان الموضوعية وروح النقد ، التى تعالج بها الأمم تاريخها اليوم ، تجعل من الصعب عـلى الغرور القومى ، أن يتخذ من هذا التاريخ مطية ٠ ان الكوارث التى حدثت فى الماضى ، سببها أخطاء السياسيين ، ورجال الحرب ، وليس سببها الامة ، التى انقادت لهم مسحورة بقوة شخصيتهم ٠ ولهذا يركز الباحثون على أخطاء هؤلاء القادة ، لأستخراج الدروس المسـتفادة للأمة ، من واقع التجربة والخطأ ٠ ان الرأى الراجح ، هو أن كل شعب ، ساهم فى التراث العام للأنسانية بنصيب يذكر ، وسواء كانت هـذه المساهمة سلبية ، أو ايجابية ٠ وبالتالى فيتوجب على الباحثين أن يفحصوا

هذه المساهمات بدقة ، وينقوها من الشوائب ، حتى يظهر الوجه الصحيح لهـذه المساهمات ٠

واذا كان هجوم الناقدين على التاريخ القومى ، والذى هو بطبيعته الأساسية تاريخ ، لا يمكن رؤيته الا من منظور سياسى ، ومن مفهوم الدولة القومية ، فان ذلك النوع من التاريخ ، أقل شأنا من التاريخ الذى نتجرد فيه من قيود القومية والوطنية ، فأن ذلك اعتقاد خاطىء أيضـا فلو حاول الدارس أن يتعرض لبعض أنماط النشـاط الانسـانى ، مثل الاقتصاد ، والثقافة ، والفن ، بعيدا عن الاطار القومى، لوجد استحالة كبيرة ، وذلك لأن لكل منها علاقة بالدولة ، فقد لعبت الدوله دورا بارزا فى تنمية التراث الحضارى لشعوبها ٠

كذلك فأن الدولة فى نظر كثير من المؤرخين هى المصدر الأول للوثائق التاريخية ، وهى الهيئة الوحيـدة التى تحرص عـلى حفظ وثائقها فى ارشيفات خاصة ، وهذه الوثائق هى الأساس الذى تقوم عليه الدراسات التاريخية فى كل فرع من الفروع ، بل لعبت الدولة دورا مؤثرا وديناميكيا فى تلك الأحداث والوقائع ، التى تتحدث عنها الوثائق ٠ ومن ثم لا يجد الباحث مفرا من الاعتراف بدور الدولة فى التاريخ ، واعتبارها احدى النجوم ، التى يسير على هداها ٠ فمثلا المؤرخ الاقتصادى لا يجـد أمامه بدأ من أن يعتمد على التاريخ القومى ، من أجل كتابة موضوعاته ٠ فلابـد له من الرجـوع الى وثائق الدولة ، وسـجلاتها ، وبياناتها ، وأرشيفاتها ، ومحاضر جلسات برلماناتها ، وكثير منها ليس وقفـا على الجوانب الاقتصادية ، التى هى مجال تخصصه ، بل تعبر دائما عن وجهة نظر الدولة والمؤسسات التابعة لها ٠ والمؤرخ الذى يدرس السكان لابد وأن يتجه الى سجلات المواليد ، والوفيات ، وسجلات التجنيد ، وسجلات الضرائب ، وتقارير الأحصـائيات ، وكلها وثائق تصـدرها الدولة ٠ والمؤرخ الباحث فى تاريخ الانتاج الاقتصادى ، يكون لزاما عليه أن يفحص وثائق العوائد ، والتصدير ٠ والبـاحث عن حركة النشـاط

الاقتصادى ، يتوجه ليبحث فى وثائق الدولة الخاصة بالجمارك والضرائب • كما أنه يستطيع أن يستخرج الكثير من المعلـومات عن حالة السـكان الاقتصادية ، ومستوى المعيشة من دراسته للقوانين ، والمنازعات القضائية والوصيات ، وأرض الوقف ، وغير ذلك من وثائق الدولة •

أما الوثائق الخاصة — غير الحـكومية — مثل مستندات الفلاحين ، وسجلات الصناع ، ودفاتر التجار • اذا ماقورنت بوثائق الدولة سواء من ناحية الحجم ، أو الأستمرار الزمنى ، فأنها تبدو ضئيلة الحجم ، لانها غير منظمة فى أرشيف ، مثلما هو الحال فى وثائق الدولة ، وربما نستثنى من ذلك سجلات الملكية الزراعية ، وحجج الوقف لأنها كانت دائمـا تلقى عناية خاصة من الملاك ، لاثبات الحق الشرعى لمتلكاتهم وذلك قبل انشاء مكاتب الشهر العقارى فى العصر الحديث •

وخلاصة القول أنه بدون الوثائق والسجلات العامة ، التى تحرص الدولة منذ أقدم على العصـور على تدوينها ، وحفظها ، فان الباحث سوف يصل فى بحثه الى طريق مسدود • فبفضل الوثائق الرسمية المدونة على أوراق البردى ، خلال الحكم الرومانى لمصر أمـكن للباحثين ، معرفة الحيازات الزراعية ، وأنواع الأراضى ، والدخل العام ، وأسعار بعض السلع • وقد عثر على ملفات كاملة للضرائب التى فرضها الرومان على الارض والسـكان • وبالتالى لا يستطيع الباحث الاقتصادى ، أن يظفر بأى نتائج ما لم يلم الماما دقيقا بطبيعة ، وأهداف هذه السجلات ، التى تصدرها الدولة • ومن ثم فلزاما عليه ، أن يتجـه الى التـاريخ السياسى ، والدستورى ، والأدارى ، بحثا عن المعلومات ، التى يستحيل بدونها كتابة التاريخ الاقتصادى •

واذا كانت الظروف ، قد جعلت من المؤرخ السـياسى ، صـاحب الخزائن المليئة بكل أنـواع الأحـداث ، والذى اليه يرجع زمـلاؤه المتخصصون فى أفرع التاريخ الاخرى ، لكى يتمونوا منه فعليه أيضا

أن يستفيد من تجاربهم ، وطرقهم الحديثة فى البحث ، سواء بالنسبة لأستخدام المصادر ، أو اختيار ومعالجة الموضوعات ، أو فى طـريقة استخراج الاستنتاجات ، والمعلومات الجـديدة • كما عليه أيضـا أن يستفيد من التحليلات ، والتفسيرات الحـديثة ، ولا يـكتفى بـرص الحقائق ، بل يحاول قراءة ما بين السطور عندئذ يستطيع أن يشرع فى كتابة التاريخ بشكل جديد ، كما عليه وهو يكتب أن يدرك أن هناك قراء همهم الأول معرفة الاعمال والمنجزات التى حققها الزعماء ، والاستفسار عن الاسباب التى دفعتهم للقيام بهذه المنجزات ، وشرح النتائج التى ترتبت عليهـا •

اننا نعترف بأن تحقيق هذه المطالب ليس أمرا سهلا ، خاصـة أن التاريخ السياسى يعانى من نقطة ضعف ، وهو أنه فى مفهومه العتيق ، اصبح ضحية للسرد البلاغى بالاسلوب الرومانسى الخلاب ، كأنه قصة أدبية ، أو رواية درامية ، لان المؤرخون فى الماضى عندما كانوا يكتبون التاريخ كانوا يفكرون ربما بدافع السليقة — فى المفهوم الروائى وحده • أما اليوم فان المؤرخون الجدد يجمعون ما بين السرد الأدبى والوصف العلمى ، والتحليل الفلسفى ، ومعالجة كل رواية على حدة ، ثم اجراء مقارنة منطقية بينها •

ومهما كان الأمر ، ومهما كانت الصعوبات ، فالأمل مازال كبيرا ، فى أن تزداد العناية بالتاريخ السياسى ، سواء على المستوى الاقليمى ، أو القومى ، أو العالمى • ولن تخور قواه أمام الأفرع الجديدة الفتية فى الدراسات التاريخية ، لأن التاريخ السياسى اذا ما فهم فهما جيدا ، وسعى اليه بالطريقة الصحيحة ، هو أرقى صيغ التاريخ ، التى تعالج أرقى صور نشاط الانسان ، ككائن سياسى واجتماعى • فباستثناء روابط العقيدة والدين ، لا نعرف أى صيغ أخرى للترابط البشرى فى مثل قوة الدولة ، ولا نعرف أى نشاط انسانى آخر كان له من النتائج ، مثلما كان للجانب السياسى فى الدولة • والقول المأثور بأن أكبر المشاكل التى تواجـه

الانسانية ، هى مشاكل بالدرجة الأولى سياسة ، قول حق يفسره قول آخر ، بأن كل القضايا غير السياسية تنبع من مسببات سياسية • خذ مثلا على ذلك من الاقتصاد ، فالقرار السياسى يؤثر عليه ، والأمة المستتبة سياسيا يكون اقتصادها أيضا مستتبا • فالسياسة هى تحقيق السلطة فى الدولة ، والتطلع اليها لتحقيق أهداف معينة ، وسواء كانت هذه الأهداف تعود على الأنسانية بالخير ، الا أن مجرد السعى للوصول اليها هو المبرر لوجود الحكومات ، وبالتالى لوجود السياسة الخارجية ، والعلاقات الدولية • أما فيما يخص بتصرف السياسيين ، عندما يصلون الى السلطة وكيفية مواجهتهم للمشاكل والمعضلات ، فهذه قضايا يعالجها مؤرخو التاريخ السياسى •

ان التاريخ السياسى هو الصيغة ، التى نستطيع من خلالها ، :تشخيص أى مشكلة انسانية ، وندرك المحاولة لحلها ، ونوازن فيه أسباب نجاحها وفشلها ، ولقد صدق أرسطو طاليس عندما ذكر صراحة ، بأن الأنسان بطبيعته حيوان سياسى ، وبنفس الرمز يمكن القول أن جوهر التاريخ الانسانى ، عندما نحلله ، نجده أيضا تاريخا سياسياً •

ثانيا : مدرسة التاريخ الاقتصادى

تتصل دراسة الاقتصاد اتصالا وثيقا بدراسة التاريخ ، ونتيجة لذلك ولد تخصص جديد ، هو « التاريخ الاقتصادى » ، كفرع من فروع التاريخ الأخرى . وهو يسعى لخدمة كل من المؤرخ والاقتصادى على حد سواء . ولا يزال التشابك فى هذا الميدان قائما بين المؤرخين والاقتصاديين ، ففى السنوات الأخيرة كانت أحسن الأبحاث فى مجال التاريخ الاقتصادى من وضع علماء الاقتصاد وليس من وضع المؤرخين.

غير أن نظرة كل فريق الى التاريخ الاقتصادى تختلف عن الآخر ، فالاقتصاديون يعتبرونه ضروريا وأساسيا لهم ، أما المؤرخون فيعتبرونه هاما اذا ما وضع فى خدمة تفسير وكتابة الأحداث التاريخية ، ويديرون ظهورهم لنظريات الاقتصاد وتطوراتها ، بحجة أنها ليست مجالهم الأول. كما أنهم — أى المؤرخين — يعرفون التاريخ الاقتصادى ، بأنه الجزء من التاريخ الذى لا يمكن فهمه الا اذا تحقق للباحث معرفة جيدة بعلم الاقتصاد ، وألم بلغته الفنية ، ومفاهيمه واصطلاحاته ، مثل الربح ، والتوزيع ، والانتاج ، ورأس المال والمدخرات ، والاحتكار ، والنقد السائل ، والتجميد والحصار الاقتصادى ، والمقاطعة .. الخ [1] .

وليس همنا فى هذا الفصل البحث فى الموضوعات التى كتبها المؤرخون الاقتصاديون ، فالذى يريد تحمل مشقة معرفة ذلك ، عليه أن يرجع الى المؤلفات ، والمراجع الكثيرة ، والأبحاث والمقالات المنشورة فى الدوريات العلمية المتخصصة ، خاصة مجلة التاريخ الاقتصادى Econonic History Review ومجلة الدراسات الاقتصادية Journal of Econonic Studies ، انما همنا الأول فى هذا الفصل من الكتاب ، هو التعريف بالتاريخ الاقتصادى ، وشرح طبيعته ، وطبيعة عمل المؤرخ المتخصص فى مجاله ، ثم محاولة البحث فيما يستطيع علم

(١) سيو . ج اتكن : دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية (ترجمة دكتور محمود زايد — دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٣ ص ٨٠ — ٨١) .

(٢) لقد اعتمدت فى هذا الفصل على مقال الأستاذ :

W.H.B. Court' Economic History' Approaches to History pp. 17 — 50.

الاقتصاد أن يقدم من معلومات وتفسيرات ، تخدم أهداف المؤرخ وما يعجز عن تقديمه ، من أجل تفسير الاحداث التاريخية •

وعندما نتطرق الى أهم الأبحاث ، التى كتبت فى مجال التاريخ الاقتصادى ، وتهم المؤرخ بالدرجة الأولى ، فلابد من أن نشير الى أعمال اثنين من العلماء المشهورين ، هما فردريك مينيكة Friedrich Meinike وبينديتوكرونتشه Beneditto Croce ، والأول بروسى محافظ ، أما الثانى فهو ايطالى ليبرالى ، ولقد كون كل منهما خلال حياته المختلفة ، وجهات نظر وآراء خاصة به ، غير أنهما لم يظهرا أى ميل للتاريخ الاقتصادى ، حتى العلوم الاجتماعية لم يولياها سوى القليل من الاهتمام ، باستثناء العلوم السياسية لكنهما ذهبا أكثر من أى باحث عاصرهم ، فى شرح طبيعة وتركيب الحقيقة التاريخية ، كل بطريقته الخاصة ، ومن الجدير بالذكر أن الرجلين ، قد دخلا فى خلاف مع حكومات بلادهم ، خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ، لان حكومات بلادهم كانت تتبنى فلسفة اقتصادية مختلفة تماما عن تلك التى دعا اليها كل منهما •

ان الهدف النهائى للمؤرخ الاقتصادى ، هو نفس الهدف بالنسبة للمؤرخ السياسى ، وهو اعادة تصوير المواقف التاريخية ، عن طريق احياء وبعث الماضى ، وذلك لا يتطلب ذكاء ومهارة فحسب ، بل يتطلب الماما دقيقا بالمعرفة والخبرة ، سواء بالنسبة للعصر الذى نتخصص فيه ، أو فى العصر الذى نعيش فيه ، لان عملية اقامة اتصال بالقارئ ليست أمرا هينا بالنسبة للمؤرخين ، غير أن منهج البحث الذى يسلكه المؤرخ يختلف عن منهج عالم الاجتماع (١) ، فالمؤرخ حين يصف ويحلل المواقف التاريخية ، فهو يركز بالطبع على الأحداث المتميزة ، وغير العادية ، والمثيرة والشاذة ، والتى لا مثيل لها ، وهى عادة أحداث ذات خاصية منفردة ، ولهذا يستخدم فيها كل مهارته فى التحليل والمقارنة ، من أجل ابراز خصائصها ، ورصدها • أما عالم الاجتمع ، عندما يدرس نفس الأحداث فهو لا يهتم بهذه الأحداث الشاذة ، وغير العادية ، بل يكرس طاقته لجمع

(١) وعن الفرق بين التاريخ وعلم الاجتماع انظر : —
اليكس انكلر : مقدمه فى علم الاجتماع ترجمة وتقديم د. محمد الجوهرى وآخرون — دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٨٧ ص ٦٨ — ٦٩ •

الحوادث ذات الاتساق أو الأنماط المتماثلة ، من أجل رصــد ظاهرة اجتماعية معينة ، ويكشف عن مسبباتها ونتائجها وخصائصها ، عندئذ يعلن أنه قد استخرج من الحوادث المتشابهة والمتكررة فى مجتمع معين ، ظاهرة اجتماعية معينة ، ثم يضع النموذج الخاص بالعلاقات التى تثير اهتمامه ، بينما هم المؤرخ الأول هو استخدام قدراته الخاصة ، من أجل أن يعيد الحياة الى صــورة مجتمــع مضى وانقضى ، ثم يبين المواقف المختلفة ، التى برزت خلال عملية تطوره •

لكن هذا التباين فى المهمة لا يعني أبدا ، أن عالم الأجتماع لا يستطيع تقديم المساعدة للمؤرخ ، وكذلك المؤرخ لا يستطيع تقديم مساعدة لعالم الاجتماع ، بل على العكس ، فالمعرفة والنتائج التى يحققها أحدهما يمكن أن تخدم أغراضا متعددة ، ويستطيع كل منهما أن يطوع ما توصل اليه الآخر لخدمة أهدافه • كما يجب ألا ننسى ، أن التاريخ فرع من فروع العلوم الانسانية ، فاذا أزدهرت الشجرة أزداد الفرع نضارة وازدهارا ، ولهذا نلاحظ أن عصور ازدهار كل فرع تتوافق مع ازدهار الفرع الآخر • فلم يكن من باب الصدفة أن تبعث كتابة التاريخ السياسى فى القرن السادس عشر على يدى نيكولو ماكيافللى Nicolo Macchiavelli (١٤٦٩—١٥٢٧) وبيير جويتشارديني Piero Guicciardim (١٤٨٢—١٥٤٠) وهما ليسا مؤرخين انما هما باحثان فى النظريات السياسية • أما التاريخ الاقتصادى ، فقــد ظهر على المسرح متأخرا بعض الشىء • فأول مؤلف ظهر فيه كان باللغة الانجليزية • وهو الفصل الثالث من كتاب آدم سميث Adam Smith المسمى باسم « ثراء الأمم wealth of Nations » والذى طبع عام ١٧٧٦ • اذ كان على التاريخ الاقتصادى أن ينتظر حتى نضوج القدرة على التحليل الاقتصادى ، ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قبل أن يبزغ نجمه فى أفق العلوم الانسانية •

واذا كان لا يمكن للمؤرخ الاقتصادى أن يصل الى غايته ، الا اذا اتبع أثناء سردة لموضوعاته التاريخية التحليل الاقتصادى للأحداث ، فما هى الموضوعات والتفاعلات التاريخية ، التى تهم المؤرخ والتى تجعل التحليل الاقتصادى أمرا ضروريا من أجل تفسيرها ؟

بادىء ذى بدء ، لابد أن نشير الى ثمة أشياء أسىء فهمها فى الماضى ، والتى نتجت من دخول بعض الاصطلاحات الغربية ، فقد قيل مثلا أن التاريخ الاقتصادى ، هو الذى يتعامل مع العوامل الاقتصادية فى التاريخ Economic Factors ، وقيل أنه هو الذى يهتم بدراسة الدوافع الاقتصادية Economic motives ، وقيل أيضا أنه يتعامل مع الأسس الاقتصادية Economic Institutions فى مواجهة الهيكل الفوقى للمجتمع ، Super Structure • هذه الاصطلاحات جاءت شاردة من علم الرياضيات ، وعلم النفس ، بل حتى من علم الهندسة المعمارية ، ونحن لا ننكر مزاياها الايضاحية فى التاريخ ، غير أن كثيرين يستخدمونها بطريقة خاطئة ومضللة ، وقد يكون سبب ذلك أن البعض يستخدمونها بطريقة تعميمية ، معتقدين أن وراء الأحداث السياسية لابد من وجود سلسلة من الدوافع motives المحركة ، أو وجود ثمة نوع من الأسس الثابته Institutions ، والتى لاتتغير ، وهى أسس اقتصادية بحته ، فى ضوئها يتحدد المجال الاقتصادى للمجتمع الذى يهدف اليه المؤرخ الاقتصادى بالدرجة الاولى ، لكن البحث الحديث أضفى ظلالا من الشك حول هذه الاعتقادات ، وأبرز تبريرات قوية لاثبات ذلك •

يقوم عمل المؤرخ الإقتصادى أساسا على التعامل مع نوع معين من القضايا التاريخية ، غير أن هذه القضايا قد تكون نتيجة لأكثر من دافع ، وتقوم على أسس كثيرة التباين والاختلاف ، وتماما مثل علم الاقتصاد ، يقوم التاريخ الاقتصادى على ملاحظات عامة ، يمكن تطبيقها على الانسان، فى أى زمان ومكان، وهى أنه — أى الانسان — ليس فى استطاعته أن يشبع رغباته كاملة ومرة واحدة ، ومن ثم كان عليه أن يستغل ما هو لدية استغلالا جيدا ، وبأفضل الطرق ، خلال مواجهته للتحديات للوصول الى أهدافه ، وعن طريق وخلال محاولته الوصول الى هذه الأهداف أو الغايات ، تتكون شخصيته الإجتماعية • ووجوب الربط بين الأهداف والوسائل ، أو بين الوسائل والأهداف ، وتطويع الأهداف للوسائل ،

والوسائل للأهداف ، ضرورة اقتصادية ، يلمسها الناس ، فى كل عصر وفى كل مجتمع . وهى بداية التاريخ الاقتصادى ، لأن مثل هذه الضرورة ، تفرض عليه مبدأ الاختيار الأقتصادى economizing motive وتقوم عملية الاختيار على تفضيل أحد مصدرين متاحين أمامه على الآخر بطريقة معينة ، وبما أن الانسان بطبيعته اجتماعى ، فأن اختياره لأحدى البديلين ، يتحقق من خلال نظمه الاجتماعية ، وقد يترتب على عملية الاختيار نتائج هامة ومصيرية ، سواء للفرد ، أو للأمة بأسرها ، لأنه يتقرر خلالها عما اذا كانت المصادر الاقتصادية سوف تقترب أو تبتعد من الهدف المراد تحقيقه ، وبأختصار ينتج عن عملية الاختيار كل مظاهر الازدهار ، أو التدهور فى مجال الاقتصاد .

ونستطيع أن نقول اذن ، ان عملية الاختيار الاقتصادى ، هى محور دراسة التاريخ الاقتصادى ، وتتبع هذه الاختيارات شىء يهم المؤرخ، لأنها تمثل أهم الخطوات ، التى اتخذها الناس ازاء مواقف معينة ، ولكى نتفهم جوهر التاريخ الاقتصادى ، فلابد من التعرض لكيفية الاختيار ، وتفسير سلوك الناس ازاءه ، وتوضيح الأجراءات التى اتخذوها ، والنتائج التى ترتبت على ذلك . وفى حاله ما اذا كان المجتمع ، الذى يعيش فيه الانسان ، يخضع للعرف الاجتماعى ، وجب علينا البحث عن طبيعة الاختيار ، الذى يختاره فى هذه الحالة (١) .

---

(١) يقول الفريد مارشال معلقا على هذه النقطة « ان قولنا بأن اى تصرف هو وليد العرف، لا يختلف كثيرا فى حقيقته ، عن قولنا بأننا عاجزين عن فهم مسببات ، مثل هذا التصرف ، اننى اعتقد ، انه يمكن ارجاع الكثير من العرف والتقاليد — اذا ما توفر لدينا القدر الكافى من المعرفة — الى عملية التوازن البطىء للدوافع ، التى يمكن قياسها ، حتى فى بلد مثل الهند ، فأن العرف الاجتماعى ذاته لا يصمد كثيرا ، أمام تغير أوضاع الدوافع الخاصة بالعرض ، حتى أن « القيمة » التى نحددها فى عملية توازن مستقر ، تبتعد كثيرا عن القيمة التى يحددها العرف » . فالعرف الاجتماعى هو الوسيط ، الذى يتم من خلاله اتخاذ القرارات الاقتصادية فى بعض المجتمعات ، وفى بعض المجتمعات الأوربية، نجد هذه القرارات تتخذ من خلال الدولة والسوق انظر :—

Alfred Marshalls : The Present Position of Economics, p 49.

من واقع الدراسة ، يتضح لنا أنه لا يوجد دافع اقتصادى معين ، نستطيع أن نقول أنه ثابت ومتكرر ، لأن الدوافع الاقتصادية تختلف وتتنوع ، ولأن الأجراء يتخذ فى ضوء الحاجة الاقتصادية ، ولهدف اقتصادى Economizing motive ، حيث يكون الدافع الاقتصادى هو وليد الرغبة فى التغلب على النقص الدائم فى سلعة معينة ، وبالتالى تجند كل المصادر المتاحه لمواجهة موقف معين من أجل تلبية حاجة الفرد . ان الدوافع الاقتصادية الفعالة فى التاريخ الاقتصادى متنوعة ومتغيرة ، كطبيعة الانسان ذاته ، غير أن المؤرخ الاقتصادى ينظر اليها من زاوية معينة ، خاصة اذا كانت تؤدى الى قرارات اقتصاديه معينة .

وعندما يقول البعض أن دوافع تحقيق المال money making motive هى لب التاريخ الاقتصادى ، فأنهم يقصدون بذلك الدافع التدبيرى فى الاقتصاد economizing ، والذى يتخذ ازاء موقف اقتصادى معين ، عن طريق صدور نظم خاصة باستخدام المال فى مجتمع تحكمه السوق المنظمة ، كما هو الحال فى المجتمعات الاوروبية الحديثة . لكننا لو جعلنا التاريخ الاقتصادى ، وقفا على المجتمعات المتقدمة ذات الأسواق المالية المنظمة ، والتى تعرف استخدام النقود والأوراق المالية ، نكون قد ضيقنا الدائرة على مجموعة معينة من الأمم وحرمنا البقية الباقية من المساهمة فى حقله ، وهذا خطأ كبير . فالتغيرات فى المواقف والاختيارات الاقتصادية ، قد تحدث فى مجتمعات بدائية ، قد لا تعرف النقود ، أو السوق المنظمة ، ودون أن تدرى شيئا عن علم الاقتصاد أو قواعده ، كذلك بالنسبة للمجتمعات المتقدمة والواعية اقتصاديا ، ليست كل القرارات الاقتصادية هى وليدة العرض والطلب ، فكثيرا ما تتدخل الحكومات وتتخذ القرارات الرئيسية الخاصة بالاقتصاد ، وهذا ينطبق بوضوح على اقتصاديات بلدان أوروبا الشرقية ، حيث نجد اقتصادياتها توجه توجيها مركزيا عن طريق القيادة السياسية ولا تلعب السوق أى دور فى هذه القرارات الاقتصادية .

هكذا يتضح أنه لا توجد دوافع اقتصادية معينة ومحددة ، لأن الناس تتخذ قراراتها بالنسبه للاختيارات الاقتصاديه تحت ضغط دوافع مختلفه ، فى أوقات مختلفه ، بالأضافة الى أنهم يعيشون فى مجتمعات مختلفة ، وفى ظروف اقتصادية مختلفة • وبما أنهم يعيشون فى مجتمعات مختلفة فأنهم يتخذون قراراتهم فى ضوء عاداتهم وتقاليدهم وفى ظروف التركيب الاجتماعى الخاص بهم ، وبالتالى فلا أساس للرأى القائل ، بأن هناك عجلة تدور ، وتصنع القرارات الاقتصادية بطريقة آلية • فكم من قرارات اقتصادية اتخذتها المجتمعات الانسانية فى ضوء ظروفها الخاصة ، ويفصل بينها التباعد الزمنى ، واختلاف المكان ، ودرجة التحضر، ابتداء من قرارات الصيادين فى العصور الحجرية وهم مجتمعون حول نيران تجمعاتهم ، الى مجتمعات الفلاحين المزارعين فى القرية ، الى القرارات التى اتخذت فى أسواق المال والأعمال ، بخصوص السندات والسلع فى المدن الصناعية ، والتجارية المتقدمة • فالذى كان يملك حق التصرف فى المصادر الإقتصادية ، هو الذى كان يملك القدرة على اتخاذ القرارات الاقتصادية ، وهى قرارات ليست دائمة الى الابد ، بل تتغير بتغير الظروف ، لكن الذين اتخذوها كانوا يرون أنها الحل الامثل بالنسبة للظروف القائمة التى كانوا يواجهونها ساعة اتخاذ القرار •

يخطىء البعض ، عندما يظنون أنهم أحرار • فى توزيع مصادر ثرواتهم على النحو الذى يحبونه ، ما دام التاريخ الأقتصادى هو سجل اختياراتهم الاقتصادية • والحقيقة ، أن الناس ليسوا أحرار حرية مطلقة فى طبيعة القرارات الاقتصادية ، التى تشكل الخيارات التى توضع أمامهم لاختيار أحداها ، لمواجهة التغلب على أزمة طارئة • وبمعنى أصح أنهم أحرار فقط ، فى حدود اختيار احدى البدائل المتاحة أمامهم ، فى نفس الوقت هم مجبرون على يكيفوا أنفسهم مع الظروف المتاحة أمامهم عند الاختيار ، سواء تلك الظروف التى هيئتها المصادر المادية ، أو عندما يكون اختيارهم اعتباطا بسبب جهلهم بمعرفة البدائل ، نتيجة لنقص

الخبرة والمعرفة ، أو نتيجة لطبيعة الموقف ، الذى يجدون أنفسهم فيه ، سواء كان ذلك الموقف بدائيا بسيطا ، أو متحضرا شديد التعقيد .

ان الأطوار الكبرى للتاريخ الاقتصادى ، نشـأت نتيجة للأزمات التى واجهها الإنسان ، بسبب عجز الموارد الاقتصادية عن تلبية متطلباته وحاجاته ، فقد وجد الانسان نفسه مرغما على التصرف والا تعرض للانقراض والفناء . فمثلا فى عصور الصيد والتقاط الثمار ، عندما تزايد عـدد الصيادين وجامعى الثمار ، قلت فرصـة اصطياد الحيوانات ، وتناقصت كميات الثمار فى بعض المناطق نتيجة لذلك ، أو نتيجة لاشتعال الحرائق فى الغابات (١) ، عندئذ اتخذ الانسان البدائى قراره ، وهـو تنويع مصادر الطعام ، بأدخال الزراعة البدائية الى جانب ممارسـة الصيد وجمع الثمار . وبذلك انتقل الانسان من مـرحلة الى مرحله وهو لا يدرى ، من مرحله الصيد وجمع الثمار ، الى مرحلة الزراعة وتربية الأغنام ، أى من مرحلة الاستهلاك الى مرحلة انتاج الغذاء .

وما أن استقرت الزراعة ، حتى خلقت عالما من المزارعين ومـن الحرفيين ، ومن قاطنى المدن ومن التجار ، ونتيجة لفائض الانتاج فى منطقة ما ، وفى محصول ما تولدت عملية المقايضة ، والتبادل ، فمناطق الرعى كان لديها فائضا من اللحوم والصوف ، بينما مناطق الزراعة كان لديها فائضا من الحبوب والمحاصيل ، وهكذا دعت الحاجة والنقص عند كل طرف الى استبدال الفائض مقابل السلع التى كان فى حاجة ماسـة لهـــا (٢) .

لقـد أبرزت الزراعة أهمية « الأرض » ، وقيمتها الاقتصادية . وبالتالى ولد حب امتلاك الأرض الزراعية والتسابق فى استحواز أكبر

(1) J. G. D. Clark : Primitive Europe : The economic bases London 1952.

(2) A. Z. Manfred, A Short History of the World, Vol I, Progress, Publishers, Moscow 1974, P. 15.

قدر منها (١) ، فظهر ما يسمى بالاقطاع • ولما كانت الأرض غير كافية لاطعام الأعداد الغفيرة المتزايدة من السكان فقد أدى ذلك الى قيام الحروب ، والغزوات ، والى حركات الهجرة والاستيطان • وكان من نائج الحروب أخذ الأسرى كرقيق ومن هنا ظهر الرقيق كقوة لعبت دورها فى الاقتصاد • وأكبر الأمثله فى التاريخ حول حركات الهجرة والاستيطان بحثا عن الأرض نجده فى تاريخ الأغريق ، ولعل الدارس لتاريخ الرومان يدرك أن الحزب الشعبى ، الذى كان يمثل الطبقات المعدمة الباحثة عن الأرض هو المحرك لفكرة التوسع ، والاستيلاء ، على البلدان المحيط بأيطاليا • وأن القادة الرومان ، الذين نفذوا مخطط التوسع ، كانوا من زعماء هذا الحزب • وقد انتهى المخطط بقيام الامبراطورية الرومانية • وبسبب النهم الشديد على الأرض ، لم تجد القبائل الجرمانية خيارا سوى أن تغير على أراضى الأمبراطورية الرومانية ، مما أدى الى سقوطها • وقيام العديد من الممالك الجرمانية على أشلائها • وهكذا تخلت أوروبا العصور الوسطى •

وفى القرن التاسع عشر ، دفعت الظروف المختلفة ، ومن بينها النقص الشديد فى الأرض الزراعية ، والحاجة الماسة الى امتلاك المزيد منها — بعض الأسر الأوربية الى الهجرة الى أمريكا لشمالية ، واستراليا ، وبعض أجزاء أفريقيا ، وغيرها من البلاد الجديدة وراء البحار • بالطبع لم يكن النقص فى الأراضى هو الدافع الأوحد لجميع فئات المهاجرين ، لكن بالنسبة للقادمين من بلاد زراعية مثل ايرلندا ، وهولندا وألمانيا ، فقد كان الدافع قويا لتملك مزارع وضياع • مما أدى الى انتشار المهاجرين من هذه البلاد فى مستوطنات متفرقة من العالم (٢) •

هكذا يتبين أن النقص فى الأرض الزراعية ، هو الذى كان — ولايزال — واحد من أقوى العوامل المؤثرة فى التاريخ الاقتصادى ، خاصة عندما

---

(1) Manfred, cp. cit, P. 16.

(2) Cambridge Economic History of Europe, I, Camhridge 1941, PP. 19 — 20.

نترجمه فى مفهوم الحاجة لأنواع معينة من الأراضى ، لأغراض معينة ، وفى أوقات معينة . لقد بذل كثيرون من الرجال النفس والنفيس من أجل امتلاك الأرض ، وخطط لذلك كثيرون ، وأبدعوا فى استغلالها . فنظم الزراعة الحديثة تنبع من الأرض ، كما أن القحط والمجاعات سببه خذلان الأرض للانسان . وكانت الأرض دائما مثار المنازعات والحروب، ولعل الدارس لتاريخ أمريكا ، سوف يذكر المعارك التى وقعت بين الزارع ورعاة البقر ، أو مربى الماشية ، وهذه الحادثة ليست سوى واحدة من العديد من حوادث الصراع الكثير ، التى دارت فى التاريخ من أجل الأرض ، والغرض من استغلالها ، ويزداد الصراع تعقيدا عندما يدخل حلبة الصراع التباين فى العرق ، ودرجة الثقافة ، ونوعها ، والعقائد الدينية .

ولندرة المصادر الغذائية دور كبير فى قيام ما يسمى بالثورة الصناعية فى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، والتى تعتبر نقطة تحول فى التاريخ الأوروبى خاصة ، والتاريخ الأنسانى عامة . وهى ثانى « ثورة » فى الحضارة الانسانية بعد اكتشاف الزراعة ذاتها منذ سبعة آلاف سنه سبقت تقريبا . وكما لاحظ بعض الباحثين أن نجاح الثورة الصناعية فى بريطانيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، قام أساسا على وجود كميات كبيرة من الفحم والحديد فى مناجمها ، وهما أهم المواد الأساسية فى الصناعة (١) . غير أن نجاح بريطانيا فى استغلال مناجمها على النحو الأمثل كان باعثه الزحف المستمر على مناطق الغابات من جانب المزارعين ، وقد أدى التناقض المستمر فى مساحات الغابات الى حدوث أزمه فى أخشاب الوقود فى بعض المناطق ، مما أدى الى تزايد تكاليف انتاج الحديد . ولم يكن هناك من خيار سوى أن يبحث الانجليز عن بديل للخشب كمادة للوقود ، ومن ثم اكتشف استخدام الفحم فى صهر الحديد وصناعته ، مما أدى الى الحصول على معدن جيد بتكاليف أرخص

---

(1) Charles Singer & Others (editors) : History of Technology, Oxford, The Clarendon Press, Vol. (1) (1957) P. 712.

عن ذى قبل ، وهذا هو الذى ساعد على بدء عصر الصناعة ، أو الحضارة الصناعيـــــة •

وعلى ذلك يتضح من الحقائق التاريخية ، أن « ندرة » أو « وفرة » المصادر الأولية تلعب دورا هائلا فى التاريخ الاقتصادى كذلك فـأن التطورات الاقتصادية تؤثر على تفكير الناس وآرائهم ، فنظرية مالتوس الشهيرة Malthus ، تركت تأثيرا كبيرا استمر لما يقرب من قرن على تفكير الناس ، وذلك بعـد نشره لكتابه الشهير « دراسة فى السـكان Essay on Population » وتنبـع نظـرية مالتـوس من ملاحظته للعلاقة بين السكان والأرض المنتجة للغذاء ، وكان مالتوس قد لاحظ النقص المتزايد فى سد حاجة الغـذاء فى انجلتـرا أثناء حياته ، وبالتالى تطورت لديه هذه النظرية ، وبدت مقبولة ومقنعة لبعض الناس

ونظرية مالتوس رغم شعبيتها ، وقبول عدد كبير من الناس بها ، الا أنها تبدو مفرطة فى تبسيطها لمفهوم التاريخ الاقتصادى ، فهـى تصفه بأنه سجل الاختيارات ، التى تنبع من الصراع والتحدى ، بين ما يحتاجه الانسان ، وبين ما هو متاح له من المصادر الطبيعية ، أى بين ما هو مطلوب ، وما هو قائم وموجود • وبمرور الزمن أصبح للانسان نظرة مادية واضحة ، وأسس اقتصادية معروفة ، لأن حاجاته قد تكيفت مع واقعه ، وارتبطت ارتباطا وثيقا مع عرفه ، وتقاليده ، وعاداتـــه السلوكية ، لدرجة أنها تحولت الى حاجات اجتماعية ، وحضارية ، بقدر ما هى حاجات اقتصادية • حتى بعض متطلبات الانسان غير المادية ، مثل الفن ، والعقيدة الدينية ، فالبرغم من أنها تبدو من أول وهلة أنها لا تقوم على أساس مادى واضح ، لكنها تملك تعبيرا ماديا واضحا ، لاشك فيـــــه •

واذا كان التاريخ الاقتصادى هو دراسة النظم والوسائل ، التى اختارها الانسان لاستغلال المصادر المتاحة بأحسن الطـرق التى تفى بمتطلباته وحاجاته ، فعلينا أن ندرك أن نظرة الناس ، وآراءهم بالنسبة لمتطلباتهم ، وحاجاتهم ، فى حالة تغير دائم حسب العصور ، مما يضفى

على نظرية المصادر الطبيعية الثابته بعضا من الغموض المحير ، وليس سبب التغير فى نظرة الناس بالنسبة لحاجاتهم هـو نتيجة التغير فى التكنولوجيا ، ونوعية الانتاج كما يزعم الماركسيون ، بالرغم من أننا لا ننكر أن التغير فى التكنولوجيا ، وطرق الانتاج قد يؤدى الى تثوير أفكارنا بالنسبة لحاجاتنا ، ومصادرنا المتاحه ، وانما هو التغير فى المنطق الاقتصادى الذى يؤدى الى تغير الناس لحاجاتهم . فما هو منطقى من الناحية الاقتصادية بالنسبة لمجتمع معين (أى التوزيع المنطقى للمصادر) ، قد لا يبدو منطقيا بتاتا بالنسبة لمجتمع آخر ، ولنضرب مثلا على ذلك . فعندما ذهب المستوطنون البريطانيون الى قارة استراليا ، وجدوا قبائل المؤرى Maoris البدائية تعيش فيها ، ووجدوا أن لدى هـذه القبائل سواء فى استراليا ، أو نيوزيلنده ، نظرية منطقية خاصة بأستغلال الأرض ، تختلف تماما عن نظرة المستوطنين القادمين من المجتمعات الأوربية المتقدمة . فقد كان منطقيا [١] بالنسبة للشعوب الاسترالية البدائية ، التى كانت تعمل فى صيد الحيوانات ، وجمع الثمار ، أن تتبع طريقة تلقائية كل عام لجمع الثمار عبر آلاف الأميال المربعة من الأرض الغنية والبكر ، هذه الطريقة بدت للمستوطنين الأوروبيين — ذوى العقول المتشبعة بالنظريات المعقدة حول استخدام المال ، ومعرفة الاسواق ، ضربا من ضروب الجنون . ومن ثم بداوا تحت ستار نشر الحضارة الأوروبية الراقية ، يزحفون لانتزاع هذه الأرض البكر من الاستراليين الأصلين ، واستغلالها حسب منطقهم الاقتصادى الأوروبى . لكن من ناحية الواقع ، لم يكن منطق الأوروبى الاقتصادي أكثر نبوغا من المنطق الذى اتبعة الرجل البدائى فى استراليا ، فلو أتيح لقبائل الماؤرى القدر المساوى فى التحضر ، والثقافة ، والتقنية ، التى كانت لدى المستوطنين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر ، لأستغلوا أرضهم بطريقة مختلفة ،

---

(١) Raymond Firth : Economics of the New Zealand Maori, London 1929

حيث وضح المؤلف ان تصرف هذه القبائل ازاء مصادرها الطبيعية كان تصرفا منطقيا من الناحية الاقتصادية .

قد تتفق والمنطق الأوروبى • فلكل مجتمع منطقة الاقتصادى ، كما أن لعامل التكنولوجيا تأثيره الكبير فى تغير هذا المنطق ، وبالمثل نستطيع أن نقول أن التطورات الاقتصادية فى مجتمع ما ، تتأثر بالمجتمعات القريبة منها ، بمعنى أننا مثلا لا نستطيع تقييم التاريخ الاقتصادى لدولة مثل بريطانيا دون أن ندرس التنظيمات ، والقيم الخاصة ، بالمجتمع الأوروبى عامـــــــة •

فللتنظيمات الاقتصادية فى أوروبا منطقها الخاص ، الذى يتعذر فهمه بعيدا عن المناخ الأوروبى العام • ولو قدر لرجل قبائل الماؤرى — أو غيره ، من سكان استراليا الأصليين فى مطلع القرن التاسع عشر ، أن يملك العمق الاقتصادى ، الذى يتيح له التأمل فى اقتصاد أوروبا خلال الثلاثينات من ذلك القرن ، لوجد أن منطق قومه البدائى ليس فى حاجة قوية للدفاع عنـــــه •

يتوجب على المؤرخ الاقتصادى اذن ، عندما يختار موضوعا ليدرسه أن يستخلص من خيوط الحوادث التاريخية المواقف التى تمثل نماذجا من الاختيار الاقتصادى ، وهو لن يتمكن من ذلك ما لم يكن على دراية جيدة بأحوال المجتمع الذى يدرسه ، ويتخصص فيه وينكب على معرفة دقيقه ، فلا قيمة للقرارات الاقتصادية ، والمواقف الخاصة ، اذا فصلت وجردت عن طبيعة المجتمع الذى حدثت خلاله • والمثل على ذلك واضح من دراسة مشكلات عالمنا المعاصر • فحينما نناقش مشكلاتنا الاقتصادية الخاصة ، عادة نكون على بينة من أحوال مجتمعنا العامة ، والا لوقفنا عاجزين عن فهم مشاكلنا • وعندما نبتعد بالقضايا الاقتصادية زمنا ومكانا يظهر لأعيننا صورة الاختيارات الاقتصادية ، التى تستند على الهيكـل القائم المجتمع ، والى قيمه الاجتماعية المسلم بها ، ولهذا فأن على المؤرخ الاقتصادى أن يكون مستعدا لاستخدام أسلوب التحليل الاقتصادى عند تعامله مع القضايا التى يريد دراستها ، بالنوع والدرجة التى يراها ضرورية لتفسير المواقف الاقتصادية ، أو عند احيائها أو اعادة بنائها • ولما كانت الاختيارات الاقتصادية تستند الى هيكل المجتمع ، وقيمة ،

فيتوجب على المؤرخ الاقتصادى أن يكون ملما — سواء عن طريق الدراسة ، أو الهواية أو الميول والخبرة — بخصائص علم الاجتماع ، حتى يستطيع أن يرقب ويلاحظ ثم يعيد تكوين القوانين ، وكل القيم التى دان لها أفراد المجتمع بالطاعة العمياء ، مثل النظم ، والعادات ، والتقاليد ، وكافة التنظيمات الاجتماعية ، التى هى بالنسبة لأفراد المجتمع حقيقه ملموسة ، مثل الحالات الاقتصادية ، والمادية الاخرى (١) ، فنحن ما زلنا لانعرف سوى النذر اليسير عن الظواهر الاجتماعية فى عالمنا الانسانى ولا يزال دراسة التركيبات ، والقيم الاجتماعية ، والتحول الذى يطرأ عليها أمرا جديدا على المؤرخين ، وعلى الحقل التاريخى ، بالرغم من أن طبيعة العلاقات بين التغير الاقتصادى والتغير الاجتماعى ، هى احدى القضايا الأساسية فى دراسة التاريخ ، كما أن عملية المراقبة الدائمة ، والرصد الدقيق للانسان ، ونشاطاته ، ومقوماته ، سوف تقود المؤرخ بدون شك الى ينابيع التطور ، والنمو الاجتماعى ، الخفية والتى يخرج منها التاريخ الانسانى بأكمله .

ان التغير الاقتصادى هو أهم ما يسعى وراءه المؤرخ الاقتصادى . لأن التغير يشمل كل التطورات ، التى رأى الانسان ضرورة اتباعها ، خلال عملية توزيع المصادر ، سواء على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة ، وسواء فى السلم ، أو فى الحرب ، وفى أوقات تألق الحضارات أو أفوالها . وما دمنا نعيش فى عصر يشهد تطورات اقتصادية هائلة ومثيرة ، فما أحوجنا الى الاستعانة بالتاريخ الاقتصادى ، خاصة أن رجال الفكر ، وأصحاب النظريات ، فى كل بلدان العالم شغلوا أنفسهم بقضايا القوى المحركة للاقتصاد ، وراحوا يفتشون عن حلول للمشكلات التى تواجهها ، وللأسف قلما يرجعون الى التاريخ .

---

(١) لابد ان نشير هنا الى مجهودات جورج أنوين فى هذا المجال ، فهو اكثر المؤرخين الاقتصاديين الانجليز اهتماما فى محاولة اقامة جسر بين الاقتصاد وعلم الاجتماع انظر بحثه الذى ظهر بعد وفاته : —

George Unwin : Studies in Economic History (London) 1927,

بالرغم انه لا يتعرض بطريقه مباشرة لهذا الموضوع .

ولكى نكتب تاريخ التغيرات الاقتصادية فى العصر الحديث ونقتفى آثارها على مدى واسع ، قد يشمل الحياة الاقتصادية لأمة بأسرها ، فلابد أن يتعاون المؤرخ الاقتصادى ، وعالم الأحصاء ، Statistican جنبا الى جنب ، بالرغم من أن ذلك قد يثير المخاوف لدى بعض المؤرخين . خوفا من أن يتحول التاريخ الى أرقام ، وجداول رياضية ، لكن تعقد الأحوال الاقتصادية ، وندرة وجود العوامل المؤثرة ، خاصة عندما تكون المواد المراد تتبعها لا تربو عن كونها مجموعة معقدة من الحسابات ، والأجراءات ، كل منها وليد الأخر . ان ضرورة اللجوء الى التحليل الرياضى تفرض نفسها حتى عندما نعالج حاله محدودة ومعينة ، للتطورات الاقتصادية ، وتفرض نفسها بشكل أشد عندما نحاول تفهم العوامل الديناميكية المعقدة ، والتى تقبع وراء كل تغير يطرأ .

ان التحليل هو مهمة المؤرخ الاقتصادى ، كما أن اهتمامه بالعلاقات الاقتصادية يختلف عن اهتمام المؤرخ العام ، لأنها تساعده فى استخراج النماذج models الاقتصادية ، سواء استندت الى نظرية أو كانت مجردة ، ومهما بلغت هذه النماذج فى درجتها من البساطة أو التعقيد ، فأن المؤرخ الاقتصادى لا يستطيع السير خطوة واحد الى الأمام فى عملية اعادة بناء المواقف التاريخية ، دون الاستعانه بها . ولو أردنا تفهم مجتمع يقوم اقتصاده على الصناعة وحدها ، فلابد من الأستعانه ببناء النماذج model--building ، وتصبح الحاجة الى هذه النماذج أكثر الحاحا ، عندما نتتبع مرحلة الأنتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى ، أو عند التغير من نمط صناعى معين ، الى نمط آخر .

بالطبع ، لا نطلب من المؤرخ أن يدخل فى معمعة الجدل ، حول صحة النظريات الاقتصادية ، أو عدم صحتها ، لأن ذلك ليس من اختصاصه ، انه يلجأ الى عالم الاقتصاد فقط من أجل الأستعانة ببعض وسائله التخصصية لتسهيل مهمته ، كما أن استخدام المؤرخ للنظرية يجب أن يكون دائما مبسطا ، ويتفادى الوقوع فى شباك التفصيلات المملة ، واذا

كان يتحتم على المؤرخ أن يكون قاضيا وحكما بين المعلومات النظرية ، فعليه أن يراقب بحذر كل ما يصدر من دراسات عن علماء الاقتصاد،فربما كانت العلاقة بين النظرية الاقتصادية وكتابه التاريخ ، أشد قربا مما قد يتصور كثير من الناس ، الذين لم يقربوا هذا الموضوع ، وكل انطلاق عظيم فى الرأى، وكل محاولة للتنظير ، سوف تساعد على ولادة نوع جديد من التاريخ الاقتصادى ، تماما مثلما حـدث على يـدى آدم سميث ، ريكاردو وكينيس Keynes منذ ثلاثين عام مضت ، حتى النظريـة الماركسية — برغم تحفظاتنا عليها — قد فجرت بلا شك نوعا جديداً من الفكر التاريخى •

ان لعالم الاحصاء دور رئيسى فى كتـابة التاريخ الاقتصـادى ، لأن القرارات الاقتصادية الخاصة بالتصرف فى المصادر الطبيعية تقوم على قضايا « الكم » « Quantity » ، أى تحديد الكميات ، مثـل كم من الدخل العام يمكن توفيره ؟ وكم يتوجب الأنفاق منه وكم يمكن استثماره ؟ كم تكون مساحة الأرض التى سوف تزرع بالمحاصـيل ؟ وكم تكون مساحة الأرض التى سوف تتحول الى مراعى ؟ وكم يرصد لبند الأجور فى ميزانية المصنع ؟ وكم يرصد لشراء المواد الخام ؟ وكم من المـال يمكن تحقيقه كربح من مشروع معين ؟ وهكذا دواليـك • اذا كان المؤرخ يدرس مجتمعا معتادا على الأرقام والحسابات ، فأنه سيجد أن أفراد هذا المجتمع قد بدأوا له بحثه الأحصـائى بما دونوه مـن احصائيات وأرقام ، فبعض المجتمعات قامت بأحصاء قطعان الماشـية الموجودة فى الضياع ، وكميات الصوف التى بيعت منها كل عام ، وعدد السفن التجارية العاملة فى البحار ، وقيمة ونوعية ما تنقله ، وعدد العمال ، وكمية المواد الخام •• الخ • وعادة تكون هذه الأحصائيات معاصرة لاحداث المجتمع ، الذى ندرسه ، ومن ثم فهى فى غاية الاهمية ، فربما تكون تعبيرا عن وجهة رأى ، أو تطبيقا لسياسة وضعت فى ذلك الوقت ، لكنها لن تكون أبدا كافية بالنسبة للباحث الحديث ، لأنه عندما يدرس هذه الأرقام والاحصائيات، فأنه عادة يرغب فى تحليلها بطريقه مغايرة للتى هى عليها ، ومن زاوية تفرضها عليه اهتمامات العصر الذى يعيش

فيه ، كما أنه يجد نفسه مضطرا لبحث العلاقات والتفاعلات التى لم يدركها أولئك الذين عاصروا تلك الأحداث ، أو وضعوها فى اعتبارهم ، وبأختصار يجد نفسه مضطرا لمقابلة الأدلة بعضها بالبعض ، من أجل الوصول الى أهدافه ، لأن اهتمامات المؤرخ الباحث ليست من نفس اهتمامات الرجال الذين يتقصى اخبارهم ، خاصة اذا ما كان يفصل بينه وبينهم عدة أجيال !

لقد أصبح توفير الأحصائيات القومية عملا ضروريا تقوم به الدول الحديثة ـ خاصة منذ الأستعانه بأجهزة الخازنات الحسابية الالكترونية ـ لتتحول الى وثائق سوف يعتمد عليها المؤرخون الاقتصاديون مستقبلا، وسوف يكونون أسعد حظا من أجيال المؤرخين الاقتصاديين السابقة ، كما أن نشر هذه البيانات الأحصائية دوريا ، عمل جدير بالأهتمام ، والمتابعة ، ومن ثم فأن المؤرخ يجد نفسه فى حاجة الى مشورة عالم الأحصاء للاجابة على تساؤلاته ، الخاصة بالكم ، لأننا سوف نحمل المؤرخ اكثر مما فى طاقته لو طلبنا منه أن يكون على نفس القدر من المهارة والتخصص ، الذى يكون عليه عالم الأحصاء . ولعل رقما ، أو جدولا ، أو رسما بيانيا ، قد يكون أكثر تعبيرا فى التاريخ الاقتصادى من عشرات الصفحات من الوصف والشرح ، فتلك الأرقام هى الأختيار النهائى ، الذى يفسر كيفية ، وأسباب حدوث الأشياء ، خاصة وأن أكثر البيانات الأحصائية تدخل فى باب الوصف ، اكثر من باب التفسير أو التحليل . وتوكيد الشىء ، وتبيان درجة تأثيره ، أمران هامان فى الدراسات التاريخية ، بينما يساعد الكم على تحديد حجم المشكلة ، حتى وان لم يساعد على حلها .

ومن ثم يمكن القول بأن الأحصائيات الرياضية أصبحت تلعب دورا هاما وأساسيا فى الدراسات التاريخية ، لكن يجب أن يكون فى حسبان الباحث أن الحصر والحساب الآلى ـ ان لم يقابله مجهود مساو لمراقبة الجداول الأحصائية وتحليلها ونقدها ـ قد يقودنا الى الوقوع فى الخطأ ولهذا على المؤرخ أن يتعلم كيف يتعايش مع الكم والكيف ، وأن يكون

لنفسه نوعان من الاستقراء والحكم ، يستعين بهما للوصول الى هدفـــه المنشـــود •

وخير ضمان لتفادى الوقوع فى الأخطاء بسبب البيانات المضللة ، هو الحرص على تنويع الآراء ، وعدم التمسك بوجهة نظر معينة ، عند دراسة التغيرات الاقتصادية ، وأن نقلل فى درجة المغالاة فى دراســـة تاريخ النظم الاقتصادية ، وأن نعالج بحذر الأرقام والبيانات الأحصائية المبالغ فيها ، ونتجنب العبارات العامة التى تضفى أحيانا سياجا مــن الغموض حول تنوع سلوك الفرد والجماعة ، ونعطى اهتماما أكبــر لدراسة الأفراد والمجتمعات الصغيرة المحدودة العدد ، لأن ذلك يعنى فى حالات كثيرة الوصــول الى مســافة قريبة جــدا من مصــادر التغير الاقتصادى ، كما يجنبنا شر الوقوع فى الأخطاء الناتجة من التعميم ، أى أننا يجب أن نتدرج من التخصص الدقيق فى نقطة ما ، أو موضوع ما ، لكى نستخرج ملاحظات عامة وأحكام شمولية • فالوثائق التى تتعلق بأحوال الضياع والمزارع ، العواصم الأقليمية ، أو المدن الصــناعية الكبرى ، بما فيها من مصانع وصناعات ، أو حتى فى بعض المرافق العامة مثل السكك الحديدية ، أو فى البنوك المالية والزراعية ، أو فى اســواق المال والأعمال ، هى أساس لاغنى عنه لدراسة التاريخ الاقتصادى • حتى يمكننا القول بأن قيمة ما نكتبه من تاريخ اقتصادى عام يتوقف على نوعية هذه الدراسات الفرعية المتخصصة والدقيقة ، سواء كانت اقليمية ، أو زراعية ، أو صناعية ، أو حتى نقابية •

من المعروف ، أن التغييرات الاقتصادية الكبرى التى شهدها عالمنا الحديث كانت من فعل قادة الفكر والتنظير ، وبعض هذه التغييرات كان ثوريا وجذريا ، والبعض الآخر كان سطحيا محدود التأثير ، وبعضها كان تجديدا وابتكارا ، وبعضها الأخر كان تقليديا • هــؤلاء القــادة المفكرون ، خرجوا من طبقات اجتماعية كثيرة ومتباينة ، تشكل مراتب الحياة المختلفــة ، وســواء جاء هــؤلاء من الطبقــة الأرستوقراطية الاقطاعية ، أو من طبقة المزارعين المتواضعة ، سواء كانوا تجارا ، أو من

رجال المال وأصحاب البنوك ، أو أصحاب الصناعات أو ملاك السفن ، أو حتى من زعماء نقابات السكك الحديدية أو النقابات العمالية الأخرى ، أو وسطاء تجاريين ، أو أصحاب حرف صغيره وحوانيت متواضـــعة ، لا يعنينا ذلك على الأطلاق بشى انما يعنينا أكثر الوثائق التى خلفوها من ورائهم ، والتى يقدم بعضها فوائد عظيمة للدراسات التاريخية .

ان وثائق الملكيات الزراعية والعقارية وثائق قديمة ، اعتادت الاسر الاحتفاظ بها ، سواء لاثبات حق الملكية ، أو لدفع العوائد المستحقة . بينما وثائق وسجلات الصـــناعات ، أو دفاتر البنوك والتجار ، وبيوت المال ، وثائق ترجع الى عصـــور حديثة نسبيا ، لكنها فى عصرنا الحديث أصبحت تلعب دورا أساسيا خاصة بالنسبة لتطورات الدول الصناعية المتقدمة ، لأن القرارات التى اتخذها رجال الصناعة والاقتصاد ، ترتب عليها أحداث ونتائج هامة بالنسبة لهذه البلدان ، ويمكن أن نصف هذا النوع من التاريخ الاقتصادى بتاريخ الأعمال التجارية Business — History ، لان مادة كتابته هى سجلات ووثائق رجال المال والأعمال ، وقد حـــدد البروفسيور أشتون Ashton الاهميـــة المتزايدة لذلك الفرع من الدراسات ، وعلاقته بالتاريخ الاقتصادى العام بقوله « ليست المساهمة التى يقدمها تاريخ الأعمال التجارية للدراسات التاريخية بالهينة ، بأى حال من الاحوال ، لان فى المشروعات التى يقوم بها الأفراد نستطيع أن نرقب عن كثب القوى الاقتصادية وهى تعمل ، فالقرارات التى تتخذ داخل مكاتب المبيعات ، أو داخل حجرة الأدارة ، قد يكون لها نفس القدر من التأثير ، الذى تحدثه مثيلاتها من القرارات ، التى كانت تتخذ فى اجتماعات علنية وعامة (١) » .

انه لمن الاهمية بمكان أن نتعرف على عقليات وتفكير رجال الاعمال ، لانهم هم الذين يحـــددون مقدار الاستثمارات ، ومعـــدل التطـــوير التكنولوجى ، وأسلوب الأدارة ، بل هم الذين يتخذون القرارات الحاسمة التى تشكل التغيير الاقتصادى نفسه ، بل لكى تكتمل الصورة ، ونفهم

(1) Professor T.S. Ashton in Business History, Liverpool University Press & Business Archives Council, I, No I, December, 1958, P. 2,

التغيير على أصوله وحقيقته ، وجب علينا أيضا أن نتفهم عقليه العامل ، وان كان ذلك مطلبا صعبا ، بسبب ندرة الوثائق الخاصة بذلك الجانب فتنقل العامل من مكان الى مكان بحثا عن العمل المناسب ، أو الاكثر دخلا ، أو تقلبه من مهنة الى أخرى ، سواء اتخذ ذلك شكل الهجرة من الريف الى المدينة ، أى من الزراعة الى الصناعة ، أو هجرة الايدى العاملة من قطر لاخر ، هو الذى يغير الوجه الاقتصادى للدولة . ولا ننسى أن تنقل العامل من مهنة الى مهنة ، وهجرته من الريف المصرى مثلا الى مصانع حلوان ، أو من مصر الى دول الخليج ، ودول أوروبا هو تماما مثل هجرة العمال الإيطاليين الى الارجنتين ، أو هجرة الفلاحين الايرلنديين الى الولايات المتحدة ، والتى غيرت ملامح المجتمع الأوربى وصورته التقليدية ، التى امتدت عبر قرون عديدة . ولو أمكن للباحث أن يتتبع رحلة عامل معين ، وتنقله من مهنة الى مهنة ، أو من منطقة الى منطقة ، ومن بلد الى بلد ، لأمكن التعرف على أوجه التغير الاقتصادى بصورة دقيقة ، بالطبع كانت كل خطوة من تحركات العامل موضوع تفكير عميق ، ونقاش طويل بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين أفراد عائلته ، لكن هذا النقاش لا يسجل على ورق (اللهم الا اذا كان العامل يكتب مذكراته بدقة) ، ولهذا لا يتبق منها سوى الرواية الشفوية .

ان علماء الانثروبولوجيا على حق عندما يؤكدون لنا بأن بعض السلوك الانسانى قد يكون منطقيا ومتعمدا ، لكنه كأى شىء آخر قد لا يترك من ورائه دليلا مكتوبا ، والمثل على ذلك نواجهه عندما نكتب تاريخ القبائل والأمم الافريقية التى بقيت حتى العصر الحديث لا تعرف القراءة ولا الكتابة [1] .

---

(١) راجع النقاش الممتع حول صعوبة كتابة التاريخ الافريقى والتى وردت فى مقدمة كتاب :
Grann, The Birth of a Plural Society : The Development of Northern Rhodesia under the British South. Africa Company, Manchester 1958, P. iX.
والمقدمة بقلم البروفيسور جلوكمان Gluckmann . وبالاضافة الى حالة العامل أو قضية التاريخ الأفريقى هناك قرارات هامة اتخذت شفويا أو عن طريق الهاتف ولم تسجل فى وثائق .

ولهذا السبب وحـــده فأن أكثر فروع التاريخ الاقتصـــادى أهمية بالنسبة للأنتاج هو تاريخ العمل والعمال ، لأن كتابته شاقة وصعبة ، بدرجة غير عادية ، فهو غامض الا عند النقاط التى يتصل فيها العـــامل بالمؤسسات والمسؤلين ، مثل الملحقين العماليين فى السفارات ، أو مكاتب الهجرة والجوازات ، ومــكاتب العمل ، أو الضـــمان الأجتماعى ، أو سكرتيرى اتحادات نقابات العما ل، وغيرهم ممن تقع عليهم مسئولية البحث له عن عمل ، والتفتيش عن ظروفه ، وأحواله فى العمل ، لأن هؤلاء يدونون ملاحظاتهم فى السجلات العامة كتابة ، لكن صوت العامل نفسه كثيرا ما يكون غائبا ، ومفقودا ، مسببا للمؤرخ الذى يدرك أهمية الدليل المــكتوب ، مضايقة وانزعاجا كبيرا •

ان قضية التغير الاقتصادى هى من أهم القضايا الدائمة فى التاريخ ، وكذلك فكرة الرفاهية الاقتصادية فالفكرتان ترتبطان ببعضهما البعض ارتباط وثيقا ، بالرغم من أن كل منهما تأخذ مجراها الخاص ، فالتغير الاقتصادى يمثل تاريخ الرفاهية ، ومولد الدخول والأنتاج • أما الرفاهية الاقتصادية ، فتعالج تأثير الرخاء على الامة ، وما يصيب المجتمع من تقدم ، ونتيجة ذلك • أنه لمن الصـــعب أن نناقش التغير الاقتصـــادى دون أن نثير قضايا الرخاء ونتائجه على الأمة ، وبالمثل فأن دراسة الرخاء الاقتصادى دون التعرض فى بعض الجوانب الى قضايا التغير الاقتصادى يصبح بنفس القدر صعبا ومحيرا •

لا توجد نظرية اقتصادية ثابتة أبدا ، بل هناك تغير دائم فى الأفكار ، والآراء والنظـــريات • لأن الافـــكار والنظـــريات التى هيمنت عـــلى الاقتصاديين ، ومؤرخى الاقتصاد ، كانت تختلف دائما بأختلاف العصور والظروف • فمثلا عندما ناقش ديفيد ريكاردو ـــ منذ أكثر من قـــرن ونصف قرن ـــ قضية توزيع الثروة ، عالجها بطريقة تعكس الاختـــلاف والتباين فى ثراء الأمم ، سواء كان اقتصادها ثابتا غير متغير Stationary أو سواء كانت دولة ذات اقتصاد متطور أو متدهور •

وفى انجلترا لم تنتشر فكرة التغير الاقتصادى ، ولم تعطى قضايا

الرفاهية اهتماما ، الا فى عصرى الملكة فكتوريا (١٨٣٧ — ١٩٠١) والملك ادوارد ، عندما كانت انجلترا تتربع فوق قمة الرخاء الاقتصادى • ولقد كان البروفيسور بيجو Pigou أولى من أطلق تعبير « الرفاهية » الاقتصادية Economic Welfare قبل الحرب العالمية الأولى ، على ذلك الفرع الجديد من علم الاقتصاد • ان الأزدهار الكبير فى الأحوال الاقتصادية خلال النصف الاول من القرن العشرين ، هو الذى أعاد الديناميكية لفكرة التطور الاقتصادى فى شكل المناقشات ، والنظريات ، التى أثارها علماء الاقتصاد ، والتى وجدت صداها عند المؤرخين ، ومن هنا لا يمكن أن نفصل بين مفهوم التطور Development ومفهوم الرفاهية Welfare فى الاقتصاد• لأننا اذا فصلنا بينهما فلن نصل الى نتيجة مفيدة ، ونتوه فى حلقة مفرغة ، ومن ثم يتوجب على الباحث أن يتعامل معهما بقدر متساو من الأهتمام •

وعادة ينظر الى الفوائد التى تعود على الناس من التغير الاقتصادى فى شكل تحكمهم فى أسعار وكميات السلع ، وفى الخدمات العامة ، فبقدر تحكمهم أو عدم تحكمهم فى السلع ، تتحدد درجة استفادتهم ، أو خسارتهم من التغير الاقتصادى ، لكننا لو طبقنا هذا النوع من الحكم على المواقف التاريخية ، فأن ثمة صعوبة سوف تعترض طريقنا • اذ يحدث أحيانا أن يكون التغير الاقتصادى ، الذى تشهده الأمة مضطردا ، عبر فترات طويلة من الزمن ، تنعكس آثاره على الأمة كلها ، بما فى ذلك طرق الحياة اليومية ، والسلوكية ، عندئذ يصبح من الصعب علينا أن نبحث عن الفائدة ، التى جناها الناس من مثل ذلك التغير ، بالنسبة لمستوى معيشتهم [1] •

---

[1] لقد وضح البروفيسور آشتون T.S. Ashton وجهة نظره فى ذلك بضربه مثلا عمليا بقوله فى الحق — ليس فى امكاننا ان نقارن بين حاله الرفاهية عند مجموعتين مختلفتين من الناس يفصل بينهما الزمان والمكان ، لأنه لا يمكن ان نقارن اكتفاء الفرد بوجبة بسيطة تتكون من الخبز والجبن واللبن والجعة ، بوجبة اخرى تتكون من اللحم والبطاطس والخبز والشاى والحلوى انظر : —

« The Standard of Workers in England, 1790 — 1830, » Journal of Economic History, IX, 1949, P. 33.

وعند بحث مسألة مستوى المعيشة ، سوف نتعرض الى جانب حتمى فيها ، وهو أن يتوجب على المؤرخ أن يجيب بصـــورة مقنعة على بعض التساؤلات المطلوبة منه بخصوص هذا الجانب ، لأن من أهم مسئولياته فى البحث هو اعطاء معنى واضح • حول تأثير التغيرات الاقتصـــادية على الأنتاج ، وعلى مصادر الدخل المالى للأمم والشعوب ، وفى نفس الوقت عليه أيضا أن يبين عما اذا كانت ثرواتهم المتزايدة ، أو المتناقصة ، قد حققت لهم المستوى المعيشى الذى يتناسب مع متطلباتهم • فالتغيرات التى تطرأ من أن لآخر على المستوى الاجتماعى ، أو الدخل القومى ، ومدى توزيعه على الجماعات والطبقات والأفراد ، والتقلب المستمـــر للدخول ، بسبب ما قد يحدث للمحاصيل الزراعية ، أو لرءوس الأموال المستثمرة ، ولحاله السوق التجارية والمالية ، ومدى انعكاس ذلك على درجة الرفاهية لشعب معين ، يشـــكل جوهر القضايا ، والمشـــكلات ، التى تدور حولها نظريات الصالح الاقتصادى العام The Economic Good والرفاهية الاقتصـــادية Economic Welfare لأن هـــذه القضـــايا والمسألات تحتوى على بعض العـــوامل ، التى قد تتسبب فى تحـــريك المجتمعـــات من أعماقها من حين لآخر ، بالرغم أنها ليســـت الســـبب الأوحد للحروب والثورات •

وما سبق أن قلناه عن ضرورة تكاتف المؤرخ الاقتصادى مع عـــالم الأحصاء من أجل تشريح الظواهر المعقدة ، والمتعلقة بالدخول والأنتاج ؛

كذلك يمكن القول بأن استهلاك السلع ليس دليلا سليما على الرفاهية ، لكن فى امكاننا أن نتفق مع السير جون كلافام John Clapham ونستخدم نسبة المواليد والوفيات كأختبار للرخاء الاقتصادى ، وذلك لأن مستوى المعيشة ، ونسبة الوفيات ، ومعدل المواليد ، يسيران جنبا الى جنب ، وبالتالى يمكننا استخدام الترابط بينهما فى الكشف عن حقيقة التغير الاقتصادى .

ومن الدراسات الطريفه فى التاريخ القديم المحاولة التى قام بها هوبر لمعرفة متوسط العمر فى مصر خلال العصر الرومانى فى ضوء شواهد القبور التى تسجل أعمار الموتى فى جبانة كوم ابو بللو بمحافظة البحيرة إنظر :

F. A. Hooper, Data From Abu Bellou on the Length of life in Graeco-Roman Egypt. Chronique d'Egypte, Tome 31 (1956) PP. 332 — 430.

ومحاولة وضع قواعد راسخة لها ، تظهر أهميته فى هذا الخصوص . فبدون مساعدة التحليل ، والقياس ، والاحصاء ، والرسومات البيانية ، ســوف يصبح من العسير علينا أن ندرك ماذا فى استطاعتنا أن نعرف ، والى أى حد يمكن أن نعرف ، غير أن هناك مصادر أخرى نستقى منها المعلومات غير التحليل ، والقياس ، والاحصاء ، ولا تقل عنها فى الأهمية ، ومن ثم فعلى المؤرخ الاقتصادى أن يكون دائما مستعدا ، لإلتقــاط الجزئيات والشــذرات الخاصــة بتقنينات الشعوب ، من هنا وهناك ، خلال تجوله فى حقل البحث التاريخى ، وكما أن الالمام بأنواع المعادن ، وكيمياء التربة ، تساعد المؤرخ المهتم بالانتاج الزراعى ، والصناعى ، فان المؤرخ الباحث عن تأثير الاقتصاد على الشعوب ، قد يجد العون من خبرة طبيب ، أو قاضى ، أو باحث اجتماعى ، متمرس فى مهنته .

ان ما يمكن قوله عن الرخاء الاقتصادى يتعدى حدود البحث عن الدخول المالية ، لأن غالبية الناس تعتقد ، أن ما يدخل جيوبهم عن طريق الدخل ، لا يفوق فى الاهمية الظروف ، التى من خلالها حققوا أو أنفقوا ذلك الدخل ، فساعات العمل ، وظروفه ، والرعاية الاجتماعية ، قد تكون دلائل جيدة عن مدى تأثير التغير الاقتصادى على رفاهية الناس ، تماما مثل كميات ، ونوعيات الســلع التى يستهلكونها ، ومــن ثم فأن تأثير الاحداث الاقتصادية قد يكون كبيرا فى هذا المجال ، واذا ما وضعنا فى الحسبان كل التغييرات المحتملة مثل الأنتقال من الزراعة الى الصناعة ، فأن كل ما ينتج لن يزيد عن التحول فى العلاقات الصناعية وفى تنظيم المجتمع ، وبالنسبة لغالبية الناس فان التغــير الحقيقى بــكل معانيه سيتمثل فى بروز التنظيمات الجديدة للعلاقات الاجتماعية فى ظل الصناعة أو فى قيام حياة جديدة فى المدن وعواصم الأقاليم ، بدلا من الحياة فى القرى الزراعية ، وسوف يشغل ذلك بالهم بقدر لا يقل عن تفكيرهم فى الدخول الجديدة ، التى سوف يحققوها أو يفشــلون فى تحقيقها ، فى ظل الظروف الصناعية الجديدة .

ولهذا كله فأن تاريخ العلاقات الصناعية يعد من أهم أجزاء التاريخ

الاقتصادى ، وقد لفت الأنظار الى أهمية ذلك الفرع الجديد منذ اكثر من نصف قرن مضى بعض مؤسسى علم التاريخ الاقتصادى فى بريطانيا ، وعلى يدى بعض المفكرين ، الذين كان لهم نظرتهم المتميزة من أمثال وبيس Webbs وأشلى Ashley مما يعد اعترافا صريحا بضخامة التغيرات ، التى أحدثها التصنيع فى بريطانيا خلال القرن التاسع عشر . وكغير من فروع التاريخ الأخرى ، فهو يعتمد على الوثائق ، وكثير منها يوجد فى سجلات نقابات العمال ، والمؤسسات الصناعية . ان نوعية القضايا التى يعالجها هذا الفرع تفوق نظام المساومة على الاجور ، أو ساعات العمل ، أو الرعاية الاجتماعية للعمال ، لان العلاقات الصناعية تبعث فينا تساؤلا محيرا عن بواعث العمل ، والأسباب التى تدفع الناس الى اتباع نمط معين من الحياة والسلوك . هذه التساؤلات تتطلب منا أن نضع الفرد والجماعة تحت المجهر الدقيق ، اذا ما أردنا نفهم العلاقات الانسانية ، التى يشكل ملامحها النظم الاجتماعية والقوانين ، ولهذا فأن الموقف قد يتطلب من المؤرخ أن يكون — الى حد ما — عالما نفسانيا ، وعالما اجتماعيا ، بل ورجل قانون ، اذا ما أراد أن يتفهم الأفكار والعواطف التى تكمن وراء هذه العلاقات .

واذا كانت العلاقات الانسانية فى ظل الظروف الصناعية معقدة ، ومن الصعب فهمها ، فان التغيرات التى تحدث فى المجتمع الذى يتجه الى السير مع التغيرات الاقتصادية ، هى أشد صعوبة عند تفسيرها . اذ أنه من الصعب وصفها بالكلمات ، لأن الصفات والتغيرات المتعلقة بالكيف ، يصعب وصفها وليس لها سجلات ، لكن لا يعنى ذلك أن نضعها جانبا لنفسح المجال لاشياء أكثر سهولة ، مثل السلع الاقتصادية ، لانها تحمل قيمتها المالية ، ويسهل حسابها بالأرقام ، فالوظيفة الأساسية للتغير الاقتصادى فى التاريخ لا تكمن فى مستوى المعيشة فحسب ، بل فى التغيرات الجديدة التى تحدث والتى تطرأ على الحياة الانسانية والعلاقات الاجتماعية الجديدة .

وقد يعترض البعض قائلين بأن المؤرخ الاقتصادى ، الذى يعنى بدراسة ظاهرة الرخاء الاقتصادى ، لن يستطيع أن يكون حياديا ، أو موضوعيا ، لأنه عندما يتعامل مع نتائج التغير الاقتصادى بلغة الرخاء « والسعادة » « والرضا » ، وبلغة الحرية والكفاية والعدل وبلغة الخير والشر ، فسوف يجد نفسه وقد خرج من مجال التحليل الاقتصادى ، ليدخل فى مجال علم الأخلاق ، والفلسفة وعلم النفس الاجتماعى ، فما يرصده ويصفه ليس الا تغييرات فى القيم الاجتماعية ، وبالتالى فغالبا ما يجد المؤرخ نفسه ، وهو لا يدرى وقد تبنى وجهة نظر منحـــازة ، لجانب معين ، ويصبح موضوعه متورطا فى قضية الحكم على القيم الاجتماعية لكن هذه المشكلة تهون ، اذا ما نظرنا الى حجم المشكلات التى يواجهها المؤرخ السياسى ، أو الاجتماعى عنـــد محاولة وضـــع المؤسسات الدينية ، والدولة ، فى علاقة مع حياة الفرد ، وحركة المجتمع ومهمايكن من أمر فان التاريخ لا يمكن كتابتهفى غياب القيم الاجتماعية(١) واذا كان المؤرخ لا يستطيع الافلات من التعامل معها ، واصدار الحكم عليها والدخول فى دوامة الخلاف حول وضع تقييم لها ، الا أنه يستطيع على الاقل أن يعرف جذور القيم التى يتبناها لنفسه ، ويعود نفسه على التعامل مع مصادر منحازة ، ومتحيزة ، ويكافح من أجل وضع نفسه محل الناس الذين يبحث فى أمورهم . ان قمة انتصار الباحث هو أن يتفهم وجهة نظر الذين يختلف معهم فى الرأى ، وأن يكتب بصـــبر وبشغف ، ونفاذ بصيرة ، عن نوعيات مختلفة من المجتمعات ، بعيدة كل البعد عن المجتمع الذى يعيش فيه ، وأن المشقة التى يبذلها المؤرخ من أجل تفهم التاريخ ، تفوق مسألة البحث فى عما اذا كانت كل النظم الاقتصادية أو المجتمعات الانسانية متساوية من ناحية الخير والشر . فقد يتعرض المجتمع لمضايقات من جراء التنظيمات الاقتصادية ، كما يمكن لمجتمع معين أن يوجه تنظيماته الاقتصادية بعقلانية شديدة ، ونشطة ، وقادرة ، ولكن نحو أهداف شريرة ، تجر الويلات والدمار على الانسانية ، والمثل على ذلك واضح من التجربة النازية فى ألمانيا والفاشية

(1) Gordon Leff, History and Social Theory. London, 1969, P 18 ff.

فى ايطاليا • ان المؤرخ عندما يقرر أى المجتمعات كان عقلانيا وأيها كان خيرا أو شريرا ، لا يفعل ذلك انقيادا لعواطفه أو حواسه ، بل نتيجة لعملية شاقة وطويلة من البحث والاستقراء • وسوف يظل دائما ينشد الخبرة التى لن تكتمل لديه أبدا ، لكن كلما زاد وعيه فى هذا الجانب ، كلما أصبح أكثر رضاء عما يكتب •

هناك ارتباط — بلا شك — وثيق بين الرفاهية الاقتصادية والاوضاع السياسية فى الدولة ، لأن القوة الاقتصادية تقوم على القوة السياسية وليس العكس ، وهذا رأى الفيلسوف برتراند رسل ، الذى يخالف رأى الماديين ، الذى يرى أن الانتاج المادى لأى جماعة من الناس ، هو الذى يحدد مفهوم نظامهم السياسى ، والاجتماعى والثقافى ، وقد ثبت بطلان هذا الرأى ، لأنه لا يوجد نظام اقتصادى مستقر ومزدهر ، يقوم على نظام سياسى مفكك ومهلهل ، فالدولة المستقرة سياسيا ، يكون نظامها الاقتصادى مستقرا ، كما أن تحقيق الرفاهية والكفاية للفرد هدف من أهداف الدولة السياسية • والحكومة كجهاز أعلى للتشريع قد طوق التاريخ عنقها بمسئولية رعاية الجماهير اقتصاديا • وهى المسئولة عن بحث القرارات ، التى تختص بالبدائل الممكنة فى استخدام مصادرها الطبيعية ، لانها تؤثر فى رخاء هؤلاء الذين يتخذون القرارات بقدر ما تؤثر فيمن تطبق عليهم القرارات ، والحكومات تهتم بمثل هذه القرارات من أجل تنفيذ أهدافها ، وهو زيادة الدخل العام • فالدخل العام هو الذى يمثل قدرتها عى الانفاق فى المجالين التعميرى ، والحربى، خاصة اذا كانت الدولة متورطة فى صراع القوة ، الذى يسود عالمنا الذى غابت عنه شمس الحق والعدل ، وتتحكم فيه القوة العسكرية ، والاقتصادية ، ولهذا لا يستطيع المؤرخ أن يسقط الدولة من حسابه عند دراسة التاريخ الاقتصادى ، وخاصة فى عصرنا الحديث ، حيث تعاظم دور الدولة — كمؤسسة سياسية — بشكل واضح •

لكن يجب أن ندرك أن مفهوم الرفاهية الاقتصادية والتطور الاقتصادى يتخذ مفاهيم مختلفة فى العصور المختلفة ، وعند الشعوب

المختلفة (١) ، كما أن السياســة العامة فى مجــال النمو الاقتصــادى والرفاهية ، تتأثر عادة بأمور غير اقتصادية ، لكنها تلعب دورا كبيرا فى الاقتصاد السياسى ، بل أن دور السياسة أهم من ذلك ، فهى تمثل عند المؤرخين الاقتصاديين الجانب الثالث بعد الرفاهية الاقتصادية والتغير الاقتصادى .

ولقد ظهر تاريخ الاقتصاد السياسى فى أوربا مع قيام الدولة القومية منذ ثلاثة قرون — أو يزيد — قبل قيــام الثورة الفرنسية ولا تــزال الاجراءات التى اتخذتها هذه الدول فيما يختص بتعبئة مصادرها ، من أجل تحقيق الرخاء الاقتصادى لأبنائها سواء فى السلم أو فى الحرب ، من أكثر الموضوعات التى تثير الجدل بين المؤرخين . أيضا فان دراسة تأثير هذه السياسات والتصرفات وطبيعتها ، والاهتمامات التى تقبع من ورائها ، تلقى الآن دراسات مكثفة لتوضيحها ، وحل طلاسمها ، لكن العلاقة العامة بين السلطة السياسية والنشاطات الاقتصادية يمتد الى ما هو أبعد حدود الدولة القومية ، ومن حدود القارة التى تقع فيهــا الدولة .

ومع قدوم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ولدت مدرسة جديدة للفكر الاقتصادى (٢)، وكان ولادتها وكأنما هو انشطار للارتباط القديم الذى يربط بين السلطة السياسية والحياة الاقتصادية ، وكان ذلك نتيجة لثمار تعاليم الاقتصاديين الكلاسيكيين الانجليز وقبول النظرية الفرنسية القائلة « دعه يعمل .. دعه يمر Laissez Faire, Laissez Passer » ، ومهما كان تأثير ذلك التفكير الاقتصادى الجديد على السياسة العامة ، فقد حقق مكاسب كبرى فى حقل الفكر الاجتماعى كان من نتائجها الاعتراف بعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع كعلمين مستقلين عن العلوم السياسية ، ويعتبر سان ســيمون (١٧٦٠ — ١٨٢٥) من

(١) لاخذ فكرة عامة عن تغير المفاهيم الاقتصادية فى بريطانيا عــبر العصور بمفهوم ما هو مرغوب وما هو غير مرغوب ، وما هو مباح فى المجال الاقتصادى ارجع الى :
Sir William Holdsworth : History of English Law (1957).

(2) G.B. Cooch, History and Historians of the Nineteenth Century, London 1952, Passiw.

أهم الرواد الذين دعوا الى هذا التجديد(١)،وهومن ألمع المفكرين الفرنسيين الذين وضعوا فلسفة الثورة الفرنسية ، كما أن آراءه أحدثت تغييرا كبيرا فى الفكر التاريخى ، خاصة فى التوكيد على أهمية القوى الذاتية فى التطور الاجتماعى عند فهم التاريخ الاقتصادى ، وقد أدت هـــذه النظرية الجديدة الى وضع النشاط الاجتماعى ، الذى يقوم به الأفراد والجماعات لأول مرة تحت المجهر ، بعد أن كانت مهملة خلال العصور السابقة ، حيث كانت الدراسات التاريخية أسيرة لفكرة الدولة القومية وحدودهـــا •

وجدير بالذكر فان نظرية دعه يعمل •• دعه يمر • لم تكن تعنى أن الدولة قد نفضت يديها تماما من الاقتصاد ، ولم يعد لها أى التزامات أو اهتمامات فى الحقل الاقتصادى ، بعد أن تركته للأفراد وللجماعات العاملة ، انما كان مفهومها أن سلطة الدولة لا تتدخل الا عندما يفشل الأفراد والجماعات ، أو يضلون عند اتخاذ القرارات ، أو عقد الاتفاقات أو عندما يختلفون فيما بينهم ، أو عندما يتطلب الصالح العام ، أو أمن الدولة القومى عملا حاسما لا يمكن القيام به الا عن طريق الدولة • ثم أن فلسفة « دعه يعمل » نفسها جاءت للصالح العام ، وليس لمصلحة فرد أو جماعة ، فمن ورائها يقبع هدف محدد ، وواضح ، حول كيفية تحقيق المصلحة العامة للجماهير من خلال التطور الاقتصـــادى ، وتحقيـــق الرفاهية للمجتمع •

ومنذ ذلك الحين دارت عجلة السياسة دورة كاملة ، ففى بلدان الغرب (ناهيك عن بلدان أوروبا الشرقية التى يدار اقتصادها عن طريق تخطيط مركزى) ، أصبحت الدولة هى الحارس اليقظ ، والنشط على رعاية الاقتصاد ، وتحقيق الرفاهية للفرد ، والمجتمع ، بل تحولت الى مستثمر للأموال ، وداعية الى التجديد والتحديث ، وهذا أمر ما كان أحد يحلم به فى القرن التاسع عشر ، ومن ثم فان التحول فى الاحداث ، هو الذى يملى علينا وجوب أن يكتب التاريخ الاقتصادى للأمم بطريقة جديدة ، وكاملة ومستقلة ، •

(١) دكتور حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٨٢ •

غير أن هناك تعليلا هاما يفسر السبب فى ضرورة الربط بين التاريخ الاقتصادى والتاريخ السياسى ، هذا التعليل يكمن فى الطبيعة المتفجرة للعلاقة بين الوضع الاقتصادى والتغير الاجتماعى ، فالتغير الذى يهدد استقرار المجتمع ، قد يحدث بلا ريب فى أى جانب من الجوانب المتعددة فى حياة الانسان ، كما أن التغير الاقتصادى ليس هو المصدر الوحيد للتحول الاجتماعى ، لكن هنـــاك حقيقة لا يمـــكن انكارهـــا ، وهى أن التغيرات الاقتصادية الكبرى كانت وستظل دائما هى الباعث للصراع الاجتماعى ، والقضية الأساسية ليست على أى حال هى بحث عما اذا كان الصراع الاجتماعى هو الذى يتلو التغير الاقتصادى ، بل القضية هى كيف نتعامل مع ذلك الصراع • ففى أى تغير اقتصادى يحدث ، هناك فريق يكسب ، وفريق يخسر ، سواء فى المجال الاقتصادى ، أو المجال الاجتماعى • بل ان هناك فـــريق يكسب أكثر من غـــيره فى أى الحالات ، ويمكن لعملية المكسب أو الخسارة أن تحدث للرجل نفسه ، أو للمجتمع ذاته • والصراع قد يحدث بين الجماعات أو بين الأمـــم أو حتى بين الأفراد ، وهذا التنوع فى مصادر الصراع هو من أهـــم الأشياء وأخطرها ، لأنه يهدد أمن وسلامة الشخصية الانسانية ، ويجعلها قلقة غير مستقرة ، مما يجعلها بالتالى تهدد المجتمع • والمجتمعـــات غير المستقرة ، تهدد بدورها الشخصية الفردية ، وتجعلهـــا متنافرة مـــع مثيلاتها فى المجتمع ، بل أن مجتمعا غير مستقر قد يهدد ما حـــوله من مجتمعات • وتنتقل العدوى بسرعة لتصبح وباء دوليا ، كما حـــدث فى الحربين العالميتين الأولى ، والثانية ، مما يسبب الحـــروب الدامية ، والذعر الاقتصادى •

ان قرار الصراع قرار حتمى ، وضرورى للدولة ، لأنه وســـيلة ضرورية ، ينمو عن طريقها الافراد والجماعات ، وعن طريقها يكونون شخصياتهم التى نراهم عليها ، كما أن الصراع أو مواجهة الصراع يملى على الدولة البحث عن حلول للمسألات القائمة بالطرق والوسائل المختلفة ، والى حد ما فى امكان أغلب الصراعات والتغيرات ـــ سواء كانت فردية أو جماعية ـــ أن تتعامل وتتوافق مع نفسها ، وفى مفهوم أعمق ، فان

مهمة توافق الطبيعة الانسانية مع ذاتها ومع العالم الذى تعيش فيه ؛ تقع فى المدى الطويل على عاتق الدين والفن ، لانهما يقدران على مدها بقرارات هامة ، تحدث توترات كبرى ، وعبر الأحداث التاريخية ، أتاح الدين والفن للقوى البشرية القدرة لتستجمع طاقاتها ثم تعيد اطلاقها من جديد بروح جديدة ، قادرة على بناء نظام اجتماعى جديد ، حتى ولو كان من حطام المجتمعات العتيقة • وخلاصة القول فان دور الدولة بالنسبة للتاريخ الاقتصادى يتمثل فى أنه يقع على عاتقها حل كثير من الصراعات الاجتماعية على المدى القصير •

انه لمن الصعب دائما أن نضع تحديدا نهائيا للدولة والسياسة العامة فى تاريخ التطور الاقتصادى والرفاهية الاقتصادية • ويرجع ذاك من ناحية الى أن السياسة الاقتصادية معرضة دائما للوقوع فى أخطاء كبيرة فى حساباتها ، وفى تحديد النسب الصحيحة للكم فى المقادير • ومن ناحية ثانية نتيجة لتداخل القيم فى المواقف التى يستلزم الامر التعامل معها • فالقضايا السياسية العامة فى الاقتصاد مثل كل المسائل المتعلقة بتوزيع المصادر — تتفاوت موضوعاتها فى الأهمية • كما أن التحديد القاطع « للكم » قد يكون أمرا جاسما فى تطوير اقتصاد الأمة فضلا على أنها فى جوهرها تشكل قضايا ذات اهتمام جماهيرى عام • ولهذا يتوجب التوفيق بين مواضيع الخلافات داخل اطار سياسى عام كما يتوجب دفع ثمن التوفيق وايجاد الحلول من آن لآخر ، والتساؤل النموذجى فى السياسة العامة فى الاقتصاد يدور حول السؤال التالى : كم من المصادر المتاحة يمكن أن تخصص لهذا الغرض أو ذاك ؟ وما هو الهدف الاجتماعى منها ؟ وما هى القيمة التاريخية ؟ وعلى من تعود الفائدة بعد تقديم العون الاقتصادى لها ؟ ان البحث عن اجابات لهذه التساؤلات التى تشكل جوهر الاقتصاد السياسى تبين بوضوح أنها لا تختص « بالكم » ولا بنظرية علمية مجردة ، انما تطرح على بساط المناقشة موضوعات ذات طبيعة سياسية ، وفلسفة اجتماعية ، اذ يتوجب على المؤرخ أن ينظر الى السياسة الاقتصادية فى المقام الأول كوسيلة

تقود الى هدف معين محدد ، وأن يحكم عليها في ضوء تأثيراتها الاقتصادية الناتجة من تقسيم المصادر بين الأهداف المختلفة ، وألا يهمل تماما وجود وسائل أخرى ، وأهدافا أخرى ، يمكن أن يكون لها دور فعال .

ان تاريخ السياسة الاقتصادية — كجزء من السياسة العامة — يواجه تساؤلات تتشابه فى قدمها وفى صعوبتها التساؤل حول المفهوم العام لاصطلاح « الصالح العام » Public Interest ، ومهما اتخذت هذه التساؤلات والاجابات المطروحة لها الصيغ الاحصائية والتقنينية، لكنها تبقى فى الواقع قائمة فى صيغة سؤال يقابلنا عند قراءة أعمال ماكيافيللى Machiavelli — أول من تطرق لفكرة « الصالح العام » فى العصر الحديث — هذا السؤال هو كم قدر من الأذى يتوجب تحمله من أجل تحقيق قدر معين من الخير العام ؟ ان الخير أو الشر لا يمكن أن يتواجد أحدهما فى عالمنا الحالى بدون الآخر . لقد كان فى استطاعة ماكيافيللى أن يجيب على هذا التساؤل بلهجة الرجل الواثق من نفسه ، والذى يعرف تماما ماذا يريد ، والذى يكاد عنده الحس التاريخى ينعدم ، أما المؤرخ فلا يستطيع الاجابة عليه بسهولة ؛ لأنه يرى على مدى التاريخ عناصر خير وعناصر شر تظهر فى كل عصر ولأنه يدرك بحسه أن الخير والشر نسبيان بالنسبة لظروف كل عصر ومجتمع .

ان التغير الاقتصادى وما يتصل به من سياسة عامة ، يبرز — بشكل حاد — التساؤل حول القيم العامة . فالوسائل الحديثة قد تؤثر جذريا فى الأهداف التى يقبلها المجتمع ، كما أن التحولات التى تحدث فى هذه الأهداف ، قد تؤدى الى ثورة فى توزيع المصادر . ففى القرن التاسع عشر عندما كان الاهتمام بالاقتصاد السياسى واقعا تحت تأثير التصنيع وثورة التوقعات expectations ، برزت أفكار جديدة خاصة بالصالح العام ، مصدرها قضايا من هذا النوع ، ومن ثم يتضح لنا مهما بلغت الأبحاث درجة عالية من الدقة فى التفاصيل ، الا

أنها تقف عاجزة عن التغلب على كل المعضلات ، التى تنشأ خلال عماية التقصى فى حقل السياسة الاقتصادية •

ان المؤرخ السياسى هو باحث فى حقلى « الكم » الخاص بالوضع التاريخى ، وفى قيم الناس الاجتماعية ، التى هى أيضا حقائق تاريخية، كما أنه لا يحرم من حق التعبير عن القيم ، والآراء الخاصة به ، فللمؤرخ ضمير مثل باقى الناس ، كما أنه يوجه كلامه الى الجمهور ، سواء كانوا مثقفين ، أو من الرعاع ، ولكل فريق رأيه وقيمه • ومهما كان الأمـــر فان ذلك النوع الصعب وغير الحاسم من التاريخ لا يمكن الاستغناء عنه ، فمن الامور ما يمكن أن يكون أكثر ضرورة للمجتمع من التحليل الذاتى للتاريخ ، الذى يبحث عن المصادر التى تجىء منها الأفكـــار الاقتصادية ، والقيم الاجتماعية الخاصة بانسان معين ، والذى يصدر أحكامه حول صحة الأحداث أو عدم صحتها ، وما هو حقيقى وما هو مزور ، ان أهمية ذلك الجانب من التاريخ لا تقبع فى يقينيتها ، لانها دائما غير يقينية ، بل تقبع فى ضرورة تعاون المؤرخ مع المتخصصين فى الفروع الاخرى ، من أجل اعادة فحص الاسس ، التى يقيم عليها افتراضاته من حين لآخـــر •

ما سبق قوله يوضح باختصار الثالوث الذى يحدد مبادىء منهج البحث التاريخى ، والذى يتكون من ثلاثة عناصر متقاربة هى (أ) الوصف المباشر للمادة التاريخية (ب) السرد التاريخى للأحداث (ج) التقييم العام • غير أن المؤرخ الاقتصادى وهو يتناول الجانب المادى فى الطبيعة الانسانية ، سوف يجد نفسه على اتصال مباشر بأشد القوى وضوحا وعقلانية فى الأحداث التاريخية ، ألا وهى الاحصائيات والجـــداول الرياضية التى يتعامل معها بشغف شديد خاصة عندما يعالج التاريخ الاقتصادى ، أو الدوافع الاقتصادية للحروب ، وبالتالى فان مناهجه فى التقصى ، وموضوعه البحثى ، يمكن مقارنتها الى حد ما بمثيلاتهـــا التى يتبعها الباحث فى العلوم ، والذى يقيس ويفسر ظواهر الطبيعة بطريقة لا تعرف العواطف أو التحيز ، لكن فى نفس الوقت على المؤرخ

الاقتصادى ألا يبالغ فى تطبيق الرياضيات ، خاصة عند دراسة مخلوقات لها تصميم وارادة وعواطف مثل بنى البشر •

ولنتساءل عن المنهج الذى يتوجب على المؤرخ الاقتصادى اتباعه فى طريقة الكتابة التاريخية ، لأن كتابة التاريخ ليست ببساطة كما يتصور البعض مسألة توصيل معلومات ميته للناس بطريقه ميته ، ولكنمناسبة، لكنها جزء من المهمة الشاقة والعسيرة لتفسير ، واعادة تصوير المواقف التاريخية بطريقة حية ، ولكى ينجح فى ذلك لابد له أن يختار بحرص صيغ الجمل ، والكلمات ، التى يوصل بها وجهة نظره عن الماضى الى الناس فى الحاضر ، وللناس أيضا وجهة نظرهم الخاصة عن الماضى : والتى يحاول المؤرخ تغييرها ، أو طردها ليضـــع مكانها وجهة نظره ، والمؤرخ الناجح هو الذى يجعل تفسيره الخاص مقبولا ، حتى يصبح جزءا من الفكر التاريخى العام • وانطلاقا من ذلك المفهوم نتساءل ما هى العلاقة بين صيغ التخاطب ، التى يتوجب على المؤرخ الاقتصادى اتباعها ، وبين طابع السرد الكلاسيكى للتاريخ ؟ وهل هناك مكان للسرد فى التاريخ الاقتصادى ؟ وهل ينبغى على المؤرخ الاقتصادى أن يقوم بتبنى مذهب معين عند تحليله للمواقف التاريخية ؟ وما هو النموذج الامثل لذلك التحليل ؟ أم أن عليه أن يكتب جانبا فقط من السرد التاريخى، بينما يتولى المؤرخ السياسى كتابة الجانب الآخر ؟ ان المشاكل الأدبية لكتابة التاريخ الاقتصادى تستحق اهتماما يفوق ما لقيته حتى الآن ، لأنها تتصل مباشرة بالمنهج الذى يتبعه المؤرخ للوصول الى هدفه ، كما تتوقف على المستوى الثقافى والفكرى للذين يقرأون لذلك المؤرخ •

ان الاجابة على النقطة الأولى من التساؤلات السابقة تلزمنا أن نستعرض بايجاز ما سبق قوله عن العلاقة بين التاريخ العام والتاريخ الاقتصادى ، بادئين بتوضيح الفرق بين التاريخ العام والتاريخ الدولى أو الأممى حتى نتجنب الخلط بينهما • فالتاريخ العام هو التاريـــخ الشامل المتكامل Integral ، لأنه يتعامل مع المجتمع الذى يدرسه بطريقة شاملة متكاملة من كل الجوانب والزوايا ، بينا التاريخ الدولى

أو الأممى فهو ــ كما يفترض هو سجل لكل مجتمعات عالم الانسان ، وكتابة التاريخ الدولى أو العالمى يستلزم علينا تخطى صعوبات جمة ، فبالرغم من أن تواريخ الشعوب المختلفة تشمل جانبا عالميا ، وهى جزء من تاريخ العالم ، الا أنها تدرس بطريقة منعزلة عن الشمول العالمى ، أما اذا توفرت المعرفة بالخبرات والتجارب والقيم المشتركة بين هذه المجتمعات فانه يمكن التغلب على الخلافات العازلة مهما بلغ عمقها ، وكتابة التاريخ بشكل عالمى • لقد اعتقد فون رانكه ــ المؤرخ الالمانى الكبير ــ فى القرن الماضى بأنه قادر على كتابة تواريخ الأمم والمجتمعات، التى تشكل دائرة الحضارة الأوربية بطريقة عالمية ، لكن ما كتبه لم يزد عن مجمل للتواريخ القومية لهذه الشعوب • ان طريقة فون رانكة لا تتناسب مع تعقيدات وتداخلات الأحداث فى عالمنا المعاصر • ان كتابة التاريخ من زاوية عالمية ، هى آخر ثمرة لعملية طويلة ، يقوم بها المؤرخ • وما دام التاريخ يبدأ بكفاح البشر من أجل فهم المجتمع الذى ينتمون اليه• وما دامت مجهودات المؤرخ قد تبدأ أحيانا بمواجهة رجال لهم تقاليد ومن مستويات مختلفة ، فاننا نأمل أن تنهض كتابة التاريخ العالمى مرة أخرى فى عصرنا الحالى وتتغلب على الصعوبات ، وتتخطى العوائق والانقسامات •

ان المؤرخ الاقتصادى يحتاج الى قدر كبير من معرفة التاريخ العالمى لكى يحقق أهدافه ، لأن عملية مقابلة الدول بالدول التى تقوم عليها دراسة التاريخ العالمى ، هى الى حد كبير عملية اقتصادية ، كما أن دراسة التطور الاقتصادى لأمة ما يستلزم دراسة التاريخ الاقتصادى للشعوب الاخرى ، لكى تصبح الدراسة مستوعبة استيعابا كاملا ، وليس ذلك من أجل تتبع انتشار النظم الاقتصادية فى بلدان بعيدة عن موطنها الأصلى ، بل لأن نمو أو تدهور اقتصاد بلد ما عادة يكون له علاقة من قريب أو بعيد بما يحدث لاقتصاد البلدان الأخرى ، كما لا يوجد لرأس المال وطن ، خاصة فى عصرنا الحاضر ، والعالم من ناحية الواقع وحدة

اقتصادية يكمل بعضه بعضا ، واذا تعرض اقتصاد جزء منه تأثرت اقتصاديات الأجزاء الأخرى •

صحيح أن المنظر الاقتصادى theorist يحتاج من وقت لآخر للبحث عن مجتمع منغلق على نفسه اقتصاديا ، وليس له تجارة خارجية، ولا يتعرض لحركة هجرة الأيدى العاملة فيه ، أو له رصيد مالى دولى لكنه نادرا ما يجد مثل هذا المجتمع النادر الوجود ، حتى عندما يدرس حالة مجتمع بدائى يتعامل أفراده بنظام المقايضة ، وكل همهم أن تكفى مصادرهم حاجاتهم الاستهلاكية ، وتدفعهم طبيعتهم الانسانية الى التجول ، لأنه سوف يكتشف أن اقتصاد هذا المجتمع البدائى له علاقة باقتصاد شعوب أخرى مجاورة ، فطرق القوافل ، وتوقيت هبوب الرياح، التى تهب على البحار ، وحدت المصائر الاقتصادية لشعوب كثيرة ، نشأت فى معزل عن بعضها البعض ، هذا فى العصور القديمة ، أما فى عالمنا الحديث حيث قرب الابتكارات العلمية فى طرق الاتصال والمواصلات بين أجزائه المتباعدة بشكل مثير ، نرى تبادل الافكار ، والسلوك ، والسلع ، والاذواق والثقافات ، والصناعات ، والتكنولوجيا ، قائما على قدم وساق ، ومن ثم أصبحت العلاقات الاقتصادية شديدة الارتباط بين بعض أجزاء العالم المختلفة ، وبدون الحاجة الى البحث عن أمثلة لذلك نجدها قائمة فى النظم الاقتصادية للمدن الايطالية والالمانية فى العصور الوسطى ، وفى أقطار الشرق الاسلامى المعاصرة لها ، أو فى تجارة هولندا فى القرن السابع عشر أما النموذج الواضح فنجده فى انجلترا فى القرن الثامن عشر ، عندما بدأت خطواتها الاولى فى الطريق المؤدى الى الاقتصاد الصناعى وانعكاسات ذلك على اقتصاديات البلاد الأخرى ، التى كانت على علاقة وثيقة بها • وربما يتساءل الباحث ولماذا قامت الثورة الصناعية فى بريطانيا دون غيرها من بلاد العالم الأخرى ؟ وهل يمكن فهم التطور الصناعى فى بريطانيا دون الرجوع الى منطقة المجال التجارى الشامل ، والتى كانت الجزر البريطانية تشكل الجزء النشط فيها ؟ هذه أسئلة قد يكون الاجابة

عليها شبه مستحيلة ، لكنها جديرة أن توضع فى الاعتبار (١) لأنها هى التى تكون أهم أجزاء دراسة التاريخ الاقتصادى ، ليس فى بريطانيا فقط بل فى الولايات المتحدة ، واستراليا وأفريقيا الاستوائية ، والهند ، والعالم العربى ، وسائر البلدان الأخرى التى تداخلت اقتصادياتها فى القرن الثامن عشر لاول مرة فى ترابط يمكن أن نسميه بالاقتصاد العالمى •

ان المسائل التى تتعلق بالعلاقات الاقتصادية ، لا تؤثر فى متغيرات العالم على المدى الطويل فحسب ، بل أيضا تؤثر فيها فى المدى القصير ، والمؤرخ الاقتصادى فى حاجة الى الالمام بالتاريخ العالمى لكى يمسك بالخيوط العامة ، ويتتبع توالى الاحداث التى يصفها ، وهو لا يحتاج لدراستها بشكل أفقى وسطحى ، بل يحتاج لدراستها فى شكل رأسى متعمق ، فالعلاقات التى يدرسها تعود الى زمن سابق ، بل أن بعضها ضارب فى القدم ، فالذى يدرس اقتصاد بريطانيا هو دارس للتاريخ الاقتصادى الأوروبى ككل ، بل أحيانا يتعدى مجاله القارة الاوربية الى بلدان ما وراء البحار • أما بالنسبة لحاجته لمعرفة التاريخ العام ، أو التاريخ الشامل للبلد الذى يدرسه فتختلف عن حاجته لمعرفة التاريخ العالمى • فمن زاوية التاريخ الاقتصادى ما يطلبه المؤرخ من دراسة التاريخ العالمى هو دراسة العلاقات الاقتصادية بين الأمم ، بكل امتدادها فى المساحة والزمن ، وما يطلبه من دراسة التاريخ القومى الشامل ، فهو فحص العلاقات الاقتصادية من الجوانب التى تتصل بالمجتمع وعلاقته ، وكما سبق القول فأن التاريخ الأقتصادى يشكل نوعية محددة من الأحداث مصدرها الخيارات الاقتصادية ، التى يواجهها الناس كل يوم من أجل جعل مصادرهم توجه نحو غاياتهم ، وأن القرارات التى يتخذونها فى هذا الموضوع هى قرارات ذات طبيعة اقتصادية تتطلب من المؤرخ الألمام بالاوضاع الاقتصادية الماما جيدا ، وبالتالى فأن ما يكتبه سوف

للمزيد عن النقاش حول هنا الموضوع انظر :

(1) K. Berrill, «International Trade and the Rate of Economic Growth, Economic History Review, April 1960.

يكون أقرب الى الاقتصاد السياسى ، الذى يضع فى اعتباره أمـورا أخرى الى جانب الاقتصاديات ، ولا يتقيد تقيدا صارما بتفسـيرات ونظريات مدارس الفـكر الاقتصادى المختلفة بالرغم من أهميتها (١) .

كذلك يرى البعض أن المؤرخ الاقتصـادى لن يتفهـم الخيارات الاقتصادية ، ما لم يدرس النشاطات والصفات الاخرى للشعـوب التى يدرسها ، ولهذا فهو فى حاجة لأن يـكون على معـرفة جيـدة بقيمها الأجتماعية ، لان هذه الشعوب تتخذ عادة قراراتها الاقتصادية من أجل خدمة وتدعيم هذه القيم ، وبدون معرفتها فسوف يعجز أن يتفهم لماذا وكيف اتخذوا هذه الخطوات ، سـواء بمقاييسه أو بمقاييسهم ، وفى النهاية سـوف يتضح له أن أهدافهم ومصادرهم قـد تأثرت بشـدة بفعل الدولـة .

يتضح مما سبق أن هناك نوعين معينين من النشاط غير الاقتصادى يظهران كجزء لا يتجزأ من البحث التاريخى ، وهما البحث عما كان الناس يؤمنون به بأنه النموذج الأمثل للحياة ، والذى اليه يسـعون لتحقيقه خلال صراعهم اليومى ، أما النشاط الثانى فهو الصراع السياسى من أجل الوصول الى السلطة والحكم ، ومن ثم فان نشـاط الانسـان الاقتصادى هو واحد من نشاطاته الاجتماعية العديدة ، وأن وظيفة المجتمع الاقتصادية هى واحدة بين وظائف عديدة يقوم بها المجتمع من أجل أن يحيا ويتماسك ، كما أن استخدام المصادر المادية بأفضـل الطرق هو من أجل هذه الوظائف غير الاقتصادية ، ومن أجل التماسك الأجتماعى،وليس من أجل المصادر لذات المصادر.ان السلوك الاقتصادى هو من أجل الأحياء ، وليس من أجل الأموات ، وعلى عاتق كل عـالم

---

(١) لقد وضح الباحث الأمريكى تايلور الفرق بين علم الاقتصاد وبين الاقتصاد السياسى توضيحا ممتازا فى كتابه :

O. H. Taylor : Economics and Liberalism : Collected Papers, Harvard University Press (1955).

خاصة ص ٢٢٥ التى يصر فيها على الدور الذى يتوجب فيه الحـكم على القيمة بالنسبة للحكم على الاقتصاد .

اقتصاد تقع مسئولية البحث عن النشاطات الاجتماعية الكــامنة وراء الاقتصــاد •

ولو تركنا هذا الجانب لننظر فى موضوع العلاقة بين أهداف المجتمع وبين الوسائل المؤدية اليها ؟ أو بمعنى أخر الى أى حد تقرر الوسائل مصير الأهداف ، أو تقرر الأهداف مصير الوسائل ؟ والى أى حد تحقق النظم الاجتماعية — التى تحتوى فى ذاتها جانبا من العــلاقات بــين الوسائل والأهداف — لنفسها وجودا مستقلا يجعل منها العامل الأقوى بل والاداة التى توضع فى خدمة المجتمع ؟

لقد أدت مثل هذه التساؤلات المحيرة الى مولد الفلسفات التاريخية الكبرى ، والتى برزت تحت ضغط ظروف وأحوال غير عادية ، وذلك عن طريق محاولة شجاعة لمراقبة تدفق الأحداث ثم استخراج مسار مبسط لها ، ففى قرن برز ماكيافيللى ، وفى قرن آخر ظهر كارل ماركس ، وكلاهما قدم لنا النماذج المثلى لخلاصة التاريخ والمجتمع •

وبالنسبة للأول ، نجد أنفسنا بعد قراءة كتابة « الامير » ، وقد تملكنا احساس مثير بأن الاهمية الاولى فى حياة الامة هى السلطة السياسية ، والصراع الذى يدور حولها • أما الثانى فعند قراءة مؤلفه نصبح مقتنعين بأن الوضع الاقتصادى هو الذى يحدد صورة المجتمع ، ودرجة حضارته وثقافته ، وأن الأنتاج ، ونوعه ، وأساليبة ، هو أساس النظام الأقتصادى ، وأن الأنتاج لا يظل على حال واحد ، بل دائم التغير ، ومن هذا التغير تتولد الجــوانب المختلفة فى المجتمــع ، سواء الفكريــة ، أو الفنية ، أو العقائدية • ولا أحــد يشك فى عبقرية ماكيافيللى ، ولا عبقرية كارل ماركس ، حتى أننا نحتاج الى مجهود عقلى كبير ومركز لكى ندرك أن مثل هذه النظريات ، وخلاصات التجارب ، بعيدة كل البعد عن الحقيقة الخالصة ، وأن لكل نظرية ، نظرية مضادة فى نفس العصر الذى تظهر فيه ، ولكل رأى آخر معارض ، وللأسف نلحظ أن الوجه الاخر للاراء المعارضة لنظريــة ماكيافيللى ، ونظريــة كارل ماركس لم تســجل فى شــكل نظــريات موازنــة ، لقــد كانت ايطاليــا فى عصــر النهضـــة

مسرحا لانشطة كثيرة الى الجانب النشاط السياسى ، وفى بريطانيا القرن التاسع عشر حيث عاش كارل ماركس ، وألف كتبه كان هناك كثير من العمال ، — من الرجال ، والنساء ، الذين رفضوا مقدماته المنطقية ؛ وتمسكوا بشدة بآرائهم ، التى كانت تقف على النقيض تماما من آراء ماركس ، وكان من المفروض أن تلقى آراءهم كل تقدير ، واحترام لأنها تعكس تجربتهم الذاتية ، بالرغم من ذلك فان دراسات التاريخ الاقتصادى فى بريطانيا طوال نصف القرن الماضى مدينة الى حد كبير للمناقشات العامة ، التى أثارتها النظرية الماركسية والمثل على ذلك نجده فى كتابات ماكس وبر Max Weber الشهيرة ، والتى نشرت فى ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ، والتى تعرضت لموضوع جدل مشهور ، وهو هل البروستانتية حقا هى أم الرأسمالية ؟ والتى صححت الاعتقاد الذى ساد فى بعض الاحيان بأن الرأسمالية خرجت من رحم البروستانتية ، وبينت أن هناك عنصرا واضحا ومميزا فى الرأسمالية الأوروبية ، لا يمكن فهمه أو تفسيره الا عن طريق وجـود عامـل أخلاقى تتبع أصوله من البروستانتية ، لكن ليست البروستانتية هى المسئولة مسئولية مباشرة عن ظهور الرأسمالية ، ولقد أصبحت هذه النظرية محل جدل بين المؤرخين خاصة بعد ظور كتاب د. هو تاونى Tawny « العقيدة الدينية وظهورر الرأسمالية Religion and thc Rise of Capitalism » وذلك فى عام ١٩٢٦ .

ان مؤرخى وفلاسفة عصرنا الحديث بدأوا ينظرون بعين الشـك الى هذه النظريات التفسيرية ، والرصد الشامل لحركة التاريخ ، وذلك على النقيض من القرن التاسع عشر الذى أخرج فلسفة هيجل المثالية ، والنظرية المادية لكارل ماركس ، لقد كان عصرا متيما بتفسير واستخراج خلاصة التجربة البشرية فى هـذا الكون ، أما رفض مؤرخى وفلاسفة العصر الحديث الاقرار بتلك النظريات العامة ، والنظر اليها بعين الشك ، فهو

---

(١) لقد ترجمت مقالات وبر الي الانجليزية فى الكتاب التالى : —
Talcot Parsons (translator) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, London 1930.

نتيجة للمتغيرات العصرية التى طرأت ، حيث بدت آفاق جديدة تظهــر فى ذلك العالم المتغير ، أما بالنسبة لموقف المؤرخين من العلاقة بين النشاط الاقتصادى ، والوظائف الاخرى فى المجتمع ، فأنهم يرون — واهم العذر فى ذلك — أن لديهم الاسس التى تقوم عليها شكوكهم حول التفسيرات الشاملة لحركة التاريخ العام ، وانعكاسات ذلك على المجتمع • فقــد استنتجوا من ملاحظاتهم ، أن العوامل المحركة والمؤثرة فى مسار التاريخ تتراوح فى قوتها ، وفى نظام علاقاتها على مر العصور المختلفة ، وأن محاولات فلاسفة التاريخ فى التخفيف من حدة هذه الاختلافات من أجل خلق مسار متناسق بين هذه المتغيرات ، لن يساعد على تفهم التاريخ ، بل على العكس ، سيجعله صعبا ومعقدا ، وعلى ذلك فالمؤرخون يفضلون تفسير المواقف التاريخية حسب ظروف الاحداث التى واكبتها ، وبمعنى آخر تفصيل التفسير حسب مقاسات الأحداث ، وكل على حدة • ان ادراك المؤرخ بأن حقيقة كل موقف تاريخى يتوجب البحث عنه فى الموقف ذاته أولا وقبل كل شىء ، وبأن النظريات والفلسفات والتفسيرات العامة لحركة التاريخ قد تقودنا الى متاهات ، وبعيدا عن حقيقة المواقف التاريخية التى نتعامل معها ، كما أنها قد تقودنا اليها أحيانا ، هو أمر واضح يتوجب التمسك به • ولهذا كله يفضل المؤرخون توجيه النقد لهــذه النظريات والتفسيرات ، وعدم الاعتماد عليها كلية ، لكنهم فى نفس الوقت لا يمانعون فى الاستفادة منها ، والرجوع الى تفسيراتها ، اذا لزم الأمر • ولقد كان الاتجاه الفكرى العام فى أوربا ابان مطلع القرن العشرين هو هــدم الاعتقاد المطلق بهذه التفسيرات التى تسعى الى بناء نظام تاريخى متسلسل على حساب الحقيقه التاريخية ذاتها ، كما طالبت المؤرخين أن يحذروا الوقوع فى شراكها ، ومن مغبة فرض تفسيراتها على الحقيقة بأى شكل ، كالمحقق الذى يرجع واقعة متغيرة الى نصوص قانون ثابت ، انما يجوز ارجاع بعض الحقائق الى بعض هذه التفسيرات اذا اتفقت معها ، وكلما تأمل الناس فى هذه الفلسفات ، كلما وجدوها مخيبة للآمال ، ومربكة للتفكير لأقصى حد ، فقد شاهدوا الكثير من الدماء تسفك ، والجرائم

البشعة ترتكب ، دفاعا عن بعض الفلسفات التى ينتسب اليها المتطرفون ، كما أدرك المؤرخون أن من أكبر الأخطاء أن نجعل النظرية بديلا للحياة العملية ، وأن نجعل الافتراض بديلا للحقيقة التاريخية ، وأن نقيدتفكيرنا بقيودها وتفسير تصرفاتها طبقا لها • ومن خلال ذلك المناخ الرافض نمت كل مذاهب الشك سواء التشاؤمى أو التهكمى Cynicism ، كـــرد فعل لا مفـــر منه لزيف وبهتان أفكار العصر الحديث ، المليئة بالآراء والعقائد الدموية ،التى تدعو للعنف ، والتصفية ، والارهاب ، والقمع ، بأسم النظرية • وقد بقيت آخر هذه الفلسفات ، وهى الماركسية تقحم نفسها لتملأ الفراغ الفكرى الذى تخلف عن موت العقائد ، والانماط الفكرية ذات الطابع التقليدى للمجتمع ، لكن الماركسية ذاتها تكاد أن تصبح فى ذمة التاريخ ، وراسبة من رواسب الماضى العتيق ، فى عالم تغيرت ظروفه ومفاهيمة عن ظروف ومفاهيم القرن التاسع عشر (١) •

وفى ضوء ما تقدم ماذا يمكـــن أن يقـــال عن العلاقـــة بين المؤرخ الاقتصادى والمؤرخ العام ؟ ان دراسة التاريخ الاقتصادى تتطلب أن يكون الباحث فيها على اتصال بالتاريخ الدولى من منظور معين ، وأن يكون ملما بدقائق وخصائص المجتمع ، الذى يدرسة من منظور آخر ، وينبغى عليه فى نفس الوقت أن يتشكك فى كل ما يقدم اليه من تفسيرات حتى تلك التى تصدر على الفاسفات والنظريات ، وأن يحكم على كل موقف من واقعه وظروفه • ولقد طرأ تغير كبير على مفهوم التعبيرات الفلسفية المتعلقة بتفسير مسار التاريخ ، والتى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر ، وبدأت مفاهيم جديدة تطل علينا مع قدوم القرن العشرين والواحد والعشرين ، وتزداد قوة فى مواجهة مفاهيم القرن التاسع عشر ، ذلك القرن الذى شهد ذروة الجدل التاريخى ، وازدهار العلوم الطبيعية والانسانية ، ومولد الفلسفات التاريخية الكبرى • لكن هل على المؤرخ الاقتصادى أن يهمل هذه الفلسفات والتأملات ؟ وأن يحجم عن استخدامها فى البحث عن مسببات الاحداث ؟ وأن يقنع راضيا بقياس الاحـــداث

---

(١) براتراند رسل آمال جديدة فى عالم متغير ص ١٢٠ •

التاريخية بمعايير أقل عمقا حتى وان كانت هذه الأحداث تتطلب مستوى رفيع من البراعة لكى نحللها ؟ • ان عملية بناء الجدل عن طريق القياس التمثيلى analogy من أحداث سابقة أمر خطــر وغير مضمون ، لكنه ربما يمدنا بمفتاح الحل ، لحركة الاحــداث العامة فى المجتمعات الاخرى ، أو العصور الأخرى ، سواء فى الحقل الأقتصادى أو فى حقل التاريخ الاقتصادى ، كما كان أيام آدم سميث ، أو فى حقل الفلسفة الأخلاقية ، فقد شغل الفلاسفة الأخلاقيون أنفسهم كثيرا وطويلا بوضع النظريات التى تبحث فى قضية « الكيف » ، مثل كيف يتخذ الناس قراراتهم الأخلاقية ؟ وما هى القرارات التى يميلون الى اتخاذها ؟ كما أن الدراسات المتطورة فى حقل الفلسفة الأخلاقية سوف تتعرض لقضية « الأختيار » ، والقرارات التى يتخذها الانسان ، ومناقشة ما قد يهم الناس من ايجاد التبريرات ، من أجل اتخاذ قرار معين [١] •

هــذه أشياء مفيــدة للمؤرخ الاقتصــادى ، بالرغــم من كـــل ما يقال من أن الفلسفة الأخلاقية صعبة ، وتمثل عبئا ثقيلا علينا • فالبرغم من وجود العقبات والمضايقات عند تفسير السلوك الفعلى للانسان ، الا أن هناك تشابها كبيرا بين منهج العمل عند الفلاسفة الأخلاقيين والمؤرخين الاقتصاديين ويجب الا ننسى « أن الكم » يكمل « الكيف » ولا يمكن دراسة أحدهما [٢] فى معزل عن الآخر •

وخلاصة القول ، أن خير ما يفعله المؤرخ لفهم قضية التاريخ العام ، هو أن يعالج الخيارات الاقتصادية كما هى على حالتها،كتصرفاتللانسان، وأن يتعامل مع تعقيداتها مباشرة ، وأن يدرسها داخل اطارها الأعم •

لقد كان من أهم أهداف فلاسفة التاريخ العظام فى القرن الماضى هو فكرة العالمية فى التاريخ ، وتفهم البناء التكوينى والتطورى للمجتمعات

---

(1) Mary Warnock : Ethics Since 1900, Home Library (1960). PP. 205 -- 7

(٢) يذكرنا ذلك بقواعد المعالجة الصحفية للأحداث والتى يحددها البعض بخمسه أسئلة هى : ماذا وأين وكم وكيف ولماذا •

الانسانية ، التى يولد فيها الفرد ، ويعيش ، ويتفاعل ، ويتصرف من خلالها ، كما أن المجتمع هو الذى يساعد على تكوين شخصية الفرد • لقد كانت أهداف فلاسفة القرن التاسع عشر بلا شك أهدافا عظيمة ، أثرت الفكر الانسانى ، لكن درجة نجاحها تضاءلت مع مرور الزمن ، بسبب تغير الظروف والأحوال ، كما أنها لم تعد تناسب الظروف المعاصرة •

ان السعى وراء حقائق التاريخ الملموسة ، والقابلة للتحليل ، عن طريق التسلح بالادراك المحدود المدى لرؤيا المؤرخ ، وبالنموذج الغامض للسبب والحدث ، لابد وأن يبدو أمرا شاقا ، وعسيرا للمؤرخ ، وغير كاف ، اذا ما قورن بالنظم التأملية الكبرى ، لكن فى المدى الطويل ، قد تتطور لتصل الى درجة لا تقل عن الفلسفات الكبرى ، عندئذ تصبح مرشدا وهاديا ، مأمونا وآمنا ، يهدينا فى متاهات عالم كان — وسيظل دائما — عالما لن نعرفه معرفة اليقين •

—

ثالثا : مدرسة التفكير الاجتماعى

يقول اليكس أنكلر فى كتابه « مقدمة فى علم الاجتماع » عن علاقة التاريخ بعلم الاجتماع : « يسعى التاريخ الى اقامة تتابع الأحداث التى تمت بالفعل • هو اذن يحاول ترتيب وتصنيف السلوك عبر الزمن • ويهتم علماء الاجتماع اهتماما خاصا بالكشف عن العلاقات بين الأحداث التى تتم — بشكل أو بآخر — خلال نفس الفترة الزمنية • أما المؤرخـون فيقصرون اهتمامهم على دراسة الماضى ، وعلى الأخص الماضى البعيد نسبيا • وفضلا عن ذلك نجد المؤرخين — باستثناء فلاسفة التاريخ — يتجنبون مهمة اكتشاف الأسباب ، اذا أنهم يقنعون بالتعرف على كيفية حدوث الأحداث • أما علماء الاجتماع فيهتمون — بدرجة أكبر — بالبحث عن العلاقات المتبادلة بين الأحداث ثم التوصل الى تتابعها السببى • وعادة ما نجد المؤرخ يفخر كثيرا بوضوح بياناته وبعدهـا الشديد عن التجريد ، بينما نجد عالم الاجتماع لا يهتم بما هو حقيقى بالنسبة لتاريخ شعب معين بقدر ما يهتم بما هو حقيقى بالنسبة لتاريخ عـدد كبير من الشعوب والواقع أن ما يقوم به عالم الاجتماع من تجريد شعوب عديدة انما يعد من وجهة نظر المؤرخ تشويها للواقع الذى يميز مكانا تاريخيا أو فترة زمنية بعينها » •

« ان جانبا كبيرا من التاريخ المدون هو — فى حقيقة الامر — تاريخ الملوك والحروب ، ذلك أن المؤرخين لا يهتمون كثيرا بالأحداث العادية أو التغيرات التى تطرأ عبر الزمن والتى تتخذ شكلا نظاميا مثل الملكية أو العلاقات الاجتماعية بين الرجل والمرأة داخل الأسرة • لذلك نجد عالم الاجتماع يهتم بهذه الظواهر اهتماما خاصا بل قد يجعل منها محور اهتمامه » •

« وبرغم وجوه الاختلاف بين التاريخ وعلم الاجتماع ، الا أن ثمة وجوه شبه بينهما واضحة كل الوضوح • فعلى سبيل المثال نجد بعض

---

(١) اعتمدت فى هذا الجانب الى حد كبير على مقال البروفيسور هـ.ج بركنز
H.J. Perkins, Social History, Approaches to History- A. Symposium, PP 51-82.

المؤرخين من أمثال روستوفتزف Rostovtzeff (١) وكولتون Coulton (٢) وبوركهارت Burchardt (٣) يكتبون تاريخا اجتماعيا حقيقيا ، أى يعالجون العادات والأنماط والسنن والأعراف والنظم الاجتماعية الهامة . كما نجد تحليلات سوسيولوجية هامة — كتلك التى قدمها فيبر — تحاول معالجة مشكلات تاريخية بعينها . ولقد أصبح علم الاجتماع التاريخى علما بالغ الاهمية بالنسبة لعلماء الاجتماع ، يشهد على ذلك جهود بعض الاجتماعيين من أمثال سيجموند دايموند Sigmond Diamond وروبرت بيلاه Robert Bellah ونورمان بيرنباوم Norman Birnbaum (٤)

غير أن التاريخ الاجتماعى اذا ما حكمنا بالمعايير الأكاديمية العادية يكاد أن يكون نادرا ، اذ لا توجد كراسى خاصة به ، ولا مجلات علمية متخصصة لكن الاهتمام به بدأ تحت تأثير تزايد الاهتمام بالتاريخ الاقتصادى فمنذ أكثر من خمسين سنة تقريبا كتب البروفيسور ج . ف ريس G.F. Rice فى تقديمه لأحد الكتب يقول — يوجد الآن شبه اتفاق فعلى حول مجال التاريخ الاقتصادى بأنه يشمل دراسة حالة الزراعة والصناعة والتجارة والنقل والمواصلات جنبا الى جنب مع مشكلات الحالة النقديه شديدة التعقيد، والميزانية العامة والضرائب «ثم يستطرد قائلا « هذه الموضوعات تستوجب وتتطلب فحص ووصف الحالة الأجتماعية ، ومن ثم ، فان الخط الفاصل بين التاريخ الاقتصادى والتاريخ الاجتماعى يكاد أن يكون معدوما » (٥) . وعلى نفس الوتيرة

(1) Mikhail. I. Rostovizeff, «The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford . The Clarendon Press 1944),

(2) George C. Coulton, Medieval Panorama : The English Science From Conquest to Reformation (New York : Meridian Books, 1957) ;

(3) Jakob Burckhardt : (S.G.C. Middlemore, translator), The Civilization of the Renaissance in Italy, Vol-1-11 (New York : Harper, 1958).

(٤) إليكس إنكلر — المرجع السابق — ص ٦٨ — ٦٩ (ترجمه محمد محمود الجوهرى وآخرين) .

(5) cf. A. Redford, Economic History of England 1760 — 1860 (1931) P. I.

كتب السير موريس بويك Sir Morris Powicke يقول « أن التاريخ السياسى والاجتماعى ــ هما فى نظرى ــ وجهان لعملة واحدة ، فالحياة الاجتماعية تفقد نصف أهميتها والحركات السياسية تفقد كل معناها . اذا ما درسنا كل منها فى معزل عن الأخرى » (١) .

ولا تزال الأمور غير واضحة لتحديد مفهوم معنى التاريخ الاجتماعى فهل هو يا ترى كما عرفه البروفيسور تريفليان (٢) G. M. Trevelyan « تاريخ الشعب بعد ابعاد السياسة عنه » The history of the People with Politics left out ، أو كما يقول الدكتور روز A.L. Rowse « هو معرفة كيف استهلك المجتمع ما أنتج » (٣) أم هل هــو التاريخ الاقتصادى بعد ابعاد القضايا المعقدة الخاصة بالنقد والميزانية والضرائب عنه ، أى باختصار بدون علم الاقتصاد ؟ أم أنه « معرفة كيف كان الناس يقضون وقت فراغهم فى الماضى » ؟ كل هذه التعريفات بالتاريخ الاجتماعى لا توفيه حقه من التعريف لأنها لا تميزه عن التاريخ السياسى والاقتصادى أو حتى عن التاريخ العام ، فعلى حد قول السير لويس نامير Sir Lewis Namier « أن تصرفات الانسان هو موضوع دراسة التاريخ وكل ما سعى اليه الانسان وما أقامه من نظم اجتماعية تدخل تحت هذه الدراسة » (٤) . فما هو الحقل الذى يعمل فيه المؤرخ الاجتماعى وكيف نحدد له حقلا خاصا به ؟

لقد جرى العرف على استخدام التعبير المجازى المستمد من الزراعة وهو « حقل البحث » ، وطبقا لهذا التعبــير يقسم العاملون فى الأرض الأكاديمية الى وحدات يقوم كل فريق بفلاحة نوع معين من المحاصيل وبالمفهوم التاريخى ، بنــوع معين من الافتراضــات أو التعميمات أو ويجنون ثمار ما يزرعون .

---

(1) F.M. Powicke, King Henry III, and Lord Edward, Oxford, 1947, P. V.

(2) G. M. Trevelyan, English Social History, (1944) P VII.

(3) A. L. Rowse, The Use of History, 1946, P 69.

(4) Lewis Namier, Sir, History, Its Subject Matter and Tasks, History To-day, 11, 1952, P.161.

ان تقسيم المعرفة الانسانية الى حقول صغيرة توزع على الباحثين كما لو كانت حيازات زراعية متخصصة فى زراعة محصول معين وليس غيره ، وتحاط كل حيازة بسياج من النباتات المانعة أمر يدعو للأسف ، خاصة أن اللوم يوجه الى المزارع الذى لا يتقيد بالتخصص . وموقف المؤرخ الاجتماعى من هذا التقسيم الزراعى للبحث التاريخى هو أنه لا يجد له أرضا مخصصة بل تنمو محاصيله باصرار وعناد على حدود حقول جيرانه ولا يجد المؤرخ الاجتماعى بدا من التعدى على تخصص الغير ، أو أمامه خيار آخر وهو أن يصبح عاملا أجيرا يخدم فى أرض الآخرين ويدخل محصوله ضمن محاصيلهم التى يجنونها لأنه ليس للمؤرخ الاجتماعى حقلا مخصصا حتى الآن . لكن الدراسات الانسانية ليست حقولا ، وليست الحقائق محاصيل تحصد وتشون كل حسب طريقته ، لأن الحقائق حقائق بالنسبة للجميع ويمكن أن تفيدهم جميعا دون أن يقلل ذلك من قيمتها ، وما الحقائق الا حنطة فى طاحونة الباحث ، وما دام الباحث قادرا على ادارة طاحونته وما دامت الطاحونة تعمل جيدا . أما ما تسفر عنه أعماله فهذا يتوقف على ما يختاره من حقائق لدراستها فى ضوء اهتمامه بالقضايا التى يعالجها . أليست كلمة « هستوريا » أو علم التاريخ — مشتقة من أصل أغريقى يعنى البحث والتمحيص ، وأن كل المؤرخين يبدأون بحثهم بالتساؤل عن ماذا حدث وأين وكيف ولماذا ؟ أو على أقل تقدير يتسائلون عما ستكتشفه الوثائق من أسرار الماضى ؟ أما المؤرخ الاجتماعى فهو لا يختلف عن بقية المؤرخين الا فى صيغ الأسئلة التى يطرحها ونوعية الاجابات التى يتوصل اليها . أما مسألة تحديد حقل له فهى لا تستلزم اعادة تقسيم الأرض على الباحثين من جديد ، انما تستوجب أن نتركه يبحث حتى يصل هو بنفسه الى حدوده .

وقد يظن البعض أن التاريخ الاجتماعى هو البديل المناظر لعلم الاجتماع الذى يخصص ميدانه لدراسة حياة الانسان الشاملة فى

المجتمع (١) لكن جميع المؤرخين بلا استثناء يبحثون قضايا تخص حياة الانسان فى المجتمع • اذن ما هى الصفات المميزة للمشكلات التى يختص المؤرخ الاجتماعى ببحثها ؟ ان كلمة Social أى اجتماعى لها أكثر من معنى فى قاموس أكسفورد للغة الانجليزية كلها تتعلق من قريب أو بعيد بتجمع الناس وبالتالى لنشـاطاتهم الانسانيـة ، لكن الدلالات اللفظية لكلمة Social لا تساعدنا فى تحديد ما نعنيه بشكل بشـكل قاطع وواضح مما يجعل باب الاجتهاد مفتوحا • وفى محاولته لارجاع القوى الاقتصادية الى احداث اجتماعية وسياسية كتب البروفيسور و • وروستوف يقول « انه لمن المفيد أن نتفق على اعتبار المجتمع مكونا من ثلاثة مستويات ، لكل منها وجوده واستمراريته الخاصة ، لكنهـا تتصل بعضها بالبعض بطرق متباينة ، وعادة تعرف هذه المستويات بأنها اقتصادية واجتماعية وسياسية » (٢) • ان هذه المستويات تتواجد معا اذا ما تواجدت احداهما فى أى مجتمع • ان المجتمع كالكون واحد لايتجزأ ولايمكن فصل احدى هذه المستويات عن الأخرى• أما أن تفضل مدرسة من المدارس التفسيرية للتاريخ، احدى هذه المستويات عن الأخرى، فى تحليل البواعث للأحداث فهذا مجـرد افتراض ، فمدرسة التفسير الاقتصادى للتاريخ ترى أولوية الباعث الاقتصادى فى الانسان على كل البـواعث motivation الأخـرى ، ولشـدة الغـرابة أن النظرية الماركسية صاحبة هذا التفسير هى أقـرب أن تكون نظـرية اجتماعية من كونها تفسيرا اقتصاديا بحتا ، لأن التاريخ فى رأيها هـو تاريخ الصراع الطبقى ، والصراع الطبقى صراع اجتماعى — سياسى Socio--Political أكثر من كونه صراع اقتصادى ، ولقـد ذكر كارل ماركس أن دور الفرد فى الصراع ودرجته الطبقية يحددها علاقته بنظام الانتاج ، لكن انجلز Engles الرأسمالى يذهب ليثبت أن الناس لا تحركهم البواعث الاقتصادية وحدها ولا حتى بطرق مختلفة

(1) M. Ginsbery, Sociology, 1949, P. 7.

(2) W. W. Rostow : British Economy of the Nineteenth Century Oxford, 1948, P. 134.

ومتغيرة ، بل أن كارل ماركس نفسه ذكر أن الناس قد تختار ممثلين عنها من طبقة اجتماعية لا ينتمون اليها من أجل مناصرة قضية اقتصادية أو سياسية، بهذه التفسيرات نقترب من مفهوم كلمة اجتماعيفى ضوء طبيعة الانسان وتصرفاته ، بدلا من التجريد الميتافيزيقى المعقد الذى يدور حوله علم الاجتماع ، ولعل البروفيسور رايل كان واضحا عندما ذكر أن الانسان وحده قائمة بذاتها ، وليس مجموعة من المركبات والأجـزاء المنفصلة ، فالناس فى الماضى — مثل حالنا اليوم — كانوا يعيشون على المستويات الثلاثة فى آن واحد دون تقسيم أنفسهم تقسيما تجريديا abstract الى رجال سياسيين واقتصاديين واجتماعيين [١] •

ومثل الكون أيضا يتعذر النظر الى المجتمع من كل الجوانب فى آن واحد • ومن ثم يتوجب التركيز على ناحية واحدة من جوانبه اذا ما أردنا التوصل الى نتائج دقيقة ، فقد حققت العلوم الطبيعية نجاحا مثيرا منذ القرن السابع عشر ، وسبب ذلك ، تجريدهم لظاهرة معينـة وعزلها ثم مراقبتها بدقة ، تماما مثلما ينجح الباحث فى علم الأمراض بعزل فيروس معين يسبب مرضا معينا عن غيره من الجراثيم ثم يدرسه لكى يكتشف الطعم أو الدواء المضاد له ، أن تجريد موضوع لا يغير من أمره شيئا ، انه مجرد عملية تركيز الانتباه من جانب الباحث على جانب معين حتى لا يتشتت ذهنه ويتيه فى شعاب الظواهر التى لا تنتهى • ولكل متخصص درجة من التركيز الذهنى ودرجة من الاهتمام ، وله وسائله وأساليبه ، التى هى قنوات الاتصال ، التى تربطه بعلم تفسيرى مناسب سواء كان ذلك علم الاجتماع أو الاقتصاد أو العلوم السياسية• فليست النتائج النهائية ولا أيضا مادة الدراسة هى التى تفرض تقسيما معينا انما هو الوسائل والأساليب المتبعة أى العمل ذاته • وخلاصة القول ليس التاريخ الاجتماعى جزءا من التارخ ، بل انه على حد قول البروفيبور آرثر روفورد « هو كل التاريخ من خـلال وجهة النظـر الاجتماعية » •

عندئذ نتساءل اذا كان ذلك ، فما هى وجهة النظـر الاجتماعيـة

(1) G. Ryle. The Concept of Mind, 1949, Passim.

التى يسلكها المؤرخ الاجتماعى ؟ ان المجال الاجتماعى كما يراه روستوف مجال عريض وواسع ، فهو يشمل طريقة حياة الناس وثقافتهم وعقائدهم الدينية التى تحظى من جانبهم بالقبول ، ومساعيهم العلمية ، وقبل كل شىء وجهة نظرهم السياسية التى تحدد علاقتهم بالدولة والمجتمع أو بمعنى آخر الطريقة التى يفكرون بها ازاء المواقف السياسية المحددة والتى تشكل أساس تنظيماتهـم (١) ، أما تريفليان فيحـــدد المجـــال الاجتماعى بأنه المجال الوسيط بين القاعدة الاقتصادية والبناء الفوقى السياسى Political Superstructure ، وهذا المجال يشمل دراسة « الحياة اليومية لسكان البلاد فى العصـــور القديمة » وبمعنى آخـــر العلاقات الانسانية والاقتصادية بين الطبقات المختلفة ، وخصـــائص الأسرة ، والحياة المنزلية ، وطبيعة العمل وحالاته ، وأوقات الفراغ ، وموقف الفرد من الطبيعة ، وثقافة كل عصر فى ضوء ظـــروف الحياة العامة ومن خلال تغير صيغها الدائم فى الدين والأدب والموسيقى والمعمار والفكر والتعليم » (٢) ، لكن بهذا التحديد يظل التاريخ الاجتماعى علما مساعدا لا هيكل له ، وليس كما يعرفه أرنولد توينبى بالحقل الدراسى الواضح والشاسع ، بل أكثر من هذا يوجد من يستكثرون عليه ذلك ، ويقصرونه على ما يلتهمه الناس من مأكولات وما يرتدونه من ثياب ، وعلى ملاعب الرياضة وحفـــلات اللهو وقاعـــات الرقص والولائـــم والحانات ، وكل هذه أماكن مثيرة فى الدراسة لكن بشرط أن ننظر اليها من خلال ارتباطها بالمجتمع الأكبر التى هى جزء منه وما دامت تدرس بحيث تدور حول فكرة مركزية توحد من شملها بدلا من الشتات .

ان هنـــاك ثمة علاقة بين التاريخ الاجتماعى والتاريخ المحـــلى ، فالتاريخ المحلى ليس سوى التاريخ الاجتماعى للجماعات المحلية ، كما نادى السير موريس بويك Six Maurice Powicke بـــدراسة التاريـــخ المحلى كأساس للفهم الوثيق للتحول الاجتماعى (٣) . انه لمن الأفضل

(1) Rostow, loc. cit.
(2) I.G. M. Trevelyan, op. cit, P. VII.
(3) Sir Maurice Powicke; Historical Study in Oxford, 1929, P. 10.

أن يختار المؤرخ الاجتماعى مجتمعا محددا ويضعه تحت المجهر لكى يراه رؤيا شاملة ، وهذا يعنى الى جانب دراسته للحياة اليومية لأفراده بالمفهوم الذى قصده تريفليان ، أن يجعل جل اهتمامه بذلك المجتمع لذاته كمجتمع Society qua Society وبالنشاطات الاجتماعية فيه وأن يدرس مؤسساته لذاته بصرف النظر عن أهدافها أو وسائلها • لقد اتبع الدكتور روز Rowse هذا المنهج فى دراسته الممتازة لبناء المجتمع الانجليزى فى عصر الملكة اليزابث(١) ، حيث حاول أن يستعرض ويصور المجتمع بأكمله لكى يستخلص منه العصاره الاجتماعية سواء من نظام الادارة الحكومى ، أو الشئون الاقتصادية ، أو من البرلمان والكنيسة ، ومن القوانين ونظام التعليم وزراعة الأرض ، ومهما كانت معلوماته عنها مقتضبة ، لكن هذه هى الطريقة التى يمكن للباحث اتباعها من أجل تقديم صيغة متماسكة •

ما من شك فى أن المؤرخ السياسى والمؤرخ الاجتماعى يدركان وجود اطار اجتماعى يقبع تحت الاساس الاقتصادى والبناء الفوقى السياسى فصيغة البناء الاجتماعى ، ونموه أو تدهوره ، والتوزيع السكانى لأفراده سواء فى المدينة أو القرية أو الاقليم أو المنطقة وانقسامهم الى جماعات متميزة نسميها « الطبقات » أو أهرامات الاتصال Pyramids of Connection أو كما عرفت فى القرن الثامن عشر باسم المصالح interests (٢) — تؤثر بلا شك وتتأثر بالأحداث السياسية والاقتصادية وأحيانا لا يجد المؤرخ السياسى أو الاقتصادى بدأ من طرح أسئلة عنها ، لكنها ليست اهتمامه الأساسى ، لأنه لا يهتم بها لذاتها ولكن لكونها ذات تأثير وتأثر بالأحوال السياسية أو الاقتصادية ، واهتمامه بها غير مباشر ، لكن بالنسبة للمؤرخ الاجتماعى هى أساس المنطلق الذى يبدأ منه بحثه •

---

(1) A L. Rowse : The Elizabethan Age, I, The England of Elizabeth : The Structure of Society, 1950, P. VIII.

(2) W.J.H. Sprott, Sociology, 1949, P. 98 ; S. H, Beer, «The Representation of Interests in British Government : Historical Background.,» **American Political Science Review, LI**, 1957, pp. 013--50.

وخير مثال على ذلك هو دراسة السكان Demography الذى أصبح الآن علماً قائما بذاته ، له اصطلاحاته ومنهجه ودروبه العلمية ، وهو علم يقوم على مساعده التخصصات الأخرى مثل الاحصاء والطب وعلم الاحياء وعلم التغذية dietetics وعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع ، كما أن النتائج التى يتوصل اليها، تهم كل فروع الدراسات التى لها علاقة بالمجتمع ، وباختصار فان الظواهر السكانية تقبع وراء مفهوم النشـاط الانسانى ، فتزايد عدد السكان يعنى اختناق الأسواق ، وازدياد عـدد القوات المسلحة وارتفاع ثمن الأرض ، وتناقص عدد السكان يعنى ارتفاع نسبة الوفيات وتدهور الخدمات الصحية ونقص التغذية (١) والمـؤرخ السياسى أو المؤرخ الاقتصادى لا يستطيعان تجاهل حالة السكان ويهتمان بها قدر اهتمامهما بمحاضر البرلمان أو مستوى الأسعار • فلكى نفهم ظاهرة الثورة الصناعية فى بريطانيا فى القرن الثامن فهما شاملا وتاما (٢) لابد أن نبحث عن العلاقة بين التزايد السكانى والتطور الزراعى والصناعى والخدمات الطبية والحالة الصحية ، كما أن تفسير ظاهرة الاقطاع غير الشرعى bastard Feudalism وتضاءل مساحات الضياع الزراعية وتدهور الانتاج الزراعى فى أوربا ابان القرنين الرابع عشر والخامس عشر لا يمكن أن يفهم الا فى ضوء ظاهرة تناقص عدد السكان • وتبين الدراسات الحديثة مدى التشابك بين عدد السكان ودرجة النمو الاقتصادى كما أنه أصبح من المحال فصل الدراسات الديموجرافية عن الاحصاء (٣) كما أن الفشل فى مواجهة التزايد السكانى الذى حدث فى منتصف القرن الثامن عشر هو الذى أدى الى ظهور نظرية مالتوس Thomas Malthus الشهيرة والتى أطلقت التحذير التقليدى لما سوف ينتظر البشرية من كوارث

---

(1) W.F. Ogburn, «On Social Aspects of Population change» **British Journal** of Socioloyg, IV, 1953, P. 26.

(2) M.C. Buer, Health, Wealth and Population in the Early days of the Industrial Revolution.

(3) J.T. Krause, Some Implications of Recent Research in Demographic History, **Conparatine Studies in Society and History**, I, 1959, PP. 164--188.

بسبب النقص فى مصادر الغذاء(١)، والذى يشهد العالم حديثا العودةالى موقفمالتوسبالرغم من مرور قرنوثلاثة أرباع القرن على ظهورها(٢). وباختصار فان علم ديموجرافية السكان يشكل هدفا أساسيا للمؤرخ الاجتماعى بالرغم من كونها ثانوية بالنسبة للتاريخ السياسى والتاريــخ الاقتصادى . انه فرع من علم الاجتماع وكدراسة تاريخية هو فرع من التاريخ الاجتماعى .

أما عن دراسة النظم السياسية مثل المجالس البرلمــانية والنيابية فهو أمر يهم المؤرخ الاجتمــاعى مثلما يهمه ماذا كان النــاس يأكلون ويشربون ويلبسون ، فالأصول الاجتماعية والقرابات بين الشخصــيات البارزة تهمه لأنها تلقى الضوء على الطريقة التى يســير بها المجتمع ، ويجدد نفسه بنفسه ، وكيف توزع المناصب والمراكز ، وكيف كان المجتمع يواجه المشكلات ويتوافق مع ظروفه وجيرانه فمثلا يقول السير موريس بويك عن ألعاب الفروسية فى القرن الثالث عشر « أن البواعث المحرضة على العنف فى ذلك الوقت كانت كثيرة ، ولا تعرف ضبط النفس ، ففى العصور الأولى — ان لم يكن بعد ذلك — كانت الأسرى تؤخذ كرهائن ، وكذلك الغنائم فىشكل الجياد الثمينة، والأسلحة الكثيرة، وكان النصر معناه وضع اليد على ثروة باهظة ، وتحقيق شهرة واسعة ، فالفرسان البارزين يرتقون الى الزواج من طبقات اجتماعية ثرية ، ويحصــلون على رتب وألقاب ، وهذا يوضح طريق التحرك الاجتماعى فى عصر كانت فرص الترقى فيه نادرة نسبيا بالنسبة للفرص المتاحة فى العصور الحديثة للرجال البارزين فى مجال الفن، والرياضة، والعلوم وسائر النشاط المهنى(٣) الخ.

كذلك فان ظاهرة الحج والمزارات الى بيوت الله الحرام والى قبور

(1) G. T. Griffith, Population Problems in the Age of Malthus, Cambridge, 1926.

(2) T.H. Marshall, «The Population of England and Wales From Industrial Revolution to the World War» Economic History Review, X, 1934--5, PP. 65--78.

(3) Maurice Powicke, King Henry III and the Lord Edward, P 21.

الأنبياء وأضرحة القديسين وأولياء الله الصالحين وأهل الكرامات يمكن دراستها كظاهرة اجتماعية مميزة ، وعن هذه الظاهرة فى أوروبا ابان القرنين العاشر والحادى عشر كتب البروفيسور رو سازرن (١) R.W. Southern يقول « لقد استعيض عن العجز الأنسانى بقوة القديسين ، لأنها كانت فى نظر الناس فى ذلك الوقت مراكز القوى العظمى للحرب ضد الشر ، كما أنها تملأ الفراغ والفجوة فى بناء العدالة الأنسانية . ان أكثر خرائط أوروبا وضوحا فى هذه القرون هى تلك التى تبين أماكن الأضرحة المقدسة ، مراكز اتصال العالم المادى الدنيوى بالعالم الروحى الخفى ، وليست تلك التى توضح العواصم السياسية او الاقتصادية الشهيرة . ولعل ذلك يلقى ضوءا على مركز النفوذ البابوى فى روما ابان العصور الوسطى ، لأن روما كانت مقر العديد من القديسين وقبل كل شىء مقر بطرس خليفة المسيح. ان التاريخ الاجتماعى ليس أكثر ولا أقل من تاريخ المجتمع ، وهو يكلف الباحث رحلة شاقة الى أغوار المجتمع ، ولا يوجد شىء له علاقة بالأنسان يحدث خارج المجتمع ، كما أنه سوف يواجه دوامة توحيد المادة لتدور حول مركز واحد والبحث عن الخيط الرفيع الذى يربط بين الحلقات ، وهو عمل منهك ومضن ، لكل الذين وهبوا أنفسهم لتسلق القمم العالية التى لانهاية لها بحثا عن المعرفة لا يعيقهم اليأس ، بل هم أشد عنادا من الذباب !

وليتذكر المؤرخ الاجتماعى دائما أن تاريخ المجتمع لايعنى أبدا تاريخ كل شىء يحدث فى المجتمع ، ولهذا عليه أن يتجنب أن يكون فى كل مكان فى وقت واحد لأنه لا يستطيع أن يسافر فى وقت واحد أرضا وبحرا وجوا ، أما تحقيق فكرة التاريخ الشامل لماضى الأنسانية فهو حلم بعيد المنال يحلم به كثير من المؤرخين ، وحتى لا يتشتت ذهنه ويكون مثله مثل المسافر الذى لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، عليه أن يركز على هدف واحد يسير اليه ، وهو فهم حياة الناس فى الماضى داخل اطار المجتمع القديم ونظمه . وثانيا عليه أن يعلم أن التاريخ الأجتماعى ليس

(1) R. W. Southern, The Making of Middle--Ages, 1953, P 137.

فرعا من علم الاجتماع ، لأنه لا يبحث عن المعرفة العملية ولا القوانين الوصفية ولا المبادىء التى تحكم الأشياء ولا التعميمات التنبؤية ، انما هو أولا وأخيرا فرع من التاريخ يهتم مثلما تهتم فروعه الأخرى « بالأحداث الملموسة المحددة زمنا ومكانا (١) » أى « الأهتمام بمجتمعات معينة فى أزمنة معينة وأماكن معينة (٢) والمؤرخ الاجتماعى يدرسها لذاتها دون البحث عن الفائدة العملية لما يكتشفه ، واذا كان هناك هدف أبعدمن البحث هو استخراج الدروس التىتجعل الناسأكثر اتعاظا وأكثر حكمة، وعليه أن يستفيد من تجربة انسلاخ التاريخ الاقتصادى عن علم الاقتصاد ، فقد كان على المؤرخين الاقتصاديين الأول أن يقاوموا رغبة علماء الاقتصاد فى جعله أداة لشرح وتصوير القوانين الاقتصادية (٣) .
ان المؤرخ الاجتماعى يختلف عن عالم الاجتماع تماما مثلما يختلف المؤرخ الاقتصادى عن عالم الاقتصاد ، وكلا الفريقين المختلفين زملاء فى البحث وشركاء فى الدراسة ، بل هم أعضاء فى فريق واحد ، وبالتالى لا يستغنى المؤرخ الاجتماعى عن خبرة العالم الاجتماعى ؛ ولا المؤرخ الاقتصادى يستطيع الاستغناء عن اراء وخبرات عالم الاقتصاد . كذلك فأن عالم الاجتماع اذا ما حرم نفسه من تجارب المؤرخ الاجتماعى ومن المدى الزمنى والأحساسات المتعددة الجوانب التى يدركها المؤرخ ، فان بحثه يصبح ضيق الأفق من الناحية التاريخية لأنه يصبح مقيدا وأسيرا بتلك المجتمعات والنظم ولا يراها الا على الحالة التى تصادف بقاؤها دون أن يحاول معرفة التسلسل الزمنى لذلك البقاء ، وبالمثل اذا حرم المؤرخ الاجتماعى من العمق المشجع على البحث والقدرة علىاختراقالظواهر الاجتماعية ليرىما وراءها وهو الطابع الذى يميز الباحث فى علم الاجتماع ، فان البحث التاريخى يصبح سطحيا وضحلا من الناحية الأكاديمية ، ويجد نفسه يبحث عن الحقائق بطريقة

(1) Namier, loc. cit, P 157.

(٢) اليكس انكلر — ترجمة محمد محمود الجوهرى وآخرين ص ٦٨ .

(3) W. Cunningham, The Progress of Capitalism in England, Cambridge, 1916, P 6 note 2.

عتيقة ويدور حول نفسه دون أن يحاول تقيمها ، أو تصنيفها حسب أهميتها . وليعلم أن كلاهما سيد فى حقله ، وفى درجة متساوية بالنسبة لأهمية البحث ، لكن كل ما فى الأمر ، أن كلا منهما يتطرق اليه من جانب مختلف ومن أجل غاية مختلفة ، فالمؤرخ الاجتماعى يعالج نفس المادة التى يعالجها عالم الاجتماع ، بل يستعين بوسائله وتقنياته ، لكنه يطرح على بساط البحث قضايا مختلفة لأنه يسعى وراء نتائج مختلفة .

فالمؤرخ الأجتماعى لكى يتماشى مع تخصصه يجب أن يكون بحثه فى شكل تواريخ اجتماعية محددة ، وللمؤرخ الاجتماعى أن يأخذ كما يشاء من المعرفة التاريخية ، المهم هو أن يقتفى أثر القضايا التى يطرحها أمامه للبحث ، ويتبع الطريق الذى تقوده اليه مادته العلمية ، فاذا ما اخترق الحواجز القائمة بين فروع المعرفة ، واستطاع أن يجمع بين نوعين من مستوى المعرفة والتخصص لم تكن بينهما علاقة من قبل ، فانه يكون قد فعل خيرا ، وقد يكون فى هذا الابتكار نبوغا من جانبه . وفى أى الحالات فان ما سيكتبه من تاريخ سيكون نافعا ومفيدا للتاريخ الشامل ولبعض المؤرخين المتخصصين .

اذن فما هو الطريق الذى يجب أن يسير فيه المؤرخ الاجتماعى ؟ يتوجب عليه أن يقصر اهتمامه على مجتمع واحد محدد فى الزمن والمجال مثل المجتمع فى طيبة الفرعونية أو بابل القديمة أو فى آثينا فى عصر بيريكليس أو روما فى عصر الامبراطورية ، أو الاسكندرية فى العصرين البطلمى والرومانى، أو احدى قرى مصر فى العصر البيزنطى، أو الامارات اللاتينية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، أو المجتمع المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك ، أو الصين فى عصر الخان الكبير ، أو انجلترا فى عصر الملكة اليزابيث . وهناك الكثير من الموضوعات المشابهة . ولو سأل سائل كيف ينبغى على المؤرخ أن يقترب من مجتمعه ويكشف عن أفكاره ويكتب تاريخه فى ضوء الأدلة والبراهين ؟ ان الرد على هذا التساؤل هو أن يحاول النظر الى مجتمعه كبناء يعمل ويتطور ويجدد نفسه بنفسه ، ويتفاعل مع نفسه ككل داخل ظروفه الجغرافية والكونية ، وأن يعرض التاريخ الطبيعى

للهيكل السياسى شارحا ظروفه البيؤية ecology ، ويقوم بتشريحه ليبين وظائف أعضائه ، ويشخص الأمراض السائدة فيه ، كما يجب أن يدرس نفسيته أيضا ، ويبين مدى ادراكه بنفسه وأهدافه التى يعيها ومعاييره النقدية وأفكاره المثالية • تلك بالطبع عبارات مجازية ذات نزعة طبية ، فالمجتمع لايزيد عن كونه آلة كبيرة بقدر ماهو جسم حى ، انه وحدة اجتماعية وترابط بين مخلوقات انسانية ، ومن بعض النواحى الهامة يكاد أن يكون كائنا حيا رجلا كان أو امرأة • وقبل كل شىء يملك القدرة على التـوالد الذاتى ، ولكنه لا ينجب مخلوقات تحمل خصائصه الوراثية ، بل يتوالد بصيغ متعددة التنوع ، بالرغم من أنه لا يملك روحا ولا أفكارا تأملية عن توقعاته عن العالم الآخر ، انه نظام ديناميكى — على العكس من الجسد — لا يحتاج الى تنظيم أعضائه طبقا لنظام مفروض أو مقدر عليه ، لكنه قادر على تغير هذه الأعضاء ، بل أنه قادر على تكوين أعضاء جديدة طبقا لحاجاته ومتطلباته • وبالرغم من اعتراضات البعض على تشبيه المجتمع بالجسم الانسانى الا أن هذا التشبيه هو خير ما يعبر عن ترابط أعضاء المجتمع وتناسقها • ولعل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سـائر الأعضاء بالسهر والحمى ، والرسول صلوات الله عليه يقصد هنا مجتمـع المسلمين المثالى والذى شبهه بالجسم الانسانى — لخير تعبير على ذلك • كما أن تشبيه المجتمع بالجسم الانسانى يساعدنا على تشخيص أمراضه بنفس الأساليب التى يتبعها الطب الحديث فى معالجة الجسم الانسانى وهى :

(أ) فحص التاريخ الطبيعى والظروف البييؤية للهيكل الاجتماعى Ecology

(ب) تشريح المجتمع anatomy

(ج) بحث وظائف الاعضاء فيه Physiology

(د) تشخيص الأمراض السائدة فيه Pathology

(هـ) دراسة نفسية المجتمع Psychology

١ ــ اكولوجيا المجتمع : ــ

ان علم البيئة الاجتماعية Society's Cosmology هو دراسة علاقة المجتمع بالبيئة المادية والطبيعية التى يقع فيها ، أولا : من ناحية تأثير الخلفية الجغرافية التى يرتبط ويلتصق بها المجتمع وهى تشمل طوبوغرافية المكان، والأرض، والمناخ، والحيوان ، والنبات ، وما شقه الانسان من طرق للاتصال بالمجتمعات الأخرى • وكيف استطاع المجتمع أن يكيف نفسه مع بيئته كظاهرة التنقل على ظهور الجمال فى البوادى الصحراوية أو الهجرة الى ما وراء البحار عند الشعوب الساحلية ، مثلما حدث ويحدث لليونانيين ، وكما يتكيف المجتمع مع البيئة المحيط به فانه يحاول جعل ابيئة ذاتها تكيف نفسها مع المجتمع ذاته ، اذن فظاهرة التكيف متبادلة ومن جانبين •

وعلى الطرف الأخر من ابيئة المحلية للمجتمع توجد البيئة الكونية الكبرى Society's Cosmology • ان أقل الأفكار تغيرا بين مجتمع وآخر ، أو بين جيل وآخر ، هى الأفكار الخاصة بالكون ، الذى لا يتغير قيد أنملة ، بينما المعرفة الانسانية تزداد كل يوم اتساعا وعمقا ، ولا يوجد شىء يتغير بمثل ذلك العمق وبالتزامات أعمق من نحو المجتمع من نظرة الانسان الى الكون ، وتصوره لدوره ولمكانته فيه •

ان آراء أرسطو وبطليموس عن الكون ، مهما تبدو لعينى الباحث العلمى الحديث طريفة ، مزيفة للحقائق وتحكمية ، الا أنها كانت حقائق راسخة لا يمكن تغييرها بالنسبة للمجتمعات الأوروبية فى العصور الوسطى تماما مثل الأرض العنيدة والجو المتقلب ، ان تأثير الكونيات الارسطوطالية ــ البطلمية لا تزال باقية فى تشبيهاتنا للاجرام الكونية بالأجسام، الى جانب رواسب كثيرة فى تفكيرنا الاجتماعى• ومن ثم فهى التى ربطت المجتمع الانسانى ونسقه بالكون ، وبكل شىء موجود فيه ابتداء من جبريل عليه السلام الى أصغر حشرة تزحف على الأرض ، وبالتالى أضفت على الكون الغامض يقينا وجوديا من خلال صورتها عن المجتمع Ontological Certainty ، فوضع الأمير بين رعاياه تحولت فى

خياله الى الله سبحانه وتعالى بين ملائكته ، أو الى الانسان بين سائر المخلوقات لأنه سيدها بلامنازع ، أو الى الأسد بين سائر الوحوش ، أو النسر بين سائر الطيور ، أو الحوت بين سائر الأحياء المائية ، واعتبر أن التوافق والوئام فى الجسد السياسى هو صورة مصغرة للوئام الكونى الأعم والأشمل ، أما الخروج عن هذا الوئام فيشكل خيانة للمجتمع والكنيسة، والخروج عليهما، أما الصراعات الدموية والحروب الأهليةالتى تهدد الوئام والتوافق ، فهى خروج على ارادة السماء ، ولهذا فهو مدان ومنبوذ ومحرم • أما فى العصور الحديثة ، فقد خرج تفكير الانسان على هذه النظرية ، ولم يعد يؤمن بالانسجام بين المجتمع والكون ، وتغيرت موازين القوى السابقة بين المخلوقات ، وانطلق الانسان الأوروبى حرا من هذه القيود ليحاول نشر سطوته على الكون ذاته كمحاولته الوصول الى القمر والأجرام الأخرى ، ومحاولته انزال المطر صناعيا من السماء، وبالتالى حققت له السيادة والارادة المطلقة على تنظيمه الاجتماعى على حساب النظرية العتيقة بوجود ارتباط بين العالم الاجتماعى للانسان وعالم الكون وعالم ما وراء الكون أو الطبيعة (Supernatural) وليس هذا مدعاة للكفر والالحاد كما يعتقد البعض بل أحيانا كان هذا الخروج الى عالم البحث الكونى المحدود تأكيد لايمان الانسان بالخالق، وكلما حاول الانسان زيادة معرفته كلما أدرك أنه أكثر جهلا مما كان ، بل وردد بعضهم القول ما أعظم قدرة الله وما أحقر الانسان • لكن الذى يهمنا أن تشبيه المجتمع بكون صغير مرتبط بالكون الأكبر وبالوجود الميتافزيقى ، هى انعكاس لسيكولوجية الانسان بأنه جزء لا يتجزأ من الوجود الكونى •

٢ — تشريح المجتمع anatomy of Society

تقودنا دراسة تكييف المجتمع للواقع الطبيعى وتكيفه معها الى تشريح المجتمع ، فهو بناء كبير يفوق تقسيمه الى طبقات ، فأولا هو وعاء يشمل كل العناصر الاجتماعية التى يولد الفرد ليجدها قائمة مثل كثافة السكان وتوزيعهم جغرافيا ، ومتوسط الأعمال والوظائف ، والوضع الاجتماعى ، والنموذج العام للسلوك والنظم ابتداء من طقوس الزواج

ونظام الميراث ، وعلاقته بالسلطة أو لمن يخضع له فى النفوذ ، وظروف العمل ، ان متابعة تصرفات الفرد اليومية فى التجمعات المترابطة مثل الأسرة والمسجد أو الكنيسة، والنقابة، والمدرسة والجامعة والمستشفى، وفى المصنع ، والنادى والاتحادات المهنية والحرفية ، وفى الأحزاب السياسية ، مفيدة جدا للباحث فى التاريخ الاجتماعى ، لأن الفرد ملتزم بالتحرك خلالها اجتماعيا ليمارس وجوده الاجتماعى • وهى أهم من التقوقع حول دراسة الطبقات الاجتماعية ، لأنها ليست التقسيم الأوحد والذى فرض على المجتمع الهرمى • أما تحديد مفهوم الطبقة الاجتماعية فى العصر الحديث فهى طبقة تتبادل العداء مع من فوقها وتحتها ، وهى تتكون من أفراد ذوى طرز اجتماعية واحدة، تربطها المصالح الاقتصادية المتصارعة ، وهى فكرة جاءت الينا من نتائج الثورة الصناعية البريطانية وأصبحت ترتبط بالتقسيم الطبقى الهرمى الشكل حسب المرتبات الاجتماعية والنظم والمكانة • وهى صفة من صفات المجتمع القديم (١) حيث كانت التعاطفات والتضامنات الأفقية للطبقات ، تخفى تنافرها الرأسى ، والذى كان يكتمه ارتباطات التابع للمتبوع ، أو ما نسميها الارتباطات الرأسية ، حيث ترتبط المصالح الأفقية بالطبقة الأعلى الرأسية ، وتعتمد عليها ، بينما يقوم الصراع الأفقى بين ذوى المصالح المتصارعة مثل الصراع بين طبقة ملاك الأرض فى الهند الشرقية والغربية، أو بين البابوات والقياصرة ، أو بين صناع المنسوجات القطنية والتيلية ، ومصدرى المنسوجات الصوفية • وفى المجتمعات الصغيرة سواء فى القرية أو البندر (عواصم الأقاليم) فى المجتمع القديم ، كان الفرد شديد الوعى والادراك بوضعه الاجتماعى المحدد داخل الهرم الطبقى من واقع علاقاته المباشرة مع أعضاء الطبقة الأعلى أو الأدنى ، وليس بالمقارنة مع من هم فى مستواه الاجتماعى فى الأماكن الأخرى والذين لا تربطهم به علاقة ، فالاحتكاك الاجتماعى هو الذى يحدد مفهوم الطبقة • والطبقة الأعلى كانت بمثابة الهراوة التى تنزل على رأس الأدنى اذا ما حاول الخروج عليها لكن فى حياتنا الاجتماعية الحقيقية

Asa Briggs, «The Language of Class in Early Nineteenth Century Englnd, in A. Briggs and J. Saville, Ceditors» **Essays in Labour History, 1960.**

نادرا ما نجد طبقات اجتماعية منظمة تنظيما دقيقا ، فكلمة طبقة Class هى من صنع التقسيم المنظم للرأسمالية [١] .

ان تركيب المجتمع أقرب الى التركيب الديناميكى المتحـرك منه الى النظم الثابته الراسخة ، حتى وان كان المجتمع يحرص على التوازن بين الطبقات ، فالعواصف الشديدة تهب من أن الأخر تقتلع جذور الطبقات مثلما حدث فى ثورة الاصلاح الانجليزية والثورة الفرنسية ، والثورة البلشفية ، وغـيرها من ثورات العالم الثـالث ، حتى فى المجتمعـات الطبقية المحافظة نجد تيارات الصعود والهبوط مستمرة ، فهناك رجال جدد يصعدون ليتبؤا مكانتهم بين الطبقات العليا ، والقادمين من مجالات التجارة والصناعة والحرف وحتى من بين المزارعين ، ولهذا فدراسـة أسماء الأسر الكبرى من ملاك الاقطاعيات وأصحـاب رءوس المـال والرجال البارزين فى مجتمع ما على طول تاريخه تبين مدى هذه الحركة المستمرة فلا شىء يبقى على حاله . كما أن التزاوج والمصاهرة يمثل تيار يصعد برجال الطبقات الأدنى الى الطبقات الأعلى ، يقابلها فى ذلك تيار يهبط ببعض أفراد الطبقات العليا لتقبع بين الطبقـات الأدنى ، والمثل على ذلك واضح فى المجتمع الانجليزى ، الذى كان دائما مجتمعـا متحركا ومفتوحا لكل من يريد أن يصعد الى طبقة أعلى ، وهذه هى صفات المجتمع المستقر غير المكبوت . فلقد خلق المجتمع الأنجليزى استقراره الديناميكى من تلك الطبقة الاستقراطية المثقفة ذات الدهاء الكبير ، والتى تملك الأرض ، والتى تستكمل نفسها دائما من الطبقات الأدنى ، والتى كانت على علاقة وثيقة بطبقات المجتمع الاخرى التى تسيطر عليهـا ولا تعيش بمعزل عنها . كما خلق المجتمع الأنجليزى طبقة وسطى من رجال الأعمال والحرفيين الذين لديهم الحوافز للدخول فى مشروعات صناعية وتجارية كبرى ، ولا تطيق التقوقع فى المدن لتكون من نفسـها طبقه برجوازية حاقدة وميالة الى الثورة ، كما أن المنافسة الاجتماعية التى أحدثها التوسع الصناعى شجعت ونمت الطبقة العاملة والطبقات

(1) Asa Briggs, «The Language of Class in Early Nineteenth Century

الدنيا عن طريق زيادة الأجور وارتفاع الأستهلاك • أما فى فرنسا فقد كان الأمر على النقيض من الوضع فى بريطانيا ، فعزل طبقة الأشراف النبيلة عن مجال التجارة والحرف والذى أتمه وثبته لويس الرابع عشر لم يستطع أن يعيق التطور الاقتصادى فى فرنسا ، بل ربما كـان السبب الأكبر لانتشار السخط السياسى على الأوضاع ، ولهذا كانت الثـورة الفرنسية ثورة سياسية بينما كانت الثورة فى انجلترا ثورة صناعية، والفرق بين نوعى الثورة فى البلدين هو التباين فى البناء الأجتماعى لكل منهما •

٣ ـــ دراسة وظائف أعضاء المجتمع Physiology of the Society

وبعد تشريح المجتمع نبحث كيف يعمل أعضائه وما هى وظيفة كل منها وكيف يؤدى الجسم السياسى وظيفته • ان دراسة وظائف الأعضاء Physiology فى المجتمع تشمل بحث كيف يستمد المجتمع حياته وكيف يستغل طاقاته الطبيعية والبشرية ليحيا ، وكيف يوزع ويستهلك ما ينتج • وما هى الأهداف التى يسعى اليها ويسير نشاطاته من أجلها ، وبأى نوع من السيطرة يحمى بقاءه ويقاوم التغيرات التى لا يرضاها ، وكيف يجدد نفسه بنفسه ، وكيف يحافظ على ثرائه وما حققه أبنـاؤه من مهارات ومثاليات للترثها الأجيال عبر الأجيال • وبأختصار عـلى المؤرخ أن يستخرج « العصارة الاجتماعية » من الأحوال الزراعيـة والصناعية والتجارية ومن توزيع الدخل العام ورأس المال ، ومن الحكومة والنظام العام ومن التشريع والسلوك الأخلاقى ، ومن نظام التعليم بكل أنواعه ، ومن العقيدة والفكر الثقافى والعلمى ومن الأدب والموسيقى والفنون ودرجة التذوق ، ومن الرياضة ، ووسائل الترفيه والتسلية ويبدو المؤرخ على شفا الانحراف فى دوامة الشمول ، لـكنه يجب أن يتفاداها بقدر الامكان •

ان السير فى البحث فى خط مستقيم ليس أمرا صعبا وعسيرا ولنرى الشروط التى وضعها المؤرخون الاقتصاديون للبحث الاقتصادى فيقول

ما كولوك J. R. Maculloch فى كتابة « مبادىء الاقتصاد السياسى (١) »
« لن يصل العالم الاقتصادى الى المعرفة الحقيقية للقوانين التى تنظم الانتاج والتخزين والتوزيع والاستهلاك ما لم يجمع مادته من ميدان واسع المدى • اذ يتوجب عليه ان يدرس الأنسان فى كل حالاته ، وعليه أن يرجع الى تاريخ المجتمع ، والى الفنون والأداب ، الى التجارة والحضارة وأعمال الفلاسفة والمشرعين والرحالة ، وبأختصار يبحث وراء أى شىء يساعده فى القاء الضوء على الأسباب التى تؤدى الى الأسراع أو الابطاء فى مسيرة الامم » وفى هذا الرأى العريض الشامل انضم الى ماكولوك الاقتصادى جون ستيوارت مل John Stewart Mill (٢) وأخيرا البرفيسور آرثر لويس Arthur Lewis (٣) ، لكن هؤلاء الاقتصاديين لم يكن فى بالهم أن يصبح المؤرخ الاقتصادى مؤرخا اجتماعيا محترفا ، ولا ناقدا فنيا ، ولا عالما للاثار ، ولا خبيرا فى السياسة أو فيلسوفا أو مستكشفا ، بل كل ما قصدوه أن يقتفى مؤرخهم اثر القضايا أينما ذهبت به •

ان الألتزام بخط سير البحث يتوقف على القضايا التى يطرحها الباحث وعلى االأجابات التى يحصل عليها ، فمن الصعب على المؤرخ السياسى أن يتفادى مثلا التعرض لظاهرة « الطاعون الأسود » الذى حدث فى أوروبا وأسيا فى القرن الرابع عشر ، ولا يقترب من ظاهرة التكالب على شراء الاراضى الزراعية وحركات الاصلاح الدينى ، أو ظاهرة الانفجار السكانى ، أو اختراع البارود، أو ظاهرة الاضرابات العامة، التى يقوم بها العمال ، والتضخم المالى والقنبلة النووية ، بحجة أن الاوبئة، والزراعة والدين وعلم السكان والنقد المالى والتكنولوجيا الحديثه، والعلاقات الصناعية والعلوم الفيزيائية هى أفرع مستقله وليست

(1) J. R. Mc Culloch Principles of Political Economy, 4th edition, Edinburgh, 1849, p. 21.

(2) J.S. Mill, Principles of Political Economy, 1848.

(3) W.A. Lewis, Theory of Economic Growth, 1955, especilly pp 5--6.

تخصصه ، لكن لا عذر له في ذلك اذا كانت القضايا التى يبحثها تتصل بأحدى هذه الفروع من المعرفة وتؤثر فيها أو تؤثر على القضايا العامة للعصر الذى يدرسه .

ان للمؤرخ الاجتماعى أفكاره الأساسية والتى يستطيع عن طريقها التأكد من أن بحثه لم يضل طريقه ، وفقد خط سيره ، وأن ما يبتغيه وثيق الصلة بموضوعه . فأهتمامه لا يدور حول الزراعة أو الصناعة لذاتها ، وبتفاصيلها ، لكنه لا يستطيع أن يتتبع المجتمع وهو يعمل دون أن يشير اليهما ، ان التركيب الاجتماعى يختلف عن توزيع الدخول تماما وكما يقول ت . هـ . مارشال T. H. Marshall « ان أساس الطبقة الاجتماعية هو الطريقة التى يعامل بها الفرد من قبل مواطنيه ، وبالتالى الطريقة التى يعاملهم بها وليس المزايا أو الممتلكات التى تسبب مثل هذه المعاملة (١) » لكن دراسة النظام الطبقى دون الوضع الاقتصادى وممتلكات أبناء الطبقة سوف تكون بعيده عن الحقيقة ، فضلا على أن الكثير من الأحصائيات التى يستخدمها المؤرخ الاقتصادى سواء كانت عن الدخل ، أو الثروة ، أو البطالة ، أو العمالة ، أو الهجرة ، هى أمور تهم المؤرخ الاجتماعى بالدرجة الأولى لانها تتعلق بالقضايا التى يدرسها ، حتى المؤرخ السياسى سوف يضطر لدراسة مثل هذه الأحصائيات عندما يعالج ثراء الأمم ، ومدى قدراتها العسكرية . وبالمثل فان المؤرخ الاجتماعى لا يستطيع تجاهل المضمونات الاجتماعية للسياسة والتشريع والادارة أو ما نسميها بالسياسة الاجتماعية ، وتأثير السياسة الاجتماعية فى اندلاع الحروب ، كما أنه لا يستطيع أن يتجاهل الاسس الاجتماعية للأرستقراطية الحاكمة أو النتائج الاجتماعية المترتبة على السياسة الضرائبية أو معايير الرخاء ، أو الروابط الطبقية فى تجمعات الأحزاب السياسية ، كل ذلك يؤثر فى طريقة عمل المجتمع وبالتالى فهى من صلب بحث المؤرخ الاجتماعى ، بل وتهم المؤرخ اقتصادى أيضا ، ولهذا فان

---

(1) T. S. Marshall, Citizenship and Social Class, Cambridge, 1950, P 92.

الكثير من المعلومات التى يبحث عنها المؤرخ الاجتماعى سـوف يجدها فى أغلفة الكتب التى تحمل عناوين عن التاريخ السياسى أو الاقتصادى حيث من النادر أن نجد مؤلفات تبحث فى التاريخ الاجتماعى منفصلا ويجب أن يكون فى حسابنا أن التاريخ علم تعاونى • نعم ان النشاطات الاقتصادية والسياسية ليست الأهتمام الأول للباحث فى التاريخ الاجتماعى ، لكنه يدرسها فقط لما لها من تأثير على النشاطات والنظم الاجتماعية ، وليس هناك من بد أمامه غير أن يسير وراء المؤرخ السياسى والأقتصادى اذا كان هناك فائدة لبحثه • صحيح أنه قد يضطر الى الصيد فى نفس البحيرة ولكنه سوف يستخدم شبكة مختلفة ويدير دفة قاربه فى اتجاه مختلف •

هناك أيضا دوامه الأهتمام بالفنون والاداب • فعندما يواجه المؤرخ الاجتماعى حشدا كبيرا من الموضوعات كل واحد منها يحتاج الى عمر كامل لدراسته ، قد يضل المؤرخ الاجتماعى طريقه بسبب التشتت فهو لا يستطيع أن يكون فى كل مكان فى وقت واحد ، كما أنه سـوف يفقد طريقه اذا حاول التعمق فى كل منها ، فالعقائد الدينية ، والعلوم الطبيعية أو الأنسانية أو الموسيقى والرسم والعمارة حتى فن تذوق الطعام والأزياء والاثاث المنزلى وطريقه الزواج والرياضة ووسائل الترفيه كلها موضوعات تغوى الباحث ليضيع فى أغوارها لكنه بفضل وعية بطريقه الذى يجب أن يسير فيه ، والرجوع الى بوصلته الفكرية بين الحين والحين ، ليصحح اتجاهها نحو الهدف المنشود ، فان يضل طريقه ، وما دامت عيناه مركزتان على الهدف فلا يخشى الطريق •

ولنختار مثلا واحدة من الموضوعات السالفة الذكر ، بل أكثرها بساطة وقدما وهى « دراسة الأزياء » التى تبدو من اول وهله موضوعا بسيطا ومبسطا ، بل وتافها ، لكن دراسة الكيفية التى كان يرتدى بها أعضاء المجتمع ثيابهم ، هو موضوع غاية فى الاهمية ، اذ لا يوجد مصدر يستطيع بنظرة واحدة تقريبا أن ينبىء المؤرخ بالكثير عن المجتمع ، ودرجة ازدهاره ، ومدى اتساع الفوارق بين الطبقات ، ودرجاته السلم

الاجتماعى وأسلوبه الوظيفى والدينى والعسكرى ، ومدى تعلقه بروح الأحتفال والأستعراض ، ومدى انعكاسـات مزاجه الهزلى والجـاد ، ونظرته الى النساء، والأطفال ، والخدم ، والطبقات الدنيا، بل عن طريقها نستطيع أن نلم بشىء عن المستوى الأخلاقى ، والصورة المثالية ، التى يرى فيها الرجل أو المرأة ، ولهذا بدأت الامم تعنى بحفظ نماذج من أزيائها عبر العصور فى متاحف خاصة ، وفى حالة تعذر وجود مثل هـذه المتاحف على المؤرخ أن يرجع الى الصـور الفوتوغرافية القـديمة أو الأعمال الفنية من رسومات وتماثيل لدراسة هذه الأزياء. كم يصبح مفيدا عندما نقارن جلباب مدام ريكامييه Récamier البسيط بفسـتان الملكة مارى انطوانيت الارستقراطى المنتفخ ، ان مقارنتهما توضح فكرة أساسية فى المجتمع الفرنسى قبيل الثورة تماما مثل مؤلف جان جاك روسو عن العقد الاجتماعى ، أن دراسة الازياء المختلفة عبر التـاريخ وحسب تباين الطبقات الاجتماعية أمر مفيد للغاية فى البلاد التى تعرضت لتيارات حضارية مختلفة عبر تاريخها الطويل وتباينت فيهـا الطبقات الاجتماعية ،خذ مثلا دراسة الازياء فى مصر من العصور الفرعونية الى الفارسية ، إلى الاغريقية ، والرومانية ، والبيزنطيـة ، ثم العربيـة ، والفاطمية والايوبية والملوكية والعثمانية ، وفى القرن التاسع عسر ، أنها بلا شك ستعرض تاريخا حضاريا وطبقيا لا يقدر بثمن ، وتحلل أصول الازياء الحالية المتباينة فى أجزاء ذلك القطر . أنها مفتاح السر لفهم تاريخ الامة وتركيبة المجتمع . ان موضوع دراسة الازياء عبر العصور تتطلب نوعا خاصا من المجتمعـات المتحـركة والمتنوعة التركيب مثـل المجتمع المصرى . فقـد كانت فيـه دائـما طبقة أرسـتقراطية متغيرة ومفتوحة أمـام الطبقـات الدنيـا الصـاعدة ، حتى أن المحـاكاة والتقليـد من جـانب العنـاصر الاجتماعية الدنيا كانت أحيـانا ترغم الطبقات الارسـتقراطية والثريـة على تغيير زيهـم من آن لآخـر حتى يحافظون على مكانتهـم المتميـزة بصـورة واضـحة ، أن المحـاكاة الاجتماعية من جـانب الطبقـات الاخـرى للطبقـات العليـا والتحـرك الطبقى الدائم هى وراء التغيير الدائم للأزياء ، كما أن تتابع الغزاة الذيـن

فرضوا وجودهم الحضـــارى على البــلاد له التأثير الأكبـــر • فاذا ما استخدمنا هذه الدراسة لالقاء الضوء على تاريخ المجتمع ، والاصول التى يتركب منها سوف يصبح مجالا ثمينا للباحث الاجتماعى والاقتصادى والســياسى •

٤ ــ باثولوجيا المجتمع :

وهى تعنى دراسة الامراض الاجتماعية التى تتمثل فى القضـــايا الاجتماعية ، ومحاولة وضع علاجها ، وعلى حد قول كاننجهام « اننا لا نستطيع فهم الماضى ما لم نحاول تحديد وحصر المشاكل فى كل عصر ، ومدى ما حققته المجهودات الانسانية من نجاح أو فشل فى محــاولة السيطرة عليها » • والمؤرخ الاجتماعى قد يبدأ ببحث خمس موضوعات عملاقة فى حياتنا المعاصرة ، وهى الفاقة والمرض والامية ، والقذارة ، والكسل • وأيضا هناك الجريمة الرذيلة ، وعدم التسامح والحــرب الاهلية ، وهى ظواهر فى أغلب المجتمعات وفى كل العصور • وعندما يبحث المؤرخ الاجتماعى هذه الموضوعات سوف يجد نفسه فجأة وهو يتعرض لسياسة الحكومة ، ونظام العلاقات ، والادارة الاجتماعية ، وهو العقوبات ونظام الامن والشرطة ، والجمعيات الخيرية الاهلية ، والضمان الاجتماعى ، ولجان التبرعات الخيرية ، وقياس الروح التعاونية بــين المواطنين ، ومدى التزامهم بحسن الجوار •

ان قضية الصراع الأهلى أو الاجتماعى بين الفئات والطوائف والنظم والطبقات داخل هيكل المجتمع الواحد هى واحدة من أكثر القضايا التى تتعرض لها المجتمعات ، حتى أن كارل ماركس لم يعتبر التاريخ ســوى تاريخ الصراع بين الطبقات • والى أى حد تعتبر المعادلة التى يصــــورها الماركسيون لنا فى التاريخ على أنهــا صحيحة ، وهى الاســتغلال من جانب الطبقــة الرأسمالية ورفض ذلك الاســتغلال من جــانب الطبقات المغلوبــة على أمرهــا ، ثم تضــاؤل حجــم الطبقة المستغلة وتزايد دائــرة فقر وتعاســة الطبقة التى تستغل ، وأخــيرا يأتى الانفجــار

(1) Cunningham, op. cit, P. 24.

الثـــورى الدموى الحـــاسم والذى يأتى على النظـــام الطبقى بأكمله ، وهـــل هـــذه النظرية حتميـــة ولا مفر منها ؟ أنه لمن الصعب القبول بهـــذه المعـــادلة الا بعـــد وضعها تحت ملاحظـــة دقيقـــة •

ان أصل نظرية الصراع الطبقى يرجع الى الثورة الصناعية التى أطلقت العنان لرواياتها عن انتشار السخط وانفجار الغضب والتى عليها بنى كارل ماركس نظريته ، والتى تبدو كما لو كانت تصويرا لصراع ما قبل ظهور الطبقات الاجتماعية وليس الصراع الطبقى • وفى مجتمع مهيـــأ لتطبيق فكرة للطبقة الاجتماعية مثل قلب العصر الفكتورى ، الذى يلى ذلك العصر مباشرة ، نجـــد أن الصراع يقـــوم على أسس واضـــحة ، ثم يتحول الى شـــكل مقبـــول عن طريق ربطـــه بهذه الاسس ، عن طريق المفاوضـــات بين العمـــال وأصـــحاب العمـــل ، وعن طـــريق الانتخابات النيابية ، وما يرويه المؤرخون الماركسيون عن العنف الذى حـــدث فى عصر اللوديـــين Luddites (١) — أو أنصـــار الميثاق Charistes (٢) الاصلاحى للعمال ، فان ذلك كان بمثابة المخاض الذى تعرض له المجتمع القديم ليلد المجتمع الحـــديث والذى كان يكافح داخل الرحم من أجل الظهور إلى النور ، ففى المجتمع القديم لم يكن صراعا من جانب الرافضين والساخطين بل كان صراعا حتميا بين شركاء لم يتخذ الصيغة السلمية مثل الاضراب أو المفاوضات انما اتخذ شكل العنف والتمرد والذى قوبل بالقمع العسكرى والصرامة القانونية •

ان كارل ماركس نفسه يعترف بأن المجتمع الطبقى الجـــديد ينسف نظريته عن الصراع الطبقى من أساسها ، اذ حلت الاتجاهات الطبقية

---

(١) هم جماعة من العمـــال الانجليز عمدت فى أوائل القرن التاســـع عشر الى تحطيم ماكينات وآلات المصانع لاعتقادهم بأنها سوف تؤدى إلى تناقص الطلب على الايدى العاملة وانتشار البطالة •

(٢) هم جماعة من المصلحين السياسيين الانجليز فى القرن التاسع عشر هدفت الى تحسين اوضاع الطبقة العاملة من الناحيتين الاجتماعية والصناعية عن طريق وضع ميثاق يضمن لهم ذلك على غرار ميثاق الماجنا كارتا •

المستنيرة والناضجة، محل الثورة، والمراهقة الفكرية، الأوروبية، التي كانت سائدة في المجتمع القديم ، ومن ثم خبت نيران العنف تدريجيا وبدأ الاتجاه نحو الصراع المسالم Pacifism . وذلك منذ منتصف العصر الفكتورى . أليس من الممكن أن يكون الصراع الطبقي هو مثل العلاقة الطبيعية بين الزوجين اللذان لا يقدر إن على العيش دون شجار ، وفي نفس الوقت لا يستطيع أحدهما العيش بدون الآخر ؟ وأليست الثورة العنيفة هي تنوع باثولوجي يؤدي الى تمزيق عقد الزواج وهو أمر لا تنتهى اليه كل الزيجات ؟ ولقد نجحت كثير من البلدان في تطبيق فكرة الاصلاح السلمي التدريجي ، ووفرت على نفسها الكثير من دمار الثورة وجرابها ومآسيها .

٥ ـ التحليل النفسى للمجتمع أو سيكولوجيا المجتمع : ـ

وفي ضوء تحليل سيكولوجية المجتمع نستطيع أن نحل الكثير من المشاكل الاجتماعية ونتفادى الأخطاء . والتحليل النفسى للمجتمع هو بحث الطريقة التى يتفاعل بها مع نفسه والأهداف التى يسعى اليها ، وكذلك المعايير الاخلاقية التى يمكن أن نقيس بها مدى نجاحه أو فشله والرأى العام الذى تضعه المجتمعات فى اعتبارها وفى سلوكها ، والمثل العليا التى تسعى اليها لاشباع طموحها وأمانيها . كل ذلك يرتبط بعلم النفس الاجتماعى ، وبدراسة سلوك الجماعات ، لكن يتوجب علينا أن لا ندع هذا التعبير المجازى يقودنا الى الخطأ معتقدين أنها تعنى التحليل الذاتى للمجتمع ، أو أنها تعنى المرادف التاريخى لها . انها تتعلق بالجانب الاجتماعى للمعرفة أو كما يسميه المختصون سوسيولوجيا المعرفة (١) ، وهى التى تحاول اكتشاف الموطن الاجتماعى للافكار والأيديولوجيات ، وتمد المؤرخ بالافتراضات التى يمكن اختبارها عن طريق المجتمع ، فهو مثلا يستطيع أن يتساءل هل يحمل القرن الثامن عشر فى بريطانيا (وهو المجتمع الذى عاش فيه كارل ماركس) نفس اعتقاد كارل ماركس بأن أفكار الناس تحتمها علاقتهم بوسائل الانتاج ؟ واذا كان ذلك كذلك فلما

---

(1) Cf. C. W. Stark; The Sociology of Knowledge, 1958.

هى علاقة كارل ماركس الخاصة بالنظام الاقتصادى الذى كان قائما وقتذاك ؟ • وعن طريق التحليل السيكولوجى للمجتمع يستطيع أن يتساءل لماذا نلاحظ أن أغلب العقليات الاصلاحية فى ذلك القرن بما فى ذلك كارل ماركس وجرميا بنتهام Jermiah Bentham والاقتصـــاديون الكلاسيكيون ، والاشتراكيون والمسيحيون ، والفابيون والمثاليون منجماعة اكسفورد لايأتون من الطبقات الاجتماعية الكبرى الثلاث، وهى طبقة ملاك الضياع الزراعية ، وطبقة الرأسمالية أو البروليتاريا ، انما ينتمون الى الطبقة الوسطى من الموظفين أو الفنيين وهى الطبقة التى كانت منسية • ان الاجابات على هذه الأسئلة سوف تقود الى تثوير الطريقة التى نتناول بها تاريخ القرن التاسع عشر •

ان لكل مجتمع مثله العليا التى يرسم فى ضوئها الحياة الطيبة والتى يساعد الناس على اتباعها ، كما أن هناك علاقة بين المجتمع وبين الانـــا العليا Super-ego أى الدولة • فمثلا كان النموذج الاجتماعى المثالى فى مجتمع الاقطاع هو ذلك الفارس المغوار الذى يتفانى فى خدمة العقيدة والوطن ومولاة الاقطاعى ملتزما بالعهد الذى كان يقطعه على نفسه ، وفى العصر الذى تلى عصر الاقطاع أو عصر ما قبل الرأسمالية أصبح النموذج الاجتماعى هو ذلك الاقطاعى المهذب ، والرحيم ، والذى يشغل وقت فراغه بعدد من الهوايات المفيدة ، وهو حر يستمتع بالمال الذى يأتيه من كد الآخرين وكانت أهدافه فى الحياة هى استمتاعه بها ، وفى مجتمع الرأسمالية أصبحت الصورة المثالية هو صاحب المؤسسة التجارية أو المقاول entrepreneur الذى يمقت الكسل ويعمل كادحا فى عمله ويقدم فرص العمل لمن يستحق ويقدر ، ويتبرع للمؤسســات الاجتماعية التى ترعى الفقراء غير الجديرين بالعمل •

أما فى القرن العشرين فان الصورة المثالية المجتمع هو ذلك الفنى المبتكر والخبير المحترف وهو وحده دون الآخرين يستمتع باحترام وتقدير المجتمـــع •

ووراء العمل أو المهنة تقبع الصور المثالية لما يجب أن تكون عليـــه

الحياة الانسانية وهنا تكمن المنابع لسيكولوجية المجتمع ، فمنها تتدفق صفات ونوعيات الفكر الاجتماعي وغايات المجتمع ذاته ، سـواء كان ذلك التفانى فى خدمة شريعة الله ، أو فى خدمة الخطة الخمسية ، سواء كانت لتعذيب الملحدين والمهرطقين ، أو لتقديم المواساة للشهداء الابرار مثل الحجاج الذين يموتون وهم فى طريقهم الى بيوت الله الحرام ، أو فى الاضطهاد العنصرى ونظريات الأستعلاء العرقى ، أو البحث عن الزمن المفقود recherche de temp pardu فى عصر كان ذهبيا ، أو فى البحث عن جذور النار المتوقدة تحت رماد مجتمع الاجيال القادمة ، أو ملىء البرزخ الضيق الذى يفصل بين حياتين أبديتين ، أو فى توسيع الخطى نحـو التقدم ، أو فى البحث عن الحقيقة بين فجوات النظريات السلطوية أو فى هاوية التحرر النابعة من اضفاء الشك على الوجود ذاته ، أو فى الكوارث العالمية ونهاية الوجود ، ومن ثم سوف يجد المجتمع نفسه وهو لا يدرى يخلق لنفسه صبورة مثالية يشغل بها نفسه • وليس شرطا أن يصرخ البعض بهذه المبادىء الحقة علنا من فوق منصات الخطابة أو فى التجمعات أو فى الحديث عنها بلهجة المثقفين المتحذلقة • انما أحيانا نجدها فى حوار هادىء داخل مكان مغلق خاص • اننا نستطيع أن نلمس القيم الحقيقية للمجتمع من خلال الحديث اليومى لربات البيـوت ، والازواج العاديين • فكلما اقترب المؤرخ من هذا المستوى كلما أصبح قريبا من القوة المولدة لنفسية المجتمع وتكون الدائرة قد اكتملت • ففى الموضوع المتماسك تلتقى كل الشعاب فى بؤرة واحدة مهما التوت وتعرجت ، وكل طريق يعود بنا الى حيث بدأنا • فالجسد السياسى وعلم البيئة والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأمراض وعلم النفس الاجتماعى تتداخل مع بعضها البعض،لان المجتمع كالجسد جهاز واحد يقوم كل عضو فيه بوظيفة معينة ومن تعاون الاعضاء مع بعضها تتحقق الحياة ، وكل عضو يؤثر فى الآخر ويتأثر به •وبالاضافة الى ذلك لا يوجد مجتمع يستطيع أن يعيش منعزلا عن سائر المجتمعات الاخرى أو عن المجتمع الاكبر للبشرية والذى هو الجسد الاكبر للجنس البشرى ، كما يجب أن نضيف الى ذلك بعدا أكبر وأعم وهو العلاقات المتبادلة بين المجتمعات البشرية المختلفة

والدراسات المقارنة لنظمها وبنائها ومدى ارتباطها. سواء أرادت أم لم ترد — بالتطور أو التدهور الذى هو محتم عليها . كل هذا العمق من الدراسات جعل عالمنا الحديث عالما واحدا ، يمثل جسدا واحدا ، وجعل كل المجتمعات البشرية أعضاء فى هذا الجسد ، وعلى الدرجة التى تعمل بها يتوقف مصير هذا الجسد ، سواء نحو التطور أو التدهور والفناء .

واذا كانت دراسة التاريخ الاجتماعى بمثل هذا المتسع فان تحديدها فى فصل من كتاب يبدو عملا صعبا ، كما أن تغطيتها كاملة فى دراسة تاريخية يبدو عملا خارقا ، فلا يوجد مؤرخ واحد ، يقدر أن يقول كل ما يجب أن يقال عن المجتمع ، فالحياة متسعة ومتنوعة وعمر الباحث لا يكفى لمثل هذا العمل . لكن لابد أن يتوصل الانسان الباحث الى حقائق تتعدى ما هو بين يديه فعلا والا أصبح يجيز ما يقوله الآخرون وبلا هدف محدد . ولحسن الحظ بالنسبة للمؤرخين ، فان كتابة التاريخ ليس لها نهاية ، وأكثر الدراسات التاريخية هى استمتاع مشوق للباحث ، أما من ناحية الممارسة والتطبيق فان تدريس التاريخ الاجتماعى بمعزل عن الافرع الاخرى للتاريخ لا يقل صعوبة واستحالة عن تدريس التاريخ السياسى والاقتصادى بمعزل عن بعضها البعض . ومن مزايا التاريخ كجزء من تعليم المعرفة أنه يمكن تفصيله حسب مقاس الدارس سواء كان مبتدئا أو متعمقا ، وبالتالى يمكن تقديم ما يمكن تقديمه فى مستوى القارىء ، حسب الوقت المتاح فيحقق الافادة والمتعة دون الانتظار الطويل للقضايا ، التى لازالت قيد البحث

ويبقى أمامنا بعد ذلك قضيتان هامتان وهى طريقة العرض وقضية المصادر . وبالنسبة للاولى فان المؤرخ لا يستطيع عرض كل جوانب المجتمع المعقدة فى بحث واحد ، أو يسجل فى لقطة علمية واحدة المجتمع وهو فى حالة تحرك وتفاعل (١) ، كما أنه لا يقدر على كتابة التـــاريخ السردى والتحليلى فى آن واحد . لكنه فليحاول بقدر الامكان الجمع بين الاثنين .

(1) J. H. Hexter, A: New Framework for Social History, Journal of Economic History, XV, 1955, P. 423.

كما يستطيع أن يعرف الكثير من الدراسات التاريخية المحلية التى تعالج مجتمعات محدودة عبر فترة زمنية محددة . أما بالنسبة للموضوعات الكبيرة فان فى تقسيماتها الى فترات زمنية ضالته المنشودة ، وما دام على المؤرخ أن يتقدم بدراسته الى الامام حسب العصور ، فعليه أن يختار وعيناه مركزتان على الهدف الأشمل وعلى أنها جزئيات زمنية فى الجسم الاجتماعى الاكبر . لكن للتقسيم الزمنى صعوباته ومشاكله ولا توجد نصيحة مثالية نقدمها سوى أن التاريخ يجب أن يكون كالشعر ينساب على سجيته دون اجبار للنفس ، ويتخلق فى هدوء وتلقاء كما تنمو الوريقات الخضراء على فروع الشجر .

أما فيما يختص بالمصادر ، فعليه أن يجمع مادته من أفق واسع ، وكل ما وصل الينا من البناء الماضى فى أى شكل ونوع ابتداء من خطابات الغرام الى احصائيات الدخول والضرائب ، من المصنوعات الفنية التى لا حصر لها ، من الملابس الى أدوات الطهى التى هى أدوات الحياة اليومية ، وباختصار كل ما أنتجته الحضارة فى الماضى من معابد ومقابر ومنازل ورسوم دقيقة ، من أطلال القرى القديمة الى معالم العمران فى الريف الحديث . المهم هو كيف يستغل هذه المعلومات استغلالا صحيحا . كذلك يتطلب الأمر من المؤرخ الاجتماعى أن يكون خبيرا فى قرءاة الوثائق والمخطوطات ، ولديه هواية بعلم الآثار ، وخبيرا بفن الاحصاء والتعداد والتخطيط ، بل ومحبا للفنون ، وذواقا للآداب ،كما يجب أن يكون مؤرخا أدبيا وناقدا فنيا ، وقبل كل شىء أن تكون له عينان نافذتان وحاسة قوية ليفرق بين الغث والسمين ، وليكن معياره : كل ما يعطى أكثر عن الحياة الاجتماعية فى الماضى فهو أفضل لكن فى نفس الوقت يجب أن يحترس من الاعمال الادبية التى تجنح الى الخيال عند تصوير المجتمع ، ويشترط الدكتور ليفيس Dr. F. R Leavis أن يكون الباحث فى التاريخ الاجتماعى ناقدا متمرسا فى الأدب اذا ما أراد أن يستخدم المؤلفات الأدبية كمصادر عن المجتمع الذى يدرسه(١) .

---

(1) F. R. Leavis, The Common Pursuit, 1953, P 194.

ومن ناحية أخرى فان على المؤرخ الاجتماعى الواعى ألا يجمع أدلته من مصدر واحد ، بل لابد من تنويع مصادر البحث ، حتى داخل العمل الأدبى الواحد ، هناك أجزاء لابد من اسقاطها وهناك أجزاء يزداد الاهتمام بها • هذا التنوع الفكرى والمعرفى هو ميزة بين يدى المؤرخ تعطيه الحق فى تنسيق المعلومات التى يستقيها من مصادر متنوعة ليخلق منها مادة تاريخية منسجمة ، فمثلا لوحات الرسم القديمة ، خاصة وان كانت تصور مناظر واقعية من الحياة ، وليست ذات موضوعات من الاساطير ، قد تصور لنا قطاعا من الحياة وتصبح كالمرآة الصادقة • ولعل الاسكتشات من رسومات الفنانين الفرنسيين الذى جاءوا مع نابليون بونابرت الى مصر لخير دليل على ذلك ، فقد سجلوا الحياة المصرية ابان أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، والذى يتصحف الكتاب الخالد « وصف مصر » سوف يجد العديد من رسومات الناس ، وملابسهم ، بل للمناطق الاثرية ، والعمرانية ، تبين أسلوب الحياة فى مصر ابان تلك الفترة •

ليس شرطا ، أن يكون المؤرخ الاجتماعى خبيرا ، فى كل فرع من فروع الثقافة ، التى سبق ذكرها ، والتى لها اتصال بمصادرة • لان فى ذلك اعجاز له ، لكن ما نريده منه هو أن يكون ملما وليس متخصصا تخصصا رفيعا فى كل فرع من فروع المعرفة الانسانية ، فمثلا لا يشترط أن يكون المؤرخ متخصصا فى العلوم لكى يبين نتائج اكتشاف قانون الدفع ، وبالمثل لا يشترط أن يكون موسيقارا أو خبيرا فى تخطيط المدن ، أو باحث فى اللاهوت ، فالرجل المثقف هو الذى يفهم كل ما تحويه الصحيفة دون أن يكون خبيرا فى كل ما تحويه مثل : — الشئون السياسية والدبلوماسية والقانون ، والاقتصاد ، وأسواق التكنولوجيا ، والاتيكيت ، والعرف الدولى أو فى فن الازياء ، والنقد الادبى ، وفن الدعاية ، وعلم الولادة ، والتعارف بين الجنسين من أجل الزواج ، والتأمين على الحياة ، وحل الكلمات المتقاطعة وبالتالى نستطيع أن نقول أن المؤرخ الاجتماعى المثالى هو الرجل الواسع الالمام بالثقافة وكل نشاطات المجتمع •

وبالرغم من كل هذه المتطلبات والشروط الصعبة بدأ التاريخ الاجتماعى يأخذ مكانة على مسرح الدراسات التاريخية ، ويقدم أشياء مثيرة لدارس الفروع الأخرى ، فقد دعا فريق من المؤرخين الانجليز الى اعادة كتابة التاريخ من زاوية اجتماعية Socialized History حيث يركز المؤرخ فيه اهتمامه على الناس كمجموعات بشرية وليس على الأفراد فقط كما هو الحال فى التاريخ السياسى الذى يركز اهتمامه على القـادة والزعماء .

وهناك فريق يدعو الى دراسة المجالس والبرلمانات من أجل الدراسة الديموغرافية حول التجمعات البشرية الهامة فى حياة الأمم ولو فى شكل هيئات ومجالس وأحزاب ، وفريق آخر يدعو الى دراسة ظاهرة الحرب ـــ خاصة الحروب الأهلية ـــ من زاوية اجتماعية ، حيث نربط بين القلق والتخلخل الاجتماعى واندلاع الحروب ، كما يحاول البعض الآخر دراسة عما اذا كان هناك دوافع اجتماعية وراء الازدهار الاقتصادى ، وتحديد العناصر الاجتماعية المطلوبة من أجل خدمة النمو الاقتصادى كما أن هناك من يرى أن الاتجاه العالمى الحديث هو تصارع النظريات حول طريقة تنظيم المجتمع ، سواء كان تلك الشيوعية أو الاشتراكية أو الرأسمالية فى كل هذه الحالات نجد التاريخ الاجتماعى يقدم مفاهيم جديدة لم تكن متوفرة من قبل لجيل جديد من المؤرخين . ولكن هل يستطيع التاريخ الاجتماعى أن يذهب أبعد من هذا ويترك دور الوصيفة للدراسـات التاريخية الكبرى ليلعب دور الأميرة على مسرح التاريخ ؟ نعم ففى أفق الدراسات التاريخية الحديثة تلوح بشائر التغيير التى تدعو الى الاتجاه الاجتماعى الشامل ودراسة حقب التاريخية اجتماعيا وحضاريا وليس سياسيا واقتصاديا فقط ، بل أن كبار الناشرين بدأوا فى أعداد سلسلات خاصة بالتاريخ الاجتماعى (١) ، حتى المشرفين على سلسلات التاريخ

(1) William Heinman Ltd, Knigswood Social History Series (Edited by H.L. Beales and O.R. Mc Gregor) ; Routledge and Kegan Paul ltd, Studics in Social History, (Edited by H.J. Perkins, Longman Green and Co. Ltd.

السياسى بدأوا يضمون اليها الجانب الاجتماعى كجزء مكمل لا يمكن فصله (١) ، الى جانب ذلك ، بدأت الدوريات العلمية المتخصصة فى التاريخ الاجتماعى فى الظهور (٢) ، كما أن جامعة سكس Sussex البريطانيه أنشأت أول كرسى للتاريخ الاجتماعى فى بريطانيا • حيث كان الأساتذة آسا برجز Asa Briggs أول من شغل هذا الكرسى •

ان الدعوة لتطوير الدراسات التاريخية تتطلب معالجة التاريخ العام والتاريخ السياسى ، والتاريخ الاقتصادى ، بمفاهيم جديدة ، فالدراسات التاريخية المقارنة التى سماها كل من باريتو Pareto وتوينبى وكول « الدراسات الرفيعة » هى تلك التى تتعاون فيها دراسة السلطة السياسية مع دراسة القوة الاقتصادية ، ودراسة الجذور الاجتماعية كشركاء متساويين فى عمل تاريخى واحد • وقد دعا الاستاذ هكستر الى الاتجاه نحو هذه الدراسة الشاملة (3) •

ان مثل هذه المعالجة الجديدة للتاريخ العام قد تميط اللثام عن أهمية الدوافع والتيارات القادمة من القاع الاجتماعى • ولا نعنى أبدا العودة فى الاعتقاد « بالحتمية » لاننا نؤمن بأن الناس أحرار فى اختيار غاياتهم وأهدافهم فى ضوء ما يبدو لهم هو الاحسن سواء كان ذلك على المدى القصير أو البعيد • ان الغايات التى كان الانسان يبحث عنها دائما فى حياته الاجتماعية هى الهيبة الاجتماعية Prestiege والاعجاب Admiration والشهرة Fame والثقافة Culture والمعرفة Knowledge والتفهم Understanding ، والحياة الاسرية السعيدة والعطف الانسانى ازاء البشر Philanthropic ، والبعث المعنوى الروحى أو Spirtual rabirth ، أو المتعة الطائشة enjoyment un-reflecing كلها دوافع لها جذور اجتماعية كما أن لها جذور سياسية أو اقتصادية ، بينما لو وضعنا الثراء الاقتصادى والسلطة السياسية تحت الفحص

(1) Economic and Social History of England (editel by Asa Briggs).

(2) The International Review of Social History, Instituut Voor Sociale Geschiednis - Amsterdam.

(3) J.H. Hexter, «A 'New' Framework for Social History' Journal of Economic History, XV, 1955, p. 423.

الدقيق سنكتشف أنها وسائل من أجل تحقيق غاية اجتماعية .. والحتمية determinism وهى فى الاساس تفسير لطبيعة الانسان .. والحتميون يربطونها بأغلبية الناس أو على الاقل بغالبية هؤلاء الذين يشغلون المناصب الحيوية أى الاهداف الوظيفية لجماعة محدودة من الناس ، وهذه الاهداف سواء كانت ممثلة فى السلطة السياسية ، أو الملكية الاقتصادية ، هى غايات اجتماعية فى حد ذاتها . ان الاهداف الاجتماعية كثيرة ومتباينة حتى أنها تساعدنا على تبسيط الطبيعة الانسانية المعقدة . وبما أن الانسان لا يمكن أن يكون انسانا الا من خلال المجتمع الذى يعطيه هذه الصفة ، بل لا يصح أن يكون متحضرا الا من خلاله أيضا ، فليس هناك تعبير أدق ولا أوضح للطبيعة الانسانية من قول أرسطو « الانسان حيوان اجتماعى » .

ان لكل عصر اهتماماته وتفسيراته للأحداث التاريخية ، واهتمام العصر الذى نعيش فيه اهتمام اجتماعى ، لاننا لا نريد ن نعرف ما هى القوانين التى كانت فى الماضى ، ولا أى المعارك التى خاضها الناس فى التاريخ فحسب ، بل نريد أن نعرف أيضا كيف كانوا يمارسون حياتهم من خلال مجتمعهم ، وماذا كانوا يشعرون وهم يمارسون مثل هذه الحياة ، ولايهمنا الاكتفاء بمعرفة حياة وسلوك الرجال البارزين من ملوك وزعماء وسياسين وأثرياء ، بل يهمنا أيا أن نعرف كيف كان البسطاء من الناس يمارسون حياتهم وكيف كانوا يفكرون ويتعاملون مع بعضهم البعض . فالقضايا الاجتماعية هى قضايا العصر ، ولقد بدأت المسائل الاجتماعية ، منذ النصف الاخير من القرن العشرين ، تأخذ مكانها فى السياسة الدولية ، أليست السياسه هى الموضوعات التى نناقشها فى مجتمعاتنا الخاصة والعامة ؟

ومن هذه النقطة نقول أن « سندريللا » الدراسات التاريخية سوف تعود الى كرسى الأمارة قريبا لتجلس بين التاريخ السياسى والاقتصادى ان لم تكن قد بدأت فعلا طريقها لتجلس على عرش الدراسات التاريخية بأكمله .

رابعا : مدرسة التاريخ العالمى .

المدرسة الرابعة فى مدارس كتابة التاريخ هى المدرسة العالمية أو

مدرسة التاريخ الدولى Universal History والتى تعرف أحيانا بأسم Oecumenical History وهى أقل أفرع التاريخ شيوعا لقلة المتخصصين والباحثين فيها ، بالرغم من كونهـا أقرب المـدارس الى اهتماماتنا المعاصرة ، وأكثر قربا لمشـاكل العالم المعاصر . وهو يتواجد لأنه انعكاس لوحدة العالم ، التى حققتها الثـورة الـكبرى فى العلوم والتكنولوجيا ، والتقدم المذهل التى حققه الأنسان فى القرن العشرين فى مجال وسائل المواصـلات وطرق الأتصال الأعلامى ، مما تنتج عنه حقيقة واقعة ، وهى أننا لا نستطيع أن نعيش فى معزل عن الأحداث ، التى تحدث فى أى ركن من أركان المعمورة ، فما يحدث فى دول صغيرة فى أفريقيا أو أسيا أو أمريكا اللاتينية تدركه ونتأثر به ، والعالم أصبح « كالجسد الواحـد اذا أصيب فيه عضو ، تداعت له سائر الاعضـاء بالسهر والحمى » ، اكثر من ذلك فأن ظاهرة المجتمع الصناعى والمتقدم فى مجال التكنولوجيا ، والذى نبع فى أوروبا والولايات المتحدة ، أصبح الأن النمط العام ، والنموذج الذى تحتذى به المجتمعات الجديدة فى الدول النامية ، ولم تعد دول أوروبا وحدها هى التى تؤثر فى الأحداث العالمية ، بل أصبحت دول كثيرة ــ لم يكن لها أثر كبير فى أحداث العالم من قبل ــ مثل الصين والهند ودول العالم العربى ودول أمريكا اللاتينية ، تلعب دورا نشطا ومؤثرا فى أحداث العالم السياسية ، ولم يكن ذلك فى حضارة العصر الحديث فحسب ، بل كان موجودا فى حضارات العالم القديم ، وحضارات العصور الوسطى ، فالحضارة الانسانية المعاصرة هى نتاج التراكم العالمى للمعرفة والتعاون ، فحضارة مصر القديمة واليونان والرومان ، والصين ، والحضارة العربية الأسلامية تتداخل مع حضارة أوروبا الحديثة ، وتكون جزءا من الخلفية الحضارية للعالم الحديث . وخلاصة القول ، فأن نفس القوى التى غيرت من نظرتنا الى الحاضر تفرض علينا أن نغير نظرتنا الى الماضى ، لنعالج الانسانية فى كل أجزاء

---

(١) اعتمدت فى هذا الجزء على مقال الاستاذ ج باراكلاو :
G. Barraclough : Universal History (in Approaches to History - A Symposium) pp. 83-109.

الأرض ، وعبر كل العصور ، وقديما قال الشاعر الرومانى تيرينتيوس Terentius : ان كل ما يهم الانسان ، يهمنى •

من الخطأ اذن ، أن نعزى سبب اهتمامنا بالتاريخ العالمى الى التغيرات السياسية العارمة التى شهدها العالم منذ عام ١٩٣٩ ، لأننا عندما نعود الى كتابة التاريخ عالميا ، فأننا نعود الى تقليد قديم ، يعود الى ما قبل القرن التاسع عشر ، وهو أصول الدراسة التاريخية النقدية والتى ظلت قوية وصامدة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ففى نظر هذه المدرسة كانت فكرة دراسة التاريخ عالميا فكرة تتماشى مع نظرية التطور ، والقائلة بأن التاريخ فى اضطراد متصل ومستمر ، منذ عصور الهمجية البدائية الى عصور العقلانية والمنطق والفضيلة والحضارة الحديثة ، والتى كانت تتناسب مع روحها الدنيوية ومنطقها العلمى • فعلى طول الفترة التى ظلت فيها التوراة سلطة فكرية لا يمكن تحديها ، وبالتالى فأن كل الأحداث التاريخية المعروفة كانت توضع بشكل ينسجم مع المفهـوم التوراتى الثابت (١) ، ومن ثم فقد كان من الصعب كتابة التاريخ بالشكل العالمى الذى نتصوره اليوم ، ولما قامت حركة الاصلاح الدينى فى أوروبا بدأت سلطة الفكر التوراتى تضعف ، ومن ثم بدأ الفكر التاريخى العالمى يتخلق ببطىء متخذا وقتا طويلا فى مساره نحو الشكل العلمى • لقد سارت التفسيرات التاريخية القديمة منذ عصر القديس أغسطين ، وأوروسيوس Orosius الى نسـق الالهـام المسيحى فتقسـم التـاريخ القـديم الى عصور تتناسب مع الأمبراطوريات التى قامت فى العالم القديم والتى ورد ذكرها فى سفر دانيال وهى المصرية ، والأشورية ، والفارسية ، واليونانية والرومانية ، أما الشعوب التى تقع خارج دائرة الفكـر

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك ، فرض انتماء شعوب العالم الى نسل نوح عليه السلام ، فابنه شام Shem أطلق على اسم شعوب آسيا الغربية (الساميين) ، وابنه حام ، أطلق اسمه شعوب الأفريقيه ، ويافث Japhet أطلق اسمه على شعوب اوروبا . وقد ظل ذلك التفسير ثابتا لا يقبل الجدل حتى نهاية القرن السابع عشر انظر :

Denys Hay, Europe: The Emergence of an Idea, 1957, P. 108.

اليهودى — المسيحى فلا وجود لها . وآخر المؤلفات التاريخية التى كتبت بهذه الروح هو كتاب بوسويه . Discours sur l'histoire Universelle والذى صدر عام ١٦٨١ ، لكن الكشوف الجغرافية والأثرية فى العصر الحديث جعلت من الصعب التوفيق بين منطق وتراث التوراة ، وبين المعلومات الحديثة ، فنجد المؤرخ الفرنسى الكالفينى اسحق دى لابيرير (١) يعلن عجزه عن التوفيق بين تاريخ الصين وبين قصه آدم وحواء ، كما نجـد المؤرخ الهولنـدى هورنيـوس Hornius ، يمهـد الأرضيـة . للكاتب الفرنسى فولتير Voltaire فى أول محاولة لكتابة التاريخ العالمى وهو « مقالات فى أخلاق وروح الأمم

Essai sur les Moeurs et l'Esperit des Nations

والذى صدر عام ١٧٥٢ ، كما مهد ذلك أيضا للمـؤلف التعاونى الكبير لتاريخ العالم ، وهو الأول من نوعه ، واذى صدر فى انجلترا ابتداء من عـام ١٧٣٦ ، أدان فولتير بوضـوح منطق بوسويه لأنه ظلم العـرب والبابليين والفرس ، وأنه تجاهل أهل الصين والهند ، وباختصار رفض فولتير هذا العمل لأن وجهة نظر بوسوية أقل عمقا من المتطلبات الأساسية لكتابة التاريخ عالميا .

ومن الأنجازات الكبرى فى مجال البحث التاريخى فى القرن الثامن عشرادخال الشعوب غير الأوروبية ، والتى لم تذكرها التوراة ، داخل نطاق حقل التاريخ ، وبذلك تحولت فكرة التاريخ العالمى الى حقيقة ممكنة وقد ارتبط هذا الانجاز بمدرسة جوتنجن Göttingen الألمانية منذ عام ١٧٦٠ . والتى راحت تبحث وتناقش المنهج والتطبيق لكتابة التاريخ العالمى . غير أن هذا التفكير المبكر ، الذى كان يعكس عصر المنطق ، سرعان ما تداعى بعد قيام الثورة الفرنسية ، ومنذ نهاية القرن الثامن

---

(١) كالفينى نسبة الى مذهب كالفين اللاهوتى الفرنسى البروتوستانتى (١٥٠٩ — ١٥٦٤) والقائل بأن قدر الانسان محتوم ومرسوم قبل أن يولد انظر : — الدكتور السيد رجب حراز : عصر النهضة دراسة فى الحضارة الأوروبية الحديثة .

الأوروبية الحديثة . دار النهضة العربية ١٩٧٤ ص ٤٧٢ — ٤٧٥ .

عشر وحتى الحرب العالمية الأولى ، بل والى حد كبير حتى الحرب العالمية الثانية ، بدأت شمسه فى المغيب ، حتى كاد أن يهجر تماما .
ومن الأسباب التى دعت الى ذلك الاعتقاد بأن محاولات القرن الثامن عشر فى كتابة التاريخ العالمى كانت سطحية ، ولا تكفى لعرض تاريخ العالم كوحدة واحدة ، حقا لقد كانت محاولات القرن الثامن عشر ناجحة من ناحية الفكرة والأهتمام ، لكنها لم تكن ناجحة من ناحية التنفيذ ، اذ عبرت عن رؤيا التقدم والتطور الانسانى فى مجال المجتمع والثقافة ، بدلا من وضع تقديم زمنى للمعارك وللاحداث السياسية والتاريخية ، وخرجت فى النهاية بمجموعة من التعميمات السطحية ، واستخراج نماذج ذات طبيعة فلسفية ، فرضت نفسها فرضا على التاريخ وجاءت من خارج مجاله ، دون نقد أو فحص أو دراسة تفصيليه وتحليلية للوثائق التاريخية ، حتى هؤلاء من أمثال هيردر Herder وهيجل Hegel اللذان حاولا انصاف شعوب الشرق القديم ، كتبوا محاولاتهم فى التاريخ دون معرفة تاريخية كاملة (١) ، ولهذا ادرك الباحثون العلميون مدى سطحية الطريقة التى كان التاريخ العالمى يكتب بها فى القرن الثامن عشر . ، كما بين شلوزر الألمانى Schlozer أن تاريخ العالم القديم بأكمله قد يتطلب اعادة كتابته اذا ما أصبحت المصادر المصرية ، والفارسية ، جاهزة ومعدة للدراسة ، وميسرة للباحثين ، مثلما كان الحال بالنسبة للمصادر اليونانية والرومانية ، لقد بدت مهمة كتابة التاريخ العالمى شاقة ، وفوق طاقة الباحثين ، كما أن المجال الذى تغطية كان شاسعا لا يقدر فرد واحد على تغطيته ، كما أن المؤلفات التعاونية التى يشترك فيها أكثر من باحث متخصص ، كانت لا تعدو عن كونها موجزات وخلاصات Compendia ، أو موسوعات تاريخية سطحية ، لا تعالج العالم كوحدة ، بل كانت تجميعا لتواريخ قومية وأحداث محلية لا يربط بينها سوى القليل من ناحية التطور العالمى .

هذه هى الأسباب التى تشرح لماذا انزوت فكرة كتابة التاريخ العالمى

A. F. Wright, «The Study of Chinese Civilization, Journal of the History of Ideas, XXI, 1960, P. 245.

منذ مطلع القرن التاسع عشر ، لكن السبب الواضح هو التغير فى الفكر العالمى من العالمية الى القومية • فمنذ الثورة الفرنسية انزوى الفكر العالمى ليفسح الطريق أمام الفكر القومى ، وفرضت الدولة القومية بكيانها السياسى والعنصرى وجودها ، وأصبحت هى التى تلقى الاهتمام والرعاية فى البحث والدراسة ، وتزايد الشك فى وجود وحدة تفوق وحدة الدولة القومية ذات السيادة ، وأصبح الاعتماد سائدا بأن التاريخ القومى هو الأحدر بالدراسة لأنه التعبير الأسمى لكفاح الانسان • صحيح كان هناك بعض الأصوات الرافضة لفكرة القومية فى كتابة التاريخ مثل صوت المؤرخ السويسرى جاكوب بيركهارت Jacob Burchardt لكنها كانت أصوات ضعيفة لا تسمع فى عالم بدأ يوجه اهتماماته نحو تعميق مفهوم الدولة القومية (١) ، والذى ولد على ما يبدو من التوحيد القومى لألمانيا وايطاليا • ومما دعم هذا الاتجاه أيضا ادخال نظرية داروين بطريقة سطحية وعامة الى مجال الدراسات التاريخية ، وكذلك ادخال التحليل البيولوجى خاصة نظريات الصراع من أجل البقاء ، وبقاء الأصلح • ولو كان هناك تاريخ خلال ذلك العصر يمكن أن نطلق عليه تاريخ عالمى فأن موضوعة لن يكون سوى الصراع بين القوميات ، والدول الأوروبية ، وتصادم الأمبراطوريات ، ومحاولات الأقوى منها فى فرض زعامته على الآخرين ، ومحاولة اخضاع أكبر جزء من العالم لنفوذه • لكن على أى حال ، بقيت الدولة القومية هى بؤرة الدراسات التاريخية ، فحولها تلتقى أفئدة شعوبها ، وأحلام زعمائها ، ومنها نبعت فكرة القوة الدافعة فى التاريخ •

ولكى نهز جدار الدولة القومية ، كان الأمر يتطلب حربين عالميتين ، وكارثة كبرى حاقت بالبشرية ، وحتى الى يومنا هذا لا يزال التاريخ القومى مغروسا بعمق فى وجدان الباحثين ، فينساقون وراءه بلا وعى ، حتى وان كانوا معارضين له • أما اليوم فمشاكل العالم المعاصر متشابكة

---

(١) انظر الدكتور عبد الحميد البطريق : التيارات السياسية المعاصرة ١٨١٥ — ١٩٦٠ القاهرة ١٩٨٠ ص وما بعدها .

وتفوق فكرة القومية ، كما أن عصر الدولة القومية كما نفهمه فى القرن التاسع عشر قد ولى ، وتآكلت جدران الدولة القومية ، بفعل الاحتكاك مع دول ليست من قوميتها ، أو لغتها ، أو حضارتها ، كما أن عملية التغير الاقتصادى والتكنولوجى ألقت ظلالا من الشك حول تطبيق الفكرة القومية فى دول العالم الحديث [1] ، وتحت الظروف الجديدة • ولو أراد المؤرخون أن يسايروا التطور الحديث فعليهم أن يقتحموا أسوار الدولة القومية ، التى سجن فيها مؤرخو القرن التاسع عشر التاريخ • لينطلق محلقا كالطائرة التى تجوب العالم أكثر من مرة كل يوم •

لكن يجب أن يكون فى الحسبان أننا لا ندعو الى هجر التاريخ القومى ، بل ندعو الى تغيير مسارة لبيحث عن تأثيرات الملامح القومية فى طبيعة الحضارة العالمية ، والى أى حد أثرت بعض القيم الانسانية فى بعض الدول ، والى أى شعب نعزو ابتكارها ووجودها •

والى أى حد فرضت انجازات حكومات الدولة القومية نفسها على شعوب أخرى خارج حدودها ، حتى أصبحت نموذجا يحتذى به فى منطقة جغرافية واسعة ؟ هذه هى القضايا التى يجب على المؤرخ المعنى بالتاريخ العالمى بحثها ومناقشتها ، واذا أردنا كتابة التاريخ بحيث نبين أن الحضارة الانسانية عالمية وذاتية ، لها قوانينها المتأصلة فيها ، وأنها تطور نفسها بنفسها مستقلة عن الأمم ، سواء المستقلة أو الخاضعة للاستعمار ، يتوجب علينا البحث عن أبعاد جديدة ومنظور جديد ، أكثر توافقا مع العالم الذى نعيش فيه من التاريخ التقليدى الذى ورثناه عن الماضى • ان للتاريخ العالمى مجاله الذى يميزه عن فروع التاريخ الأخرى ، وله نقطه انطلاق مميزة ومستقلة ، وله منهجة الخاص ، وله أهدافه المحددة ، وبواعثه الخاصة ، التى لا تقدر فروع التاريخ الأخرى على الوفاء بها •

ولنحاول بأيجاز أن نستعرض جوانب النقص فيما كتب فى التاريخ

---

(1) J. H. Herz, International Politics in the Atomic Age, 1959, PP. 127-43.

العالمى . فمنذ أن كتب هـ. ج ولز H. G. Wells مؤلفه عن معالم التاريخ (العام) Outlines of History والذى صدر عام ١٩١٩ : هناك محاولات متواضعة وقليلة لكتابة التاريخ العالمى ، لم ينجح سوى النادر منها . ويعزى السبب الأكبر لفشلها هو أن القليل من هذه المؤلفات كان مدركا للمشاكل ، التى تعترض طريق المؤرخ ، فليس هناك من يوضح أفكاره الأساسية ، ويبين خصائصه التى تميزه عن أنـــواع التاريخ الأخــــرى .

وليكن معلوما من البداية ، أن التاريخ العالمى لن يكون أبدا ملخصات لتواريخ الدول القومية ، وهناك أمثلة كثيرة على وجود هذه الملخصات التجميعية التى وصفها اللورد أكتون Acton بأسلوب مهذب بأنها « حبل من الرمال a rope of Sands »(١) ، ومن ناحية أخرى ، سوف نقع فى خطأ كبير لو نظرنا الى التاريخ العالمى على أنه التاريخ العام مجردا من التاريخ القومى ، فكما لاحظ فون رانكه Von Ranke منذ زمن طويل « اننا لو قدر لنا أن نهجر التاريخ القومى فأن التاريخ العالمى سرعان ما يتضاءل ليصبح مجرد نظرية تأملية »(٢) ، وثالثــا ، يجب ألا نخلط بين التاريخ العالمى ، وبين ذلك النوع من التاريخ الذى يوصف أحيانا بتعبير « ما وراء التاريخ » meta-history ، أوفلسفــة التاريخ ، وهى تلك المحاولات التى تتصل ببعض المفكرين من أمثال أوزوالد شبنجلر Oswald Spengler ، وآرنولد توينبى Arnold Toynbee ، والتى تقوم بعملية مسح شامل للأفق التاريخى فى كل العصور من أجل الكشف عن اتجاهات أو نماذج patterns أو قوانين عامه تحــكم مسيرته ، وأخيرا فان التاريخ العالمى ليس أن نتتبع فى رواية واحدة مستمرة القصة الشاملة للحياة والبشر ، بالقدر الذى نعرفه اليوم (٣) .

ان ما دعا اليه ولز بوجوب كتابة نظرة شاملة للتاريخ Conspectus

---

(1) Lord Acton, Lectures on Modern History, 1906, P. 317.

(2) Von Ranke. Universal History, English edition, translated by G. W Prothero a1884, P. xii.

(3) H.G. Wells, Outlines of History, 1919, P. 1.

على أساس عالمى ويكتب بأسلوب مبسط للقارىء العادى ، قد أصبح ضروريا ، لأن هذا النمط من التاريخ الذى يعالج بنظره عريضة الحركات ، والاتجاهات ، والتأثيرات ، سوف يكون مفيدا ومشجعا للقارىء المتيم بحقائق التاريخ (١) وبالفعل صدرت محاولات كثيرة ، لكن لا يعنى أنها تعكس وجهة النظر العالمية (٢) ، لأن التاريخ العالمى هو تطور مستمر ، لا يشكل عبئا على الذاكرة ، بل هو تنوير للروح الانسانية ، انه يتحرك فى تتابع تخضع له الأمم ، ولا يروى تاريخها لذات تاريخها ، بل من أجل أن يثبت أن الأحداث تخضع لتفاعل مسيطر ، يختلف ويتنوع حسب مفهوم العصر ، وحسب الدرجة التى يساهم بها فى مستقبل البشرية .

هذا القصور موجود أيضا فى المؤلفات التجميعية المركبة من عـــدة تواريخ Composite History والتى عادت لتصبح تقليدا شائعا ، بعد أن كانت قد اختفت ، لقد كان اللورد أكتون فى عصره واحدا من أشد المتحمسين والمدافعين عن فكرة التاريخ العالمى ، غير أن وجهة النظـــر التى تبنتها موسوعة كامبردج للتاريخ الحديث Cambridge Modern

---

(١) خذ مثلا مؤلف جون هويلاند John. S. Hoyland « موجز تاريخ الحضارة A brief History of Civilization الذى صدر عام ١٩٢٥ . وهو مسح للتاريخ العالمى يتبع منهجا واضحا عالج فيه : بدايه الحضارة ، معنى الحضارة ، الهند والصيين ، المسيحية والاسلام ، اليونان ، روما ، العصور الوسطى ، عصر القوميات ، عصر العالمية ، العودة الى اليونان أو عصر النهضة ، ثم عصر الاكتشافات العلمية .

(٢) مثلا نجد كتاب :

R.F. Flenley and N. W. Welch : The World History, The Growth of Western Civilizations (1936).

= يبدأ المؤلفان بمعالجه موجزة للأنسان فى العصور الحجرية ، ثم يبينون كيف أن الحضارة ولدت فى وديان خمسة تمتد من مصر ، فبلاد الرافدين ، الى البنجاب والصين ، ثم تنقلها الى العالم اليونانى والرومانى وبالتالى الى اصول الحضارة الاوربية ، ونلحظ روح انحيازية للجانب الأوربى ، خاصة فى الفصل السابع (عصر النهضة والاصلاح) الذى لا يعالج الا أوروبا فقط ، وهذا ينطبق على كثير من المؤلفات التى تدعى أنها تدور حول التاريخ العالمى ، بما فى ذلك مؤلف ولز نفسه . غير أن أفضل هذه المؤلفات الموسوعة الموجزة لتاريخ العالم هو The Concise Encyclopaedia of World History التى أشرف عليها جون بول John Bowle فهى عمل عظيم ، لكن عدم وضوح عنوانه يحجبه عن تبؤ المكانة اللائقة به .

History التى أعدها هو بنفسه ،كانت وجهة نظر أوروبية بحتة ، أكدت على التاريخ الأوروبى بوضوح ، وكرست نفسها للدور الذى لعبته أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، ويستمر نفس الاتجاه فى الموسوعة الحديثة New Cambridge Modern History والتى خطط لها فى ظروف مختلفة تماما بعد الحرب العالمية الثانية ، بل أكثر من هذا فأن بعض المسلسلات التاريخية الشائعة مثل مجموعة بيليكان Pelican History of Modern World أو مجموعة ميشجان للتاريخ الحديث University of Michigan History of Modevn World ، تنكر موضوع حاجتنا لوجهة نظر دولية فى كتابة تاريخ العالم ، ووجهة نظر هذه المسلسلات هو أن الشخصية القومية ، والتطور الوطنى والقوة القومية هى التى تقبع وراء أغلب المشاكل الدولية التى يواجهنا فى العصر الحاضر [1] ، أى أن المدخل لتاريخ العالم هو فى نظرهم يجب أن يكون عن طريق التاريخ القومى • ولكن التاريخ العالمى يضيع فى الفوارق القومية والجغرافية والموضوعات الخاصة بالأمم المختلفة ، وبسبب التقسيم القائم على الخطوط القومية فليس هناك أى استطاعة لكى نمسك بخيط عالمى عبر تواريخ الأمم مثل تاريخ الصين واليابان والولايات المتحدة فى سلسلة البيليكان لتاريخ العالم • كما أن الأمر سوف يبدو صعبا بالنسبة لأنصار التاريخ القومى عندما يتعرضون للصراع الدولى بين الأمم مثل الصراع بين بريطانيا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة ، وعلاقة ذلك الصراع بصراع القوى والمصالح فى أواسط آسيا وفى الشرقين الأدنى والأقصى • ان منهج المؤرخ القومى سوف يجد نفسه عاجزا أمام هذا التشابك العالمى للأحداث السياسية ،

---

(١) نظر مقدمة مجموعات البيليكان حيث يقول المشرف على السلسلة « وقد يجادل البعض أحيانا أن تاريخ العالم يكتب فى أحسن صورة بدون حواجز الحدود الخاصة بكل بلد ، حتى أن تاريخ تطور غرب أوروبا مثلا له من الأصالة التاريخية ما يفوق التواريخ القومية لفرنسا والمانيا والبلاد الواطئة وبريطانيا ، وبالرغم من ذلك فأن الصورة القومية ، والتطور القومى ، والقوى الوطنية ، هى التى تثير فضول الغالبية العظمى منا ، وفى مثل هذه الأشياء تقبع أغلب المشاكل العالمية التى تواجهنا فى حاضرنا » .

والسبب هو أن هذا التشابك مثل التشابك الذى يشهده العالم المعاصر لا يمكن دراسته الا فى شكل قضايا عالمية ، ولا يمكن توضيحها وتفسيرها الا من خلال منظور عالمى يتعدى الحدود القومية للأمم • وبالتالى تتطلب مدخلا مستقلا يختلف عن المدخل المتبع فى دراسة التاريخ القومى •

ومن ثم ، ليس هناك شك فى أن ويلز كان على حق عندما وصف ما كتب من تاريخ عالمى بأنه ليس سوى تجميع للتواريخ القومية ، وأن التاريخ العالمى الصحيح ليس بهذا الشكل ، « وأن المدخل اليه يجب أن يكون بروح مختلفة ، والتعامل معه يجب أن يكون بطريقة مختلفة » وحتى عصرنا الحالى لا نجد سوى كتابات قليلة طبقت هذا المبدأ ، واتبعت منهجا ثابتا ، ولنضرب مثلا على ذلك بسلسلة الدراسات التاريخية الفرنسية المسماة بأسم « التاريخ العام للحضارات » Histoire générale des civilizations وبالذات فى الجزء السابع والأخير والخاص بالفترة المعاصرة ، فيتنقل المؤلف عبر آفاق العالم بحرية من أفريقيا الى الشرقين الأدنى والأقصى ، الى الأمريكيتين ، فى نفس الوقت يتبع المؤلف منهجا عالميا ثابتا •

ويعتبر العمل الذى قدمه المؤرخ السويسرى ادوارد فويتر Edward Fueter عام ١٩٢١ من أحسن المؤلفات التى تناولت التاريخ من زاوية عالمية فى الفترة ما بين ١٨١٥ — ١٩٢٠ ، وبالرغم من أن الأحداث العالمية التى تلت عام ١٩٢٠ كانت كثيرة ، وغطت على هذا المؤلف ، لكن الفترة التى غطاها مؤلف فويتر كانت محاولة رائعة لاعادة النظر والتفسير بالنسبة لاحداث معروفة وفى فتره معاصرة ، ومن وجهة نظر عالمية ، وكان منهجة ومعياره هو أن الأحداث ذات الأهمية العالمية يجب أن تسبق الأحداث المحلية ، وبالرغم من أنه أعطى المكانة الأولى والاهتمام الأول لأوروبا لأسباب بدتله مقنعة وهى أن الاحداث السياسية
والاهتمام الاول لاوروبا لاسباب بدت له مقنعة ، وهى أن الاحداث السياسية
الى مناطق أخرى من العالم • وهذا منهج سليم ، لا نستطيع أن نوجه اليه أى نقد •

من الخطأ الجسيم أن نقلل من المصاعب التى تواجه المؤرخ الذى يريد أن يكتب التاريخ من زاوية عالمية ، فليس هناك معيار موضوعى ثابت لذلك . كما أنه من العبث أن نقيم مساواة كاملة ووهمية بين دول القارات المختلفة اذا نجد أن المؤرخ فويتر نفسه يبدو مقتنعا بذلك ، لأنه رغم ايمانه بالتاريخ العالمى وتوزيع الاهتمام بالتساوى بين دول العالم ، الا أنه وجد فى الفترة التى درسها أو اوروبا هى التى تلعب دور الصدارة ، فأقتنع برجحان كفتها وانتشار نفوذها الى مناطق شاسعة من تاريخ العالم . ويقول فويتر فى مقدمة كتابه « ان ما كان يسمى بتاريخ العالم فى المؤلفات السابقة لم يكن هو تجميع وتصنيف المعلومات ، اذا يعتقد الناس أنهم قادرون على كتابة التاريخ عالميا ، لو أنهم جمعوا بطريقه شكليه أحداث القارات المختلفة ، وظنوا أن مجرد رص هذه الأحداث يكفى لذلك الغرض ، بينما أهم متطلبات كتابة التاريخ العالمى هو التركيز على تداخل الأحداث وتوضيح كيف أن بعضها يعتمد على بعض فى أجزاء مختلفة من العالم ، لكن ذلك لا يتطلب اقامة مساواة وهمية بين القارات المختلفة ، فالمؤرخ الذى يعطى لقبيلة أفريقية ، نفس الاهتمام الذى يعطية للامبراطورية الرومانية بحجة التاريخ العالمى سوف يكون مخطئا بلا شك ، تماما مثل مؤرخ العصر الحديث الذى يتخصص فى تاريخ ايطاليا فى القرن التاسع عشر ويعالج دوقية بارما Parma بنفس الدقة والاهتمام الذى يعطيه لمملكة سردينيا . انما يجب على المؤرخ أن ينتقى الأحداث بحيث يعطى الأولوية لتلك التى كان لها تأثير دولى ، والمعيار الذى يقيس به الأحداث يجب الا يكون معيارا محليا ، بل ذلك الذى له نتائج وآثار عالمية ، ولا مانع أن يعطى أوروبا والدول الأوروبية مكان الصدارة ، لكن الأحداث التى يختارها ليدرسها تفصيليا

---

(١) دوقية صغيرة فى شمال ايطاليا أعطيت فى مؤتمر فينا (من سبتمبر ١٨١٤ الى يونيو ١٨١٥) الى مارى لويز زوجة نابليون .

يجب أن تكون تلك التى أحدثت تأثيرا فيما وراء الحدود الأوروبية (٣) .
« فتتابع تلك الأحداث الكبرى — على حد قول فون Ranke — هو الذى يربط الأمم بعضها بالبعض ، ويسيطر على أقدارهـا ، ومن ثم يتوجب على كل مؤرخ أن يقرر لنفسه تلك الأحداث ويقيمها من ناحية الأهمية ويشكل بحثه طبقا لذلك .

مما سبق تتضح الأسباب التى جعلت أغلب المؤلفات التاريخية المركبة من موجزات تاريخ الأمم تعجز فى أن تحقق المستوى المطلوب لكتابة التاريخ العالمى ، فالى جانب عدم القدرة على توفية المادة — التى تشق طريقها عبر دول العالم — حقها ، فأن هنـاك أيضا افتقارا الى الرؤية الواحدة ، ووجهة النظر المنفردة ، كما أن الخيط الذى يربط بين الفصول — أو اعتماد الفصول بعضها على بعض Interdependence نجده فى هذه الأعمال مفقودا .

ان مدرسة التاريخ العالمى لا تزال فى مراحلها الأولى وان مداخلنا التقليدية لمعالجة التاريخ القديم — وتحت ظروف العصر الذى نعيش فيه ، تعطى هذا النوع من التاريخ أهمية خاصـة ، فضلا على أننا لم نحقق الا منذ عهد قريب فقط — ذلك التراكم الهائل من المعرفة التاريخية ، فحتى منتصف القرن التاسع عشر كان معظم أواسط أفريقيا غير مكتشف ويحيط به الغموض ، وما كان معروفا عن تاريخ الشرق القديم كان لا يعدو أن يكون مجموعة من الأساطير والأقاصيص لا يمكن أن تشكل مادة كافية لكتابة التاريخ ، فضلا عن الفجوات التى كانت تتخلل التسلسل التاريخى ، وعدم وجود المعايير الحديثة للنقد التاريخى . كل ذلك جعل كتابة التاريخ العالمى أمرا شاقا وعسيرا . والآن وقد انفتحت الآفاق أمام رؤيانا زمنا ومكانا ، فأكتشافات علماء ما قبل التاريـخ وعلماء الآثار أحدثت ثورة حقيقية حيث أضافت اكتشافاتهم الى التراكم التاريخ قرونا

(3) E. Fueter, Weltzgeschichte der letzten hundert jahre 1815-1920 English edition translated by S. B. Fay, World History 1815-1920 (1923), P. 1.

كانت مجهولة أو مطمورة تحت التراب ، وبذلك تحطمت الدراسات التقليدية للتاريخ القديم والتى كان الاهتمام فيها يخصص للاغريق والرومان وحدهم .

ومع أن فكرة التاريخ العالمى فكرة نبعت من أوروبا ،الا أن المؤرخين الأوروبيين لم يفعلوا سوى القليل لكى يحولوها الى واقع ، فأكثرهم أسير ومتمركز فى أوروبا Europacentric ، فباستثناء أعمال المتخصصين لا يكاد الشرق يذكر الا نادرا وعرضا وبطريقه جانبية ، بعيده عن المجرى الرئيسى للاحداث فى أوروبا ، الا فيما يتعلق بتشابك أحداثه مع الأحداث الأوروبية سواء فى حقل التوسع والأستعمار الأوروبى ، أو بالنسبة للتهديد الذى يتعرض له الأمن الأوروبى . فنحن نقرأ للمؤرخين الأوروبيين عن الغزوات الأسيوية للاراضى الأوروبية الكثير ، لكن نسمع منهم القليل عن مساهمات الشعوب الأسيوية فى الحضارة الأنسانية ، أو عن القيم الايجابية لثقافاتهم ، فحتى الآن لم تلق شعوب قارة آسيا الأهتمام اللائق الأمن جانب المؤرخين الأوروبيين ، ولا حتى من جانب مؤرخى شعوب هذه القارة الذين يسيرون فى ركاب المؤرخين الأوروبيين بحكم تعليمهم وثقافتهم ، أو بسبب التقليد الأعمى الذى أفقدهم شخصيتهم المتميزة . وبصرف النظر عن التلميحات الموجزة التى أوردها الرحالة ماركو بولو فأن فكرتنا عن تاريخ العصور الوسطى تتركز تلقائيا وآليا حول القارة الأوروبية (١) . صحيح أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجرد من ظروف بيئته أو ينسلخ عن التقاليد التى نشأ فيها لكن ذلك لا يبرر عدم التوازن والحياد اللذان يتصف بهما أغلب المؤلفات الأوروبية التى تناولت التاريخ الأنسانى كوحدة متكاملة . ان روح التعالى أو الأحساس بالتعالى التى كتب بها المؤرخون الأوروبيون التاريخ العالمى تذكرنا بالتصوير المنحوت فوق صخره بهستون (كرمنشاه) فى ايران حيث يصور ملك فارس دارا الأول كعملاق وأمامه حطام وملوك الدول

E. H. Dance., History the Betrayer. A study of Bias. 1960. PP. 25-26.

التى فتحها وهم يبدون كالأقزام ، كما أن الأدعاء بأن الشعـــوب غير الأوروبية لن تكون أقل تحيزا لعنصرها وتعصبا لأنتماءاتها عند تكتب تاريخها محررا من التأثير الأوروبى المنساقه وراءه ، لن يكـون عذرا مقبولا (١) ، وانه عن الغباء أن يعتقد بعض المؤرخين الأوروبيين أن تحررهم من عقدة التمركز الأوروبى Europocentric ، ووجوب اعطاء أوروبا حجمها الحقيقى بالنسبة للتاريخ القديم هو بمثابة « الكفر بالغرب » Blasphemy والتحامل على الحضارة الاوروبيـة وخيانة قضيتها (٢) — وما أكثر المناسبات التى استغل فيهـا التـاريخ ليجنـد فى خـدمة الدعايـة السياسية والعقـائدية — لا تعـدو أن تـكون أعجاز نخـل خاوية » ، بـل ومـا أكثـر المناسـبات التى اسـتغل فيهـا التـاريخ لتشـويه تـاريخ الأمـم المهـزومة أو التشـهير بأفكـارها . صـحيح أن تجنيـد التاريخ لارضـاءها غرور السياسيين وأفكارهم ، وارضاء نزعتهم القومية قد يدعم فى خلق شعور بالوجـود والتسامى ، لكنه سوف يقودنا بلا شك الى الضلال ، ويبعدنا عن تفهم التوزيع الحقيقى للقوة فى العالم وللعوامل التى تقرر مصير الأحداث . وكل ما يبنى على وهم خاطىء ، سوف يكون وهما خاطئا (٣) .

وكثيرا ما يردد البعض القول بأنه لم يعد هناك امكانية لكتابة التاريخ

---

(١) مثلا نشرت صحيفة السنداى اكسبريس فى ١٦ اكتوبر ١٩٦٠ صورا لمجموعة من البطاقات التى طبعت ووزعت فى غانا خلال حكم الرئيس نكروما وهى تحمل صورا لأفريقيين يعلمون الأغريق حروف الكتابة ، وأن علم الكيمياء والطب ابتكره الأفارقة هم الذين علموا أيسوبوس الأفريقى Aesopos الفلسفة والحكمة الأفريقية لينقلها الى الأغريق .

(٢) وهو اتهام وجهه المؤرخ جيل Geyl لأرنولد توينبى فى كتابه : Debates with Historians (1955) P. 178 ثم طورة تريفور — روبر H. R. Trevor-Roper فى مجلة Encounter, no 6 (1957) الصادرة فى يونيو ١٩٥٧ وقد فند الأستاذ زكى صالح هذا الهجوم العدوانى على توينبى فى بحثه

«Zaki Saleh, Trevor Roper's Critique of Arnold Tuynbee. A Symposium of Intellectual Chaos (1958).

وكذلك انظر الكتاب الموجز : محمد فـؤاد شبـل — منهاج توينبى التاريخى — المكتبة الثقافية العدد ٢٠٩ ص ١١٢ وما بعدها .

(3) G. Barraclough, History in changing world, 1955, P. 15-26.

العالمى • وأن الطاقة المتفجرة فى عالم المعرفة مزقت نظرية التاريخ العالمى ، وهذا ادعاء نبع من الفهم الخاطىء لماهية التاريخ العالمى ، ومن التخوف من العقبات التى تعترض طريقنا والموروثة من مؤرخى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، والتى تعكس روح القوميات المتعصبة والافتراضات المسبقة قبل الدراسة ، لكن منذ ذلك الحين حدث تقدم ملحوظ فى معالجة تواريخ الشعوب القومية • كل يذهب فى طريقه لكن فى نفس الوقت كل يزعم أنه رافد فرعى من نهر الحضارة الأنسانية الكبير • مما ساعد على أحياء فكرة التاريخ الانسانى الواحد فى ضوء قيم جديدة ؛ ومن أجل ارضاء حاجات عالمنا المتغير ، والذى لا يعرف حدودا جغرافية أو فوارق ثقافية • وما لم يواكب التاريخ خطاه مع العالم المتغير والمنطلق الى الأمام بأقصى سرعة ، وما لم يوافق نفسه مع المتغيرات الثورية فى المناهج التاريخية ، فأنه سوف يصاب بالضمور ليتحول الى مجرد عرض عقيم للفكر الانسانى • أن عصرا جديدا يطل علينا وسواء أجببنا أم لم نحب — فنحن على أعتاب عصر التاريخ العالمى •

واذا ما تركنا الخلفية التاريخية لفكرة التاريخ العالمى ، لنبين ماهيته وما نأمل فى أن يكون عليه ، فأننا نراه محاولة جديدة لأستعراض التاريخ القديم ، أو بعض جوانبه أو عصوره من زاوية جديدة ، وفى ضوء أحكام جديدة لقواعد التفضيل ، انه ليس مسألة جمع الحقائق الجديدة ، أو ادخال حقول تخصصية جديدة فى مجال الحقل التاريخى • نعم لا يوجد ثمة مؤرخ يأمل فى أن يكون خبيرا فى تاريخ أوروبا الشرقية والغربية فى وقت واحد ، أو فى تاريخ الأمريكتين معا ، أو فى تاريخ الصين والهند معا ، أو فى تاريخ الاسلام وأفريقيا معا ، لأن هذا عبىء ثقيل على كاهل المؤرخ سوف يقوده الى السطحية • ولقد كانت السمة الغالبة على تفكير المؤرخين فى هذا الفرع من التاريخ تقوم على افتراض هو أن هناك نموذجا موحدا يتكرر عبر عصور التاريخ الانسانى حتى أنه يكاد أن يشكل ظاهرة متميزة يمكن رصدها ، وأن مهمة المؤرخ العالمى هو أن يحلل هذه الظواهر المتكررة عبر أحداث دول العالم • أن اعتقادنا

بأن هناك نقاط اتصال بين الحضارات المختلفة هو شىء ، وافتراضنا بأن تاريخهم يتصل بعضه بالبعض عن طريق ظواهر تخضع لعملية تاريخية واحدة ، هو شىء آخر . فمثلا نجد أن تاريخ شعوب الصين وتاريخ شعوب البحر المتوسط تتبع مسارا مستقلا ، واذا حاولنا فرض شكل معين عليها ، نكون قد تعدينا على الحقيقه التاريخية ، وهذا هو النقد الذى وجه الى أعمال ارنولد توينبى مثلا (١) . ان التاريخ العالمى يختص بنواحى العلاقات والاتصالات والتداخلات بين تاريخ الأمم ، وهو لا يدعوا لتركيب مصطنع لكل الماضى ، بل يدعونا للتفكير فى أنفسنا خارج البيئة التى نشأنا فيها محاولين تكوين منظور كونى للتاريخ بدلا من المنظور المحلى . فالنظرة الى الكون فى عصر بطليموس الجغرافى اختلفت عن تلك النظرة ، التى كانت فى عصر كوبرنيكوس ، وكانت النتائج التى ترتبت على ذلك التغيير كبيرة فتحت أبعادا جديدة ، وغيرت منظور الانسان الى الكون .

واذا ما وضحنا مفهوم التاريخ العالمى ، فانه يصبح من السهل علينا أن نتفهم امكانياته وحدوده . ولما كان التاريخ العالمى فى جوهره نظاما فكريا . فهو قادر على أن يشق طريقه فى الماضى فى أى اتجاه . فكتابة تاريخ العالم فى العصر الحجرى القديم ممكنه مثل كتابة تاريخ العالم فى القرن العشرين . وبالنسبة لتاريخ الاغريق والرومان فنلاحظ أن العلماء دأبوا منذ وقت طويل على اعادة تفسير أحداثه بتفاصيل دقيقة لان حجم المادة العلمية يكاد أن يظل ثابتا لا يتغير (٢) ، والذى لا شك فيه أن هذا الاتجاه سوف يفتح آفاقا جديدة أمام كتابته من خلال نظرة عالمية ، أن التحليل التفصيلى للمصادر الاغريقية الخاصة بحملات الاسكندر الاكبر فى آسيا لا تكفى ، لابد من معالجتها من خلال المصادر الأسيوية أيضا . والذين يكتبون تاريخ مصر فى عصر البطالمة من زاوية

---

(1) cF Toynbee and History, , edited by M.F. Ashly Montagu (1956) pp. 95. 136.

(2) J. Vogt, Geschichte ds Altertums und Universalgeschichte 1957, pp 21-5.

المصادر الأغريقية وحدها انما يكتبون تاريخيا ناقصا اذا لابد من عرض وجهة نظر الوثائق الديمقراطية لكى يكون التاريخ متـــوازيا • والذين يعالجون تاريخ الأمبراطورية الرومانية لابد أن يواجهوها بالأمبراطورية الساسانية فى ايران ، والتى ظلت لقرون عديدة الند اللدود لها •

وليس شرطا أن يتقيـــد المؤرخ العالمى بخط سياسى ، أو أن يكـــرس نفسه للبحث عن ارجاع كل مظاهر الحضارة الانسانية الى مسببات سياسية ، لأن التأثيرات ، والتيارات المتداخلة بين أجزاء العالم والتى تنشط فى فترات معينة سواء فى الفن أو الأدب أو الموسيقى ، جـــزء لا يتجزأ من تاريخ العالم لا يقل أهمية عن تأثيرات الأحداث السياسية • فقد ورثنا عن أوروبا عشق الأحداث السياسية ، غير آبهين بالعوامل الأخرى غير السياسية والتى تركت أثرها على حياة الأجيال بقدر يفوق ما أحدثته الأحداث السياسية • فنحن نعرف عن هانيبال أكثر مما نعرف عن أرشيميديس وكثيرا ما نجد كتب التاريخ تكرس نفسها لموضوعات سياسية وعسكرية مثل دستور اسبرطة أو الحدود الدفاعية للأمبراطورية الرومانية ، أو حـــرب الوردتين (١) ، بينما تسقط من حســـابها كليـــة الحـــركات الفـــكرية التى انتشرت عبر العـــالم كله • مثـــل حـــركه البعث الدينى خـــلال القرنين الســـادس والخامس قبـــل الميلاد ، أو

---

(١) حرب الوردتين (١٤٥٣ — ١٤٨٥) سميت بذلك الاسم نسبة لشعارى عائلتى يورك ولانكستر فى بريطانيا ، اذ كانت الوردة البيضاء رمز الأولى ، والحمراء رمز الثانية وسببها الوصاية على الملك المريض ، ثم تطورت الى مسألة من يخلفه بعد موته خاصة أنه لم ينجب وريثا. ويمكن تمييز الحرب الى ثلاثة مراحل المرحلة الأولى من ١٤٥٣ — ١٤٦٠ عندما عين رتشارد دوق يورك وصيا على هنرى السادس المريض ، وقد أوصى الملك المريض بالعرش لرتشارد ، لكن زوجة الملك مارجريت التى ولد لها طفل قادت المعارضة ضد الوصي واسفرت المعركة عن مصرع رتشارد عام ١٤٦٠ ، وامتدت المرحله الثانية من ١٤٦٠ — ١٤٨٣ ، حيث انتصر ادوارد بن رتشارد على جيوش لانكستر واستمر فى حكمها حتى عـــام ١٤٨٣ ، أما المرحلة الثالثة (١٤٨٣ — ١٤٨٥) فكانت بين هنرى تيودور ورتشارد . وانتهت بانتصار هنرى فى معركة بوسورث عام ١٤٨٥ واعلانه ملكا بأسم هنرى السابع انظر : —

عبد القادر احمد اليوسف : العصور الوسطى الأوروبية — المكتبة العصرية — صيدا — بيروت ١٩٦٨ ص ٢٧١ •

الهياج الثقافى والعنصرى لشعوب البلاد الواقعة ما بين الهند والبحـر المتوسط ، خلال عصر الأمبراطورية الرومانية

ما هو الجديد الذى سوف يضيفه كتابة التاريخ من زاوية عالمية ؟ وما ذا يعنى التغير فى المنظور من الحيز الضيق — أى الحيز القومى — الى المنظور الكونى •ان خير جواب على ذلك هو أن نطبق ذلك المنهـج عمليا • وسوف نكتفى بثلاثة أمثلة أولها من القرن الثالث عشر وثانيها من القــرن السادس عشر ، والثالث منا القــرن التاسع عشر ، فالنسبة للمؤرخين الأنجليز كانت الملامح السائدة فى مطلع القرن الثالث هـو الصراع الدستورى تحت حكم الملك جون(١١٩٩ — ١٢١٦) والملك هنرى الثالث (١٢٢٧ — ١٢٧٢) وبالنسبة للتاريخ الفرنسى فأن أهـم الملامح فى ذلك القرن هو تدعيم قواعد الملكية على يـدى الملك فيليب أغسطس (١١٨٠ — ١٢٢٣) والملك لويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠) • وبالنسبة للمؤرخين الالمان فان أهم ظاهرة اعتنوا بها هى استعادة فردريك الثانى (١١٩٧ — ١٣٥٠) للثراء الاقتصادى والثقافى فى الامبراطورية الالمانيـة ، والصراع بين الاباطـرة والبابوات ، ثم تدهـور مركز ألمانيا . فى أوروبا بعد موت فريدريك عام ١٢٥٠ ولنحاول أن نتفادى المـواقف الوطنية حيث يركز كل فريق على أحداث خاصة بوطنه ، ونلتقط بدلا من ذلك الأحـداث الأكثر أهمية بالنسبة للأحداث العالمية ، وسوف نجد النتيجة مختلفة تماما ، لاننا سوف نجد أن أكثر الأحـداث لفتا للنظر فى تلك الفترة من وجهة النظر العالمية ، كان بلاشك حركة الأكتساح التى قام بها الشعب المغولى بقيادة جنكيزخان ، وابنه اوجوداى Ogodai والذين بسـطا نفوذهما على الصين وأجزاء كثيرة من آسيا ، واكتسحوا عبر اقليم الأسـتبس الروسى الى المجر وبـولندا ، وبينما لم يـكن لا الأمبراطور فردريك الثانى ولا الملك جون ولا الملك فيليب أغسطس شخصيات عالمية ، لكن جنكيزخان كان بلاشك محور الأحداث العالمية والتى تفوق فى حجمها وأهميتها ما حدث فى فرنسا أو فى انجلترا خلال فترة حياته ، ومن ثم سـوف يضعه فى قلب الصورة التى يرسمها ، ثم

يصمم الأجزاء الأخرى لكى تناسب المنظور التاريخى بعد تغييره ، حتى التاريخ الاوروبى اذا ما نظرنا اليه من زاوية عالمية ، سوف يبدو مختلفا فى أجزائه ، أى أن القصة المعروفة لقيام الملكيات سوف تتضاءل أهميتها ، وسوف ينتقل التركيز الى الشرق الذى تحمل معاناة الغزوات المغولية ، حتى مؤرخو الكنيسة سوف يقللون من اهتمامهم بالصراع بين الأباطرة والبابوات ، لكى يعطوا اهتماما أكبر للمجهودات التى قام بها البابوات لمواجهة الموقف الذى بات يهدد الكنيسة الشرقية فى روسيا والمناطق المتاخمة لحدود أوروبا الشرقية من جراء الغزو المغولى .

واذا ما عبرنا القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر فأن الموقف يختلف ، ففى نظر المؤرخين الاوربيين أن الخيط الاساسى فى هذه الفترة هى صراعات العروش الحاكمة ، وبالاخص الصراع بين فرنسا وأسبانيا فى ايطاليا ، ثم الصراع بين هولندا وألمانيا ، ثم قيام الملكيات المطلقة ، والثورة البروتستانية والحروب الدينية ، وحرب الثلاثين عاما ، والصراع من أجل تحقيق السيادة على البحار ، وبداية عصر التوسع فى بلاد ماوراء البحار ، لكن من وجهة النظر العالمية نجد أن أكثر هذه الأحداث ذات أهمية ثانوية ، ان لم يكن غير متصل بالموضوع بتاتا . بالرغم من هذا تظل أوروبا هى بؤرة الاحداث التاريخية خلال هذه المرحلة ، لأنه بالمفهوم العالمى فأن نهوض أوروبا من مركز جانبى الى مركز أساسى يمثل أهم الأحداث ففى نهاية القرن الخامس عشر كانت أوروبا تمثل واحدة من أربع مراكز رئيسية فى الحضارة الأنسانية ، ثم أصبحت تطغى على غيرها ، وما أن انتهى القرن الثامن عشر حتى كانت قد تملكت الطرق البحرية والتجارية ، وحققت مكاسب كبرى ، وفتحت بلادا شاسعة فى الامريكتين ، والقارة الهندية وسيبيريا . ومن ثم فان هذه الفترة تمثل مرحلة انتقال من العزلة الاقليمية التى كانت قائمة قبل عام ١٤٩٢ الى الزعامة الاوروبية للعالم خلال القرن التاسع عشر . ولهذا

---

cf.L.S. Stavrianos. «The Teaching of world History» Journal of Modern History , XXXI, 1959, pp 110-117.

السبب — وبلا تخير — فأن أوروبا هى المحور الرئيسى لحركات التجديد، ومركز صناعة القرار ذى التأثير العالمى ، كما أن هزيمة الاتراك فى معركة ليبانتو البحرية lepanto (١٥٧١) • كانت نقطة التغير لمحور التاريخ الأوروبى من سواحل البحر المتوسط الى سواحل المحيط الأطلنطى ، ومن ثم يمثل ذلك مرحلة هامة للتوسع الاوروبى ، ومن زاوية التاريخ العالمى يمثل محور البحث التاريخى لتلك الفترة • ان البحث عن سبب انبعاث حركة التوسع من أوروبا ، والطريقة التى تأثرت بها طبيعة ومرحلة التوسع الأوروبى من جانب الحضارات الصينية والاسلامية والامريكية التى تعاملت ، وأخيرا دراسة المد والجزر فى النظرة الأوروبية الى العالم غير الاوروبى • مثل قيام وتدهور النفوذ والهيمنة العثمانية ، وكذلك بالنسبة للهند والصين ، ووجهات النظر المختلفة من جانب البعثات التبشرية الى الشعوب الأمريكية وغير ذلك من التساؤلات التى طالما أهملت ، هى التى تمثل جوهر القضايا التى يتعامل معها المؤرخ الذى يريد اعادة التفسير لتلك الفترة التى نطلق عليها اسم مطلع العصر احديث •

وعندما ندخل الى القرن التاسع عشر ، نصل الى فترة حققت فيها أوروبا سيادة ملحوظة فى مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والسيادة السياسة ، حيث حمل التوسع الاوروبى الافكار والقيم الاوروبية الى كل ركن من أركان المعمورة • وأصبح ما يحدث فى أوروبا من منافسات وصراعات بين دولها يحدد ويؤثر على الأحداث سواء فى أسيا أو أفريقيا أو فى الامريكتين • لكن اذا ما نظرنا الى الموقف من زاوية عالمية وليس من زاوية أوروبية فأن الأبعاد التقليدية فى معالجة هذه الفترة يجب أن تتغير ، والقصة التقليدية التى تركز على ظهور القوميتين الألمانية والايطالية ، وميزان القوى الاوروبية ومسألة مضايق البحار تبدو من منظور عالمى غير وافية ، فحتى عام ١٩١٤ بدى كما لو أن العلاقات بين الدول الأوروبية هى التى تحدد مستقبل العالم ، وكان الاستعمار والتوسع الاوروبى يقوم على مبدأ الموازنة بين القوى والذى كان مبدأ

يحكم العلاقات بين هذه الدول ، وانتقل الى أجزاء أخرى من القارات مع النفوذ الأوروبى ، أما من ناحية الواقع فعندما تحولت الحــرب ١٩١٤ من حرب أوروبية الى حرب عالمية ، وعندما سمح للأمبراطورية العثمانية المتداعية بالأنضمام الى منظمة القوى الأوروبية عام ١٨٥٦ ، وعندما اعترف بالولايات المتحدة واليابان كقوى عظمى بالأضـــافة الى القوى الست التى كانت أقوى الدول الاوروبية ، أصبح واضحا أن القيادة التى تهيمن على العالم وتسير أحداثه لم تعد أوروبا وحدها . وفى ضوء ذلك ، فأن دراسات المؤرخين الأوروبيين التفصيلية حــول الدبلوماسية الأوروبية والصراعات بين القوى فى حاجة الى أن توازن بدراسات تحليلية للعلاقات الأستعمارية التوســعية لبريطانيا العظمى والروسيا والولايات المتحدة عند الحدود الشمالية الغربية للهند ، وفى ايران وأفريقيا والصين ، وعلى ســواحل المحيط الباسيفيكى لامريكـــا الشمالية ، وفى كليفورينا واوريجون Oregeon والاســـكا .

هذه الأتصالات والصراعات هى التى حددت النظام الدولى على مستوى العالم كله ، والذى فى ظله نعيش علنا المعاصر . ولهذه الاتصالات أهمية أساسية لأنها على الخلاف من السياسة الدولية الأوروبية البسماركيه كانت تمثل مرحلة جديدة فى تاريخ العالم (١) فقبل أن ينقضى القرن التاسع عشر وبالرغم من أن الأستعمار الأوروبى والذى بدأ بعد عام ١٨٨٥ بدأ كما لو كان قد وضــع أوروبا فى أوج عنفوانها ، الا أن أصواتا بدأ يتردد صداها أخذت توضح أن هناك ارتدادا مضادا للتوسع الأوروبى بـــدأ يستجمع قواه يتشكل فى قارة أسيا ، وأن هناك دولا غير أوروبية قد لحقت بأوروبا بل سبقتها ، ويسمونه بالأرتداد الكبير للمد الأوروبى ، ولدهشة الباحث سوف يرى عصور التوسع والانــكماش الاوروبى يتـــداخل بعضها مع البعض ، وأن الأحداث فى أوروبا وفى العالم الأوسع شديدة التداخل والارتباط ، ومن ثم فأن التغير فى الأبعـــاد وفى موازين القوى

---

(1) cf. E. Barraclough, «Europe and the wider world in the Nineteenth and Twentieth Centuries» in the Volume of Essays Presented to G. P. Gooch, edited by A.O. Sarkissian (1961)

العالمية يتطلب رؤيا جديدة للعالم المعاصر ، واذا ما نظرنا بعين التاريخ العالمى ، فأن الأحداث الخارجية لاتقل أهمية عن الاحداث الداخلية ، لان مثل هذه الاحداث هى التى شكلت الاطار العام للعالم الذى نعيش فيه ، ولن يستطيع المؤرخ الأوروبى أن يشرح جذور هذا الاطار بالمفهوم الاوروبى لان مثل هذه المفاهيم لن تفهم بدراسة مقارنة مع الخلفية الأكبر شمولا للسياسة العالمية •

بهذه الأمثلة السابقة نكون قد عرضنا وجهة نظر المؤرخ العالمى بالنسبة للأحداث واعادة تفسيرها ، وكيف أن هذا التفسير يختلف عن التفسير التقليدى للأحداث ، انها مجرد أمثلة يمكن تطبيق منهجها بالنسبة للجوانب المختلفة للموضوعات التاريخية ، وقد تكون هناك تفسيرات أخرى لأن المؤرخين يختلفون فيما بينهم فى تفسير الاحداث حسب نظرتهم وحسب اختلاف النظرة السائدة فى البلدان المختلفة ، وفى هذا المجال فان التاريخ العالمى لا يختلف عن غيره من نواع التاريخ ، لكن جوهره فى نوعية الأسئلة التى يطرحها والقضايا التى يتناولها • وخلاصة القول أن القضايا التى تهم المؤرخ العالمى هى تلك التى تكون أقرب اتصالا بالموضوعات التى تخص أكثر من دولة والتى تهم العالم الذى نعيش فيه • واذا جاز لنا أن نقول أن التاريخ القومى الذى يمثل نوعية التاريخ الذى كان يكتب فى القرن التاسع عشر فلنا أن نقول أن التاريخ العالمى هو التاريخ الذى يتماشى مع قضايا ومتطلبات القرن العشرين •

كما نأمل أن نكون قد وضحنا أنه لا توجد عوائق تمنع من كتابة التاريخ بنظره عملية وعالمية • صحيح انه لمن الصعوبة بمكان أن يتخصص الأنسان فى تاريخ العالم كله فى العصور القديمة والوسطى والحديثة وهذا مالا نحمله للمؤرخ الباحث ،لكن ما نطلبه منه هو محاولة وضع أسس للحركات والتيارات مثل حركات الهجرة والأستيطان التى بدأها الاغريق وظلت حتى القرن التاسع عشر ، لكنها كانت تظهر من أن لآخر ، أو بالنسبة لظاهرة انتشار الديانات السماوية فى مناطق شاسعة من العالم، وغزوات قبائل اواسط أسيا المتحولة ، وكذلك فى شكل حركات الأصلاح

الدينى والثورة الصناعية وانتشار ظاهرة النزعة القومية فى القرن التاسع عشر ، ولم يعد هناك اتهام بأن دراسة التاريخ العالمى لا يمكن أن تتم الا فى الشكل العام الذى لا يعطى فرصة للفحص الدقيق للمصادر الأصلية ، والتى لا تسمح بالتأمل والتعميم السطحى ، بل على العكس فان المؤرخ الذى يرغب مثلا فى القيام بدراسة تفصيلية لجذور السياسة الدولية فى القرن التاسع عشر ، سوف يجد نفسه مضطرا للرجوع الى الأرشيفات الدبلوماسية ليعيد دراسة هذه الوثائق التى نحاها المؤرخون القوميون جانبا لأنها بعيدة عن موضوعهم ، أو لكونها موضوعات جانبية ، وسوف يجد نفسه يبحث عن أهداف مختلفة ، وسوف يكتب تاريخيا لا يقل فى تماسكه ووضوحه عما يكتبه المؤرخون الاخرون •

ولو تساءلنا لماذا نأخذ على كواهلنا مهمة اعادة تفسير الوثائق الدبلوماسية الموجودة فى الأرشيفات ، فأن الأجابة سوف تكون أن لكل عصر رؤيا خاصة للاحداث وتفسير خاص للتراث الانسانى القديم ، وأن عصرنا الحالى الذى يتصف بالسياسة الدولية ، ووحدة الحضارة العالمية لفى حاجة ماسة الى نظرة عالمية لتاريخ الأنسانية ، وعلى حد قول وترام Wittram فأن بدون التاريخ العالمى لن يكون هناك حس بالتاريخ •

حقا ، بدون دراسة التاريخ عالميا سوف نتعرض لخطر العودة الى العزلة الفكرية التى تقف عائقا فى طريق أى محاولة لتفهم مشاكل العالم بعمق ، وتمنع تتبع أصول الازمات الدولية فى العصر الراهن . وتصيب الدراسات التاريخية بالجمود والضمور، وكل المؤشرات الحاضرة تشير الى أن المشكلات الأساسية التى سوف تواجه الأجيال فى المستقبل لن تكون قضايا قومية ، بل ستكون قضايا تخص العلاقات بين الغرب الأوروبى والولايات المتحده ، من ناحية وبين شعوب أسيا

---

without world History there in no Sense in history cf. Wittram, Die Moeglichkeit einer Weltgeschichte, in Das Interesse an der Geschichte, 1958, p 124.

وأفريقيا من ناحية أخرى وما دام التاريخ هو وسيلة للتعليم والمعرفة فمن الواضح أن التاريخ المنعزل والمسجون داخل حدود الدولة لن يصلح لذلك العالم الذى سوف يواجهه أجيال المستقبل . واذا كان التاريخ قد فقد بريقه لأنه كما بدى للبعض — قد غرق فى خضم التفاهات والمهاترات بدلا من أن يقودنا الى معرفة العالم الذى نعيش فيه — والسبب واضح للعيان ان ما هو مطلوب هو رؤيا جديدة ، أعم وأشـمل من النظـرة التقليدية ، كما يتطلب الأمر منا أن نحطم القيود ، ونقتحم العـوائق لننطلق الى أبعاد جديدة .

وان التاريخ العالمى هو وحده القادر على أن يهىء لنا هذه الفرصة .

خامسـا : مدرسة التاريخ المحلى .

فى عام ١٩٠٨ أصدر مجلس التعليم البريطانى مذكرة دورية توصى بتدريس التاريخ المحلى فى المدارس الثانوية ، وكان ذلك أول مرة أعطى فيه المؤرخون البريطانيون التاريخ القومى مكانا فى نظام التعليم القومى. ولقد حظى التاريخ المحلى لقرون عديدة سبقت ذلك التاريخ باهتمام المؤرخين المسلمين ومعاصريهم من المؤرخين الأوروبيين ، لكنه أهمل بعد ذلك حيث حجبه الأتجاه نحو التاريخ القومى للدولة ، وقد جاء فى تقرير المجلس البريطانى عبارة تقول « انه لأمر حيوى أن تلفت كل مدرسـة الأنتباه الى تاريخ المدينة أو الاقليم الذى تقع فيه » [1] .

وفى الأجتماع الذى عقد فى الجمعية التاريخية البريطانية قبل صدور ذلك التقرير ببضعة شـهور ، توالى المدافعـون عن الأهتمام بالتاريخ المحلى ، اذ قال المؤرخ البريطانى هرنشو Hearnshaw « يجب أن يطبق التاريخ المحلى بطريقه مدعمة (التاريخ القومى) لكن يجب علينا الا نجعل أبناءنا يتخبطون فى أدغال ورمال التفاصيل ، غـير أنهم قـد يجدون التاريخ مملا ان لم يضفى عليه روحا حية عن طريق الاشارات

(1) British Board of Education, Circular no. 599, dated November 1908, p.5.

وقد اعتمد الى حد كبير على مقال الاستاذ

H.P.R. Finberg, Local History, Approaches to History, p. 111-125.

المتعددة الى الموضوعات ، التى فى مقدرتهم أن يشاهدوها حولهم، أو بالقرب من منازلهم ، فهو منجم ملىء بالصور الحية ، الحبالى بالمعرفة وبالتاريخ القـــومى » (١) •

ولقد وصف اريك ووكر • Eric walker فكرة تدريس التاريخ القومى بأنها « مثل وضع الســـكر على الدواء المر الذى يجب على الاطفال تعاطيه » (٢) فلو أخذ مدرس فى مدينة الاقصر التلاميـــذ لشرح معالم العاصمة الدينية لمصر القديمة ، أو الى منف أول عاصـــمة لمصر بعد توحيدها على يد مينا ، أو يأخذ مدرس فى القاهرة تلاميذه الى قلعة صــــلاح الدين ويشرح لهم كيف تمت مذبحة المماليك على يدى محمد على باشا ، فأن الرواية النظرية للتاريخ تصبح عملية ، وتعلق فى أذهان التلاميذ خاصة اذا كانوا من أبناء هذه المناطق ولن ينسوها أبداً •

وقد يتساءل البعض هل من الضرورى أن يكون لكل مدينة أو اقليم تاريخ خاص • بالطبع لكل مدينة أو اقليم تاريخ خاص به ، ولكن يتباين كل منها فى الأهمية ، كما أن البعض منها خاصة القرى والمدن النائية أو الحديثة التكوين لا يكاد أن يكون لها تاريخ محلى ، أو يوجد بها أثر قديم وفى هذه الحالة يلجأ الباحث فى تاريخ مدينته أو اقليمة عن أقرب مدينة أو اقليم من منطقته يكون لها تاريخ فمثلا الباحث الذى يقطن فى احدى قرى مديرية التحرير يمـــكن أن يدرس وادى النطرون ليدرس أديرته التى كانت عامرة بالباحثين والدراسين فى الفكر اللاهوتى ابان القرنين الخامس والسادس الميلاديين • كذلك فأن كثيرا من القرى المصرية القديمة أصبحت الان خرائب وتلال أثرية مهجـــورة ، خاصة تلك التى كـــانت

---

(١) وردت هذه العبارة فى مذكرة الجمعية التاريخية البريطانية . رقم ١١ بتاريخ مارس ١٩٠٨ ، وكان رئيس الجلسة تشايلدز W.M.Childs ، الذى كان يشغل وظيفة عميد الكلية الجامعية بجامعة ردنج ، وبعد سنوات من ذلك التاريخ ، أعلن عن انشاء جامعة ردنج لوظيفة باحث فى التاريخ المحلى « كوسيلة لاعطاء صورة أكبر للتاريخ القومى ، وكان أول من شغل هـــذه الوظيفة المؤرخ البريطانى الذائع الصيت ستنتون Stenton وذلك من ١٩٠٨ الى ١٩١٢ .

(2) Eric walker, History Teaching for To-day (1935).

قائمة فى صـــحراء الفيوم مثل كرانيس (كوم أو شيم) وغيرها أو فى الوادى مثل نقراطيس ، وبطلمية ، وأفرديتو بوليس ، وأنطينوبوليس وهى من العصور الأغريقية والرومانية وكل منها يمكن أن تكون محل راسة من واقع أوراق البردى والاثار ومن ثم فأن دراسة التاريخ الأقليمى سوف تجد لها مادة علمية هامة فى مصر .

لقد شبه بعض البحاثة التاريخ الاقليمى أو المحلى بأنه « مثل الميناء الذى يقلع منه البحار الى المحيط الاكبر للتاريخ القومى » لأنه عندما يجيد المؤرخ دراســـة منطقة محلية محـــددة فأنه يشرع بعـــد ذلك فى استكشاف ما حولها وتزداد دائرة الأستكشـــاف حتى تغطى تـــاريخ الوطن كله ومن ثم ينتقل من مرحلة التاريخ المحلى الى مرحلة التاريخ القومى للوطن بأكمله . غير أن المستر بوج Pugh أحد المؤرخين المتحمسين للتاريخ المحلى لا يعجبه ذلك فيقول « ان التاريخ المحلى ليس ســـكرا يوضع فوق الدواء المر ليعطى للأطفـــال والذين يعاقون الدواء ، كما أنه ليس صالة جمنازيوم لينمى فيها المؤرخون — الذين يبشرون بنبوغ فى المستقبل — عضلاتهم ، بل انه فرع من فروع التخصص فى الدراسات التاريخية . انه منهج معين للبحث عن الحقائق التاريخية عن طريق بحث دقائق الأمور فى مناطق أصغر من الوطن ، أى جزئيات من الوطن ويشبه المستر بوج ذلك بعالم الاحياء الذى يدرس الظـــواهر الطبيعية للكائنات بوضعها تحت الميكرسكوب (١) فهو يقسم الوطـــن الى جزئيات جغرافية ، أو وحدات طوبوغرافية من خلالها يستطيع المؤرخ أن يركز اهتمامه على واحدة منها أملا فى كشـــف حقائق جديدة ، أو القاء ضوء جديد على أمور عتيقة ، وبذلك يمكن اثراء التاريخ القـــومى فحفائر جامعة القاهرة فى قرية كرانيس الأثرية فى كوم او شيم ، قد القت الضوء ليس على تاريخ هذه القرية وتاريخ اقليم الفيوم بل على تاريخ مصر كلها خلال عصر الرومان .

غير أن البعض يقولون لو أننا عرفنا تاريخ كل مدينة أو قرية أو اقليم

---

(1) R.B. Pugh. How to write a Parish History, 1954, p g.

فى مصر خلال عصر معين ، فسوف يكون أمامنا معلومات كثيرة جدا تربكنا وتعيق كتابة تاريخ الوطن الكامل ، ويرد المدافعون عن التاريخ الأقليمى بأن المطلوب هو دراسة موجزة ومركزة يختار منها المؤرخ على مستوى الوطن ما يشاء ليقيم صرح التاريخ ، أى أن المؤرخ القومى ينقى ويغربل هذا التراكم القادم من التواريخ المحلية ، وعن طريق الأختيار ينتقى مادته العلمية مما يبدو له هاما ، ويهمل ما لا يراة بذى قيمة فى الاحداث ، وهنا يوجد خطر الاختلاف فى تحديد ما هو مهم وما هو غير مهم ، فقد يبعد مؤرخ بعض المادة لانه يراها عديمة الاهمية ، بينما يرى مؤرخ آخر العكس ، كما أن اختيار المؤرخ لما يراه هاما فى الأحداثقديكون بفعل عواطف معينة أو تحت تأثير فكرى أو سياسى ، أو انه يرى التاريخ المحلى بعين الحكومة المركزية ، وبذلك يتعرض التاريخ الأقليمى للتزوير • لكن من ناحية أخرى فأن المؤرخ المحلى وهو يثبت قدماه فى حقله الصغير ، يمتلك داخل أفقه المحدود،رؤيا أكثر وضوحا مما لدى المؤرخ القومى الذى يمسح حقلا شاسعا يرقبه من فوق برج عال ، وبالتالى فان المؤرخ المحلى قادر على أن يمدنا بمعلومات وتفاصيل دقيقه ، بل يقوم بتصحيح بعض المعلومات الخاطئة وذلك عندما يستعرض الماضى بكل تفاصيله ودقائقة المتنوعة والتى لا يمكن سجنها وحشدها فى عبارات عامة يرويها المؤرخ القومى ويرى أنصار مدرسة التاريخ المحلى أن عصر الدولة القومية قد انتهى وولى ، كما أن سلطة الدولة السياسية هى قيد على المواطن تحدد حركاته وعلاقاته وتصرفاته فى ضوء سياسة الحكومة المركزية • وأن العصر الحالىهو عصر الاتحاداتوالتنظيمات التى تتعدى الحدودالسياسية الدولة فأن المجال سيكون مقسما بين التاريخ الاقليمى والتاريخ الدولى (١) •

لكن قد يؤخذ على المؤرخ المحلى أنه كثيرا ما يتعاطف وينحاز لمسقط رأسه عندما يكتب عنه ، وقد يكون ذلك على حساب الحقيقة

(1) Franklin Jackson, The Future Uses of History American Journal of Historical Review Lxv, 1959, pp. 61-71.

التاريخية لكن هذا التحيز لا يمنع حرمان هذه المدن والقرى من تاريخها الخـــاص •

ان التاريخ القومى يشـــغل مكانة وسطا بين التاريخ المحلى والتاريخ العالمى ، كما أن مدرسة ليسستر Leicester للتاريخ الأقليمى ترى أن المجتمعات الصغيرة مادون الدولة لها تاريخ يجب أن يـــدرس لذاته Per Se (١) وليس كعـــامل مساعد لخـــدمة التاريخ القومى • ومن ثم يجب على المؤرخ المحلى الا يشغل نفسه بالحـــدود الأقليمية للأقليم ، بل ينظر اليه كوحدة اجتماعية أو ككيان اجتماعى ، وأن على المـــؤرخ « أن يعيد الدراسة فى ذهنه ، وأن يصور لقرائه أصول واكتمال وتدهور وسقوط المجتمع الأقليمى :

to re-enact in his mind, and to Portray for his readers the Origins, Growth, Decline and fall of a local Community.

وهنا يدور التساؤل ما هو المقصـــود بعبارة Community فهناك من أعطوها تعريفا يقوم على المفهوم الأجتماعى ، لكن بالنسبة لنا كمؤرخين دعونا نفسرها بأنها مجموعة من الناس تســـكن منطقة معينة ، ويسود بينها التجانس فى الفكر والسلوك ، واحساس بالانتماء الى هذا الاقليم ، والتعصب له ضد الغرباء الذين لا ينتمون اليه ، « حتى وان كانوا من نفس الوطن ، ويظهر ذلك التعصب عندما تتصـــادم المصالح بين المدن والاقاليم المختلفة مثلما يحدث عندنا فى المباريات الرياضية التى تجرى بين أندية الاقاليم ، أو عندما تتقاتل القرى المتجاورة كما يحدث فى صعيد مصر • وهنا نخشى من خطر التعصب العاطفى خاصة اذا ما كان هناك تتنافس بين الأقليم الذى ينتمى اليه المؤرخ وبين اقليم أخر •

---

(1) «Smaller Communities than the nation, and local Communitics have a history which deserves to be studied for its own sake», The New Statesman, 15 February 1958 (by Asa Briggs).

(2) H.P.R. Finberg. The local Historian and his Theme, Leicester University Press, 1952, P 9.

وهى نفس الفكرة التى رددها وهسكين •
W.G. Hoskins in History to-day, 11, 1952, P 4 90.

ومن المصاعب التى يواجهها التاريخ المحلى اختفاء بعض القرى القديمة لسبب هجرة سكانها أو اندماجهم مع سـكان مدن جديدة ، ومن ثم فأن هناك خطر على ضياع تراثها القديم الذى هو جزء من حضارة الوطن وحضارة الأنسانية صحيح أنه من الصعب علينا أن نعيد تصوير الحياة كما كانت فى هذه القرى المهجورة ، لكن ان لم نفعل ذلك فسوف نفقـد الكثير من المعلومات الحضارية وعن مشاكل الانسانية فى مرحلة معينة من تاريخ الوطن • ولهذا فأن العبىء الأكبر يقع على عاتق علماء الأثار فى الكشـف عن هذه القرى والمـدن ، وتقديم المعلومات التى يتوصـلون اليها للمؤرخ الأقليمى •

ومن المشاكل التى يثيرها التاريخ الأقليمى ، ذلك التباين فى تاريخ هذه المناطق الأقليمية فلكل مدينة تاريخ خاص بها قد يطول وقد يقصر ، فهناك قرى من عصورما قبل التاريخ ، وهناك قرى من العصور التاريخية المختلفة مثل العصـور الفرعونية ، والاغريقية والرومانية والبيزنطية والاسلامية ، وهناك مدن لا تزال قائمة منذ تأسيسها ، والبعض الاخر قد اختفى ولا نعرف مكانه والبعض الثالث لاتزال أطلاله مهجورة تطل علينا فى شكل خرائب وتلال أثرية ، كما أن هناك بعض المدن التى أقيمت خلال أحداث سياسية معينة مثل مدن قناة السـويس أو المدن التى قامت بالقرب من منابع النفط ، وكان أغلبها فى القديم أراضى مهجورة ، غير أنها أصبحت فيما بعد مدنا عامرة ، ولهذا فأن مدرسة ليسستر فى التاريخ الأقليمى تفصل بين التاريخ القومى للبلد وبين التاريخ الاقليمى لبعض مناطقه ، وليس شرطا أن يكون التاريخ الاقليمى رافدا من روافـد التاريخ القومى ، فتاريخ كوم أو شيم مثلا لا يمثل جزءا من تاريخ مصر فى عصور البطالمة والرومان ، بل يمثل تاريخ وحدة اجتماعية زراعية (٢) Social entity قائمة بذاتها ، ومن ثم يكون لها الحق فى أن

(1) George A. Hillary, «Definitions of Community», Rural Sociology XX, 1955, PP 111--123.

(2) Hanna Germek Karanis, Communite, Rurale de l'Egypte Romaine au 11 — 111 Siecle de notre ére. Worclaw, 1969.

تدرس لذاتها Perse وليس كموضـــوع فرعى لتاريخ مصر فى عصور البطالمة والرومان ٠ غير أن الاتجاه نحو فصل التاريخ المحلى عن التاريخ القومى يجد معارضه شديدة من جانب بعض أنصار مدرسة التاريـــخ المحلى ويصـــفون عملية الفصـــل بينهما بأنهـــا لا معنى لها meaningless ، ويضيف أنصـــار هـــذا الاتجـــاه ان هنـــاك مدنـــا لا تزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا فكيف نحقق مطـــالب مدرســـة ليسستر التى تدعو لكتابة التاريخ الأقليمى لهذه المدن من أجل رصـــد مولد واكتمال وانهيار هذه المدن ٠ فمدينة الاسكندرية مثلا لا تزال قائمة منذ أن بناها الاســـكندر الأكبر عام ٣٣١ ق ٠ م ومدينة القاهرة لا تزال قائمة منذ أن بناها جوهر الصقلى عام ٩٦٩ ميلادية ، ومن ثم لا يمـــكن تطبيق مفهوم مدرسة ليسستر عند دراسة تاريخهما ، وأن هذا المفهوم لا ينطبق الا على المدن والقرى التى اندثرت تماما وأصبحت فى ذمة التاريخ ، كما أن هذه المدن والقرى كانت دائما جزءا من الوطن وخاضعة للحكومة المركزية وقوانينها ، التى كانت تؤثر فى حياة سكانها فـــكيف ندرسها فى معزل عن الوطن الشامل ؟ كذلك فأن هناك بعض المدن والقرى التى لم تترك من ورائها تراثا أو آثار ولا حتى نعرف مكانها فهل يعنى ذلك أننا نسقط من حســـاب الدراسة هذه القرى والمدن ، ونـــكرس الدراسة لتلك التى تركت من ورائها آثارا ٠ ويرد الاستاذ فينزبرج Finsberg على هـــذه الاعتراضـــات بقوله أن هناك سوء فهم حول فكرة دراسة تاريخ المدينة أو الأقليم منذ نشأته واكتماله حتى اندثاره أو تدهوره ، فهذا ليس شرطا ملزما يجب على المؤرخ المحلى الألتزام به ، لاننا لا نطلب من المؤرخ المحلى أن ينتظر حتى تدهـــور واختفاء المدينة أو الاقليم حتى يكتب تاريخها ، لان معنى ذلك أننا لا يجب أن نكتب تاريخ الوطن لأنه لم يختف بعد ولا يزال قائما ٠٠ أما عـــن التخوف من انفصـــال التاريخ المحلى عن التاريخ القومى فلا خطورة منه لأن الدوائر المتداخلة سوف تربط بينهما ، فأذا كان تاريخ المدينة أو

Finsberg, Approches to History .. A Symposium, P 121.

القرية دائرة صغيرة مستقله ، فأن هذه الدائرة الصغيرة لابد وأن ترتبط مع دائره الوطن الأكبر • فمثلا تاريخ مـدينة القاهرة دائرة صـغيرة تتداخل مع دائرة أكبر هى تاريخ مصر ، ثم يجب الا ننسى أن تاريخ مصر هو دائرة تتداخل مع دائرة أكبر هو تاريخ الأمة العربية •

ان الذى نقصده بدراسة القرية أو المدينة هو محاوله تصوير الأسرة والمجتمع الصغير ، ثم مجتمع الوطن الذى هو الوحدة السياسية التى تضم القرية ، ثم أحوال الأمة الأعم التى تجمع بين عدد من الأقطـار السياسية ، انها مجموعة من الدوائر المتداخلة كل دائرة تقود الى دائرة أعم وأشمل • ولا يمكن فهم الدائرة الكبرى الا من خـلال الدائرة الصغـــرى •

أما عن زوال بعض القرى والمدن واختفائها فأن ذلك لا يمنع من البحث فى المصادر التى تحدثت عنها ، فلكل مدينة أو قرية اسم يمكن دراسته ، ومن خلال ذلك نبحث عن زمامها الزراعى • وقد بدأ العلماء حديثا فى دراسة أسماء المدن والأماكن القديمة ويحاولون من خلال ذلك معرفة جذورها الحضارية • كما أن المصادر الجيولوجية والجغرافية لا تضيع أبدا حتى وان اختفت المدينة أو القرية وأصبحت فى ذمـــة التاريخ • ومن ثم فلا بـــد من البحث عنها فى الوثائق والأرشيفات القديمة الخاصة بالضرائب والأحصاءات والقضايا ، وكل ما يقدم معلومات عنها • ولو فشل مؤرخ فان آخرون سوف يكملون بحثه ويضيفـون عليـــــه •

لكن هناك شروط أساسية يجب أن تتوفر فى المـؤرخ الأقليمى ، فيتوجب عليه أن يلم بالتاريخ القومى العام لوطنه ، ثم بالتاريخ العالمى للفترة التى يتخصص فيها ، لأن بعض المدن والقرى والمجتمعات المحلية كثيرا ما تأثرت بفعل الأحداث العالمية ، فمثلا هجوم البرابرة على حدود الأمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث الميلادى كان يعنى حاجـــة الأمبراطورية الى المزيد من الأموال التى جبتها بكل عنف من القرية ، لان الامبراطورية الرومانية وقد تولى أمرها جنود أجـــلاف من تحت

السلاح بحجة مقاومة خطر البرابرة كانت فى حاجة ماسة الى الاموال من الولايات ، فكان مجتمع كوم أوشيم الصغير مثلا كان يدفع ثمن خسائر الرومان على أيدى البرابرة الجرمان فى أصقاع أوروبا • وهـــذه الاستغلال البشع أدى الى قلة الأقبال على الزواج ، ودفع السكان الى الهروب وهجرة المدينة الصغيرة ، ثم تلى ذلك الهروب الجماعى لفلاحى القرية حتى هجرت تماما فى منتصف القرن الخامس الميلادى تقريبا •

كذلك يتوجب على المؤرخ الأقليمى الا يهمل المعرفة بالقرى والمدن الأخرى المجاورة أو التى كان لها علاقة بالمدينة موضوع دراسته ، فبدون مثل هذه المعرفة لن يتمكن من رصد الملامح المميزة لتاريخ الفترة التى يريد أن يدرسها ، ويتوجب أن يكون المؤرخ عليما بلغه وثائق القرية ، حتى يتحرى عن المعلومات من واقع الأرشيفات وأوراق البردى والنقوش والدوريات والحوليات والصحف العلمية ، ونصوص الكتاب الذيـــن يشيرون من قريب أو بعـــيد الى هـــذه القرية • ويفضل أن يكـــون المؤرخ عليما فى أكثر من أفرع المدارس التاريخية ، ويتوجب عليه أن يكون نشيطا ، لا يكل ولا ييأس وعيناه ترصدان كل شىء ، ملما بالآثار القديمة وبالمعمار ، وبكل الادوات التى كان المجتمع المحلى يستخدمها •

صحيح ان اجادة تاريخ المجتمع الصغير فى المدينة أو القرية عبر كل العصور وبنفس النظرة الواحدة أمر يصعب على كثير من المؤرخين ، ومن ثم ينبغى على المؤرخ اذا درس المكان عبر أكثر من عصر ألا يغمض حق احدى العصور ، بل يوزع حبه بالتساوى عليها جميعا ، لان احساس المؤرخ بعدم التعاطف فى التحليل قد يدمر العمل التاريخا حتى وان كان عملا راقيا ، وبنفس المنطق يجب على المؤرخ الا يترك نفسه ليسقط فى حب عصر معين ، فيتحيز له بدافع الحنين الرومانسى ، مما قد يحدث خلخلة فى الفكرة الأساسية •

ويشترط « فنزبرج » على من يريد التخصص فى هذا الفرع مـن التاريخ أن يكون باحثا ناضجا ، واسع الاطلاع ، محبا لتخصصه ، ذا عزيمة ثابتة ونظرة ثاقبة ، صبورا لا ييأس أبدا ، ودؤوبا فى طلب المعرفة ،

بالاضافة الى ذلك يجب أن يجيد فن الصياغة والانشاء ، لان احياء عصر مات ومكان اختفى للقارىء المعاصر يحتاج الى أسلوب خاص يثير انتباه الناس ، ولهذا يفضل بعض الناس استخدام الأسلوب الدرامى المؤثر ، ومن ثم لابد أن يكون للمؤرخ موهبة الرواية الحية ليتمكن من تجسيم هذا المجتمع القديم . واذا كان التاريخ الأقليمى يبدو ثقيلا فى بعض الاحيان ، متحيزا للاقليم فى أحيان أخرى ، خاصة عندما يكتب على يدى أبنائه ، فهذا عيب المؤرخ ، وليس عيبا فى التاريخ ، حيث نجد المؤرخ لا يملك الخيال ولا الموهبة الأدبية المطلوبة لعرض ما توصل اليه بصورة جيدة حتى يصبح مقروءا للناس حتى وان كانوا غير متخصصين .

لا يزال الكثير أمام التاريخ القومى لكى يثبت جدارته العلمية واعتراف الرأى العام به ، رغم ما حققه من مساهمات كبيرة للتاريخ القومى ، فوسائل كتابته لا تزال فى حاجة الى تطوير ، كما أن الناس لم تدرك بعد أهميته وسبب وجوده raison d'etre . ان كتابة التاريخ المحلى ليست وقفا على الاكاديميين بوسائلهم المعقدة ، بل مفتوحة أمام الهواة والراغبين فى المشاركة فيه وجمع المواد العلمية والتاريخية ، واشباع هوايتهم ، فكثيرا ما يكون لدى الهواة قطع من التحف النادرة وقطع من العملة وطوابع البريد . ان التحدى القائم يتطلب من المؤرخ الاكاديمى أن يتعاون حتى مع الهواة من أجل احياء التاريخ الاقليمى . فهناك أسماء القرى القديمة التى يجب أن نرصدها وندرسها قبل أن تضيع فى بحر النسيان ، وهناك الوثائق والحجج وأوراق الاسر الخاصة، وأرشيفات المحاكم والوقف . كما أن هناك حاجة ماسة الى جمع الأدوات التى لا تزال تستخدم نقلا عن الأجيال الماضية . كل ذلك بالأضافة الى الكثير من المعلومات الاخرى ، ولا يتطلب ذلك مهارات خاصة ، بل صبرا وعزيمة اخلاصا . وما دام الباحث الشاب يشعر بالاحترام والوفاء للحقيقة التاريخية ، وعلى استعداد لان يبحث عنها ، ولا يضيق بها ذرعا ، وما دام لديه القدرة على رصد الحقائق بدقة ، فانه سوف يحقق نجاحا باهرا .

ان التاريخ الأقليمى ليس وليد القرن العشرين ، ولا من عقول

المؤرخين الاوربيين ، بل عرفه المؤرخون المسلمون • فعلم التاريخ عند المسلمين كان وليدا فى عمومه لعلم الحديث ، فقد شعر علماء الحـديث بضرورة تصنيف كتب الطبقات من أجل أن يتعرفوا على رواة الحـديث ويلموا بتواريخ ولادتهم ووفياتهم حتى يضبطوا سلاسل أسانيــد الحديث ، والتأكد من معاصرة رجال السند بعضهم لبعض ، وتبيان لقاء المشايخ ، وذلك لمعرفة الصادقين وتمييزهم عن الكاذبين • ومن ثم شعر هؤلاء المصنفون المسلمون بضرورة تقسيم تلك الطبقات وفقا لاماكـن سكن رجالها ، فكان ذلك بداية لما عرف بالتقسيم المحلى أو الاقليمـى للتاريخ عند المسلمين • ولقد زعم المستشرق روزنتال بأن التاريخ المحلى عند المسلمين هو وليد الشعور بالقومية ، وتعبير صادق عن ارتباط المؤرخ بأقليميه واعتزازه بوطنه ، ومع أن كثيرا من التواريخ المحلية فى الاســلام نشأت من الاعتبارات الدينية والفقهية ، غير أن المفاخر الاقليمية • كانت وراء مباحث العلماء (١) •

ولقد حاول كثيرون الرد على روزنتال ، والتحامل عليه ، كما لو كان عدوا للحضارة العربية التى تخصص فيها ، وأعطاها حياته بالرغم من أن الرجل يعترف بأن أصل التاريخ الأقليمى هو الاعتبارات الدينية والفقهية ، لكنه يؤكد بقاء بعض روح الجاهلية فى التفاخر بالقبيلة والمدينة • وقد سبق أن وضحنا أن ذلك من عيوب التاريخ المحلى عندما يكتب بــروح التفاخر والتباهى ، ولا أحد ينكر أن العــرب بعــد ان اتسعت الدولة الاسلامية وضاعت الحدود السياسية الفاصلة القديمة وامتزجت العناصر الاسلامية ، لم تعد لهم سوى التشبث بأقاليمهم ومدنهم الاقليمية • والتفاخر بها كبديل عن العنصر والأنساب والقبيله التى قضى الاسلام عليها ، من أجل خلق أمة اسلامية واحدة •

---

(١) فرانسيس روزنتال • علم التاريخ عند المسلمين •
وقد ترجم ذلك الكتاب ايضا الدكتور صالح احمد العلى بغداد عام ١٩٦٣ (والعبارة فى أصل الكتاب ص ٨٤ وفى الترجمة ص ١٣٤) •

ويرد البعض (١) على رأى روزنتال بأن هناك عدد من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا تواريخ مدن ، ليست مدنهم ، ولا حتى لها صلة بأقاليمهم ، ويضربون مثلا على ذلك بأبن النجار وهو مؤرخ من بغداد ، لكنه كتب عن تاريخ المدينة المنورة فى مؤلفه « كتاب الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة » ، وهذا المؤرخ البغدادى هو نفسه الذى كتب مفاخرا بتاريخ بغداد كتابا أسماه « التاريخ المجدد لمدينة السلام ، وأخبار فضائلها الأعلام ومن وردها من علماء الأنام » كما ان المقريزى ألف كتابا بعنوان « المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين عليها » كما أن السخاوى — المؤرخ المصرى — كتب عن تاريخ أهل المدينة ، وبالتالى يرى هؤلاء المنتقدين لرأى روزنتال « لو كان الدافع وراء تصنيف التواريخ المحلية هو الشعور الاقليمى ، لما أهتم أولئك المؤرخون بتواريخ المدن الاخرى ، والأقتصروا على دراسة مدنهم فقط .

لقد وضع العرب الأسس الأولى للتاريخ المحلى الذى قصد به كتابة تاريخ مدينة معينة ، لها أهمية حضارية ، أو أقام بها بعض الصحابة والتابعين ، الذين انتشروا فى سائر أمصار الدولة العربية الاسلامية ، وكان الهدف من التاريخ المحلى هو خدمةالحديث النبوى عن طريق التأكد من تعاصر رجال السند ، واحتمال لقاء بعضهم البعض وبالتالى احتمال نقل الأحاديث الشريفة بعضهم عن بعضهم ، ثم تطور هذا النوع من التاريخ ليصبح بعد ذلك مختصا بمدن العالم الأسلامى ، ثم تطور هذا العلم على أيدى عدد عدد من العلماء والأعلام ، قبل أن يعلن مجلس التعليم البريطانى ضرورة كتابة التاريخ المحلى بما يقرب من تسعة قرون من الزمان أو يزيد ، وبالرغم من ذلك لم تشر دراسات مدرسه ليسستر للتاريخ الأقليمى من قريب أو بعيد الى مجهودات المؤرخين المسلمين فى هذا النوع من الدراسات التاريخية . وان كان المستشرق البريطانى

---

(١) سامى الصقار : اهمية التواريخ المحلية كمصادر لتاريخ جزيرة العرب مع اشارة خاصة لتاريخ اربل — مجلة كلية الآداب — جامعة الرياض المجلد الخامس (١٩٧٧ — ١٩٧٨) ص ١٠١ الى ١١١ خاصه ص ١٠٢ وما بعدها .

السير هاميلتون جب Hamilton Jebb (١) قد شهد فى كتابه عن أدب التراجم بأن المسلمين قد طوروا كتب السير والتراجم مما أعطاهم حرية أكبر فى تناول موضوعات متنوعة ولا سيما تلك التى تتعلـق بالحيـاة الاجتماعية ونشاط المرأة المسلمة ، وهو فن اسلامى أصيل قدمه المسلمون الى العالم الأول مـــرة .

ولم يقف المؤرخون الأقليميون العرب عند حد الترجمة للرجـال البارزين من أهل تلك المدن ، بل كتبوا مقدمات اضافية تناولت تأسيس هذه المدن ، ووصفت أحياءها ، وخططها ، ومعالمها البارزة كالمساجد ، والمدارس والقصور ، والمشاهد ، والزوايا ، والجسور ، والاسواق والمقابر ، وما الى ذلك من المرافق العامة ، كما ضمنوها فصولا عن فضل تلك المدن ومآسرها ، مما يجعل لهذه الكتابات التاريخية أهمية كبيرة ، ليس للمتحققين للاحاديث الشريفة ، بل لكل من يبحث فى أى فن من فنون التاريخ ، فهى معين لا ينضب من مختلف أنواع المعرفة التى تهم الدارسين لسائر نواحى النشاط الانسانى (٢) .

ومن أهم المؤلفات الجامعة عن تاريخ المدن والتى ربطت بين التاريخ الاقليمى والتاريخ الاسلامى الاعم ، مؤلف المؤرخ والرحالة المعروف ياقوت الحموى المسمى معجم البلدان ، وقد زار هذا المؤرخ الكبير أقطارا عديدة ، وبلدانا مختلفة من مدن العالم الأسلامى ، يجمع مادته العلمية ، ونلاحظ أنه لم يعترف بالتاريخ المحلى المنغلق على ذاته Per Se ، بل ربط مباشرة بين التاريخ المحلى وتاريخ العالم الأسلامى.

ان ما فعله أجدادنا المؤرخون المسلمون لشىء مذهل بحق ، وتركوا لنا تواريخا محلية أمتعتنا وأفادتنا فى كتابة التاريخ الأسلامى بلغة العصر . لقد سافروا وتنقلوا من مكان الى مكان بحثا عن المادة التاريخية ، وكم

---

(1) Hamilton Jebb, Islamic Biographical literature -- (Historians. of the Middle East, London 1962, PP 54, 58.

نقلا عن سامى الصقار — المقال السابق هامش ١١ ص ١١٢ .

(٢) سامى الصقار — المقال السابق — ص ١٠٤ .

تحملوا من مشقة وعناء السفر فى عصر كانت فيه وسائل الانتقال شاقة وعسيرة ، وطرقهم محفوفة بالمخاطر ، لكنهم بالتصميم والتحدى ، والرغبة الصادقة فى البحث عن الحقيقة ، حققوا هذا النجاح وأورثونا تراثا جما غنيا بمعلوماته ، فضلا عن حلاوة العرض ، وحسن التعبير ، وسلاسة القول، انهم يمثلون الجيل الصادق ، المؤسس لعلم التاريخ المحلى ، فماذا نفعل نحن فى العصر الحديث وقد تغيرت الظروف ، وتحقق للانسانية انتصارات كبرى فى عالم الأكتشاف والبحث العلمى ، وسهلت المواصلات ، ووجدت المطابع ، وتضافرت العلوم العلمية مع العلوم الانسانية ؟ ماذا سنخلد للاجيال القادمة عن مدننا الحديثة التى سوف يختفى بعضها بفعل حتمية التاريخ ، كما اختفى من قبلها العديد من المدن والقرى ، وكما اختفت مجتمعات أخرى بفعل عوامل التغير السياسى والأقتصادى ؟ وسواء اتفق المؤرخون المحدثون حول أهمية التاريخ المحلى أو اختلفوا ، فلابد لنا من أحياء فرع من فروع التاريخ وضع أجدادنا اللبنات الاولى فى صرحه ، ثم أجادوه ونبغوا فيه ، وحفظوا لنا كنوزا من التراث كانت ستضيع لو لم يسجلوه لنا ، فأن لم نسرع ونسجل ما لدينا من معلومات عن مدننا وقرانا ومجتمعاتنا المحلية ، فأنها سوف تضيع وتندثر ، ولا تعرف الأجيال القادمة عنها شيئا • ان التاريخ يتغير ويتبدل ، وتختفى مدن وقرى ، وتظهر أخرى جديدة ، ويحقق بعضها مكانة قيادية ، ويفقد الآخر بريقه ومجده • ان الأجيال الحاضرة يجب أن تزرع حتى تحصد الأجيال القادمة ، وعلى الأجيال القادمة بدورها أن تزرع للاجيال التى تليها ، حتى تستمر المعرفة ويبقى التاريخ حيا وكنزا للأجيال القادمة ، يساهم فيها كل بما يستطيع أن يحقق وما يصل اليه من جهد وبحث واجتهاد •

الفصل الرابع

المتطلبات الأساسية للبحث

بعد أن يلم الباحث بما سبق قوله ، يكون قد أصبح على درجة واعية من الثقافة والوعى التاريخى ، وبالتالى يصبح مدركا للجانب الذى يختاره من الجوانب السابقة ، وأحيانا يظل الطالب دون تحديد للزاوية التاريخية التى سوف يتناول منها موضوعه ، ولا خوف من ذلك فقد تحدد المادة التاريخية التى سوف يجمعها الطالب ؛ لان المادة التى يجمعها هى التى سوف تحدد له الطريق • وعلى أى حال فاننا ننصح الطالب باتباع الخطوات التالية قبل الأقدام على تحديد الموضوع الذى يبتغيه سواء لدرجة الماجستير أو الدكتوراه فليست طبيعة الموضوع هى التى تعطى العمل قيمته ، بل هو المنهج الذى استخدم فيه فلابد من تحقيق البراعة Savoire Faire قبل المعرفة Savoire :

١ ـ القراءةوالمسح الشامللتاريخ العصرأوالمكان الذى يريد التخصص فيه ، وهو أمر ضرورى وأساسى للباحث ، فتغطية الحقل العام واستطلاعه شرط أساسى قبل أن يقدم الباحث على السير فى ممر ضيق ، وينصح الطالب أن يقضى عاما دراسيا على الاقل يغطى فيه معالم العصر أو المكان تغطية شاملة ، وكثيرا ما تبرز قضايا غامضة خلال قطعة أرض البحث ، عليه أن يسجلها فلعل احداها يكون موضوع بحثه •

٢ ـ يبدأ الطالب بالرجوع الى الانسيكولوبيديات ، والبيلوجرافيا وكذلك جميع المجلات العلمية المتخصصة من خلال قراءاته الاستكشافية ، وكذلك المراجع الأساسية التى يتردد ذكرها خلال قراءاته • وتسجيل أسماءها على كارتات ، مسجلا اسم الدوريةأو المجلة ومكان صدورها والعدد واسم المقال الذى أشير اليه ويمكن للطالب أن يرجع الى أعداد هذه

الدوريات عددا عددا والبحث عن أهم المقالات التى تختص بموضوعه ، فلعل احدى هذه المقالات يساعد الطالب على تحديد نقاط وجوانب البحث.

٣ ــ البحث فى الوثائق التى يتردد ذكرها خلال قراءاته الاستكشافية وتحديد المكان المحفوظة فيه ، وكذلك الوثائق الأخرى التى لها اتصال سواء من قريب أن بعيد بتلك الوثائق أو المحفوظات . والتأكد عما اذا كانت منشورة أو لم تنشر بعد ، واذا كانت لدى أفراد يحدد أسماء وعناوين هؤلاء الأشخاص ، أو مكان الأرشيف المحفوظة فيه .

٤ ــ بعد هذه المرحلة يكون الطالب قد وصل الى الموضوع الذى ينوى بحثه ، ويستحسن أن يختار أكثر من موضوع ، على احتمال أن يكون احداها قد درس أو أن المادة التاريخية لا تكفى لتغطية ذلك الموضوع ويراعى أن يكون الموضوع جديد ومبتكر ، ولم يسبق دراسته أو على الاقل سبق دراسته دراسة غير كاملة ، أو ظهرت وثائق جديدة تغير من مفهوم الدراسات السابقة . وليس من المستحب أن يطلب الطالب من أستاذه اختيار موضوع لبحثه ، كما ليس من المستحب أن يفرض الاستاذ موضوعا معينا على الطالب .

٥ ــ يتصل الطالب بالأستاذ المشرف على بحثه لمساعدته عما اذا كان احدى الموضوعات التى اختارها قد درس ، أو هل المادة المتاحة تكفى لدراسة ذلك الموضوع . كما أن بعض الدوريات العلمية ، تنشر من حين لآخر بيانا بالموضوعات المسجلة فى الجامعات الأخرى ، أو التى نوقشت وبذلك يتفادى الطالب اختيار موضوع لبحثه سبقت دراسته ، ويفضل ألا نختار موضوعا طويلا زمنيا حتى يتناسب مع الوقت ، وأن يكون الموضوع جزءا من موضوع عام ، مترابط البناء لكى يتسع البحث لمواصلة دراسته فى المستقبل .

٦ ــ بعد اتفاق الطالب مع أستاذه على اختيار موضوع البحث يبدأ فى جمع المادة العلمية المتاحة ، ويستحسن أن يداوم الطالب على الالتقاء بالأستاذ المشرف عدة مرات لمناقشة الجديد الذى توصل اليه ، بخصوص

الموضوع حتى يتقرر نهائيا تحديد الموضوع زمنيا ومكانيا بعد أن يتأكد الباحث أن المادة التاريخية تكفى للرسالة ، وأن الموضوع لم يسبق دراسته وأنه جديد ومبتكر •

٧ — يقوم الطالب بتسجيل الموضوع رسميا حسب اللوائح التى تتطلبها كل جامعة ، بعد أن يرسم معالم البحث والفصول التى يقسم البحث حسبها ، علما بأن هذا التقسيم يكون مبدئيا لأنه قد يتغير مرة أو مرات خلال عملية البحث ، لكن يشترط الا يتغير موضوع البحث أو الفترة الزمنية التى سبق له تسجيلها لدى الجامعة والا اقتضى ذلك اعــادة التسجيل من جديد •

التهيئة العامة للباحث : —

— تتطلب الكتابة معارف واسعة بشتى العلوم والآداب والفنون ، وأسلوبا فى التحقيق والتدقيق والعرض والتحليل ، يزيد فى دقته وصعوبته تعقد الموضوع ، وسعته ، واضطراب الوسائل أو المصادر التى يعتمد عليها الباحث ، وهو الاسلوب الذى عرف بالاسلوب العلمى • ومن أهم هذه الشروط : —

١ — **اجــادة اللغــات الاوروبيــة أو غــير الاوروبيــة التى** لها علاقة بموضوع البحث • فلا يعقل أن يبدأ الطالب رحلة البحث الشاقة دون أن يكون قد أجاد لغة أوربية أو أجنبية على الأقل • خاصة تعلم اللغات الخاصة بالبلاد أو العصر الذى يدرسه ، سواء اللغات القديمة مثل المصرية القديمة ، أو اليونانية واللاتينية الكلاسيكية ، أو اللغات السامية القديمة أو لاتينية العصور الوسطى بالنسبة لتاريخ أوربا العصــور الوسطى •

٢ — **الجد والمثابرة** شرطان أساسيان ، فيجب أن يروض الباحث نفسه على الجلد والجد ، وعلى العمل الشاق المستديم ، وعلى الابتعاد عن الجلبة والضوضاء •

٣ — **الشك والنقد** : هما احدى الصفات العلمية التى يتصف بهمــا رجال البحث العلمى • فعلى الباحث أن يشك فى أى رواية نقلت اليه

سماعا أو كتابة ، خاصة أن التاريخ يتأثر بالأهواء الفردية والنزعات الاجتماعية والقومية • كما أن بعض الوثائق القديمة قد تكتسب على مرور الزمن حرمة وقداسة تبعدانها عن ميدان البحث العقلانى فمهمة الباحث تكون شبيهة بهمة المحقق الذى يستنطق الشهود ، يجمع شهاداتهم ، وينقدها فى سبيل استجلاء ما حدث ، أو شبيهة بمهمة القاضى الذى يقارن شهادات الشهود قبل استصدار الحكم • فالشك صفة أساسية للباحث ، فكل معلومة تأتى اليه خبر ، والخبر يحتمل الصدق أو الكذب • وعلى ذلك فعليه أن يغربل المعلومات غربلة دقيقة ، لفصل فاسدها عن صحيحها • ولكن الاصول القضائية أرحم من الاصول التاريخية • فمن أصول القضاء أن المتهم برىء الى أن تثبت ادانته ، أما فى التاريخ فالمتهم مذنب الى أن تثبت براءته • فالاتهام أصل ومبدأ • فكل نص من النصوص التاريخية مشكوك فيه الى أن تثبت صحته ولذا كان على المؤرخ أن يكون شكاكا ، ولكن بطريقة متزنة • وأن ينمى نفسه على الحس النقدى الواعى • ولكن يجب اتخاذ الحذر من المغالاة فى الشك والنقد ، فالباحث لابد وأن يتصف بالاتزان خاصة وأن المؤرخ من أشد الباحثين تعرضا للأهواء والنزعات •

٤ — الدقة والامانة العلمية : —

وهما شرطان أساسيان ، وهما من أهم الأمور التى يجب أن يتصف بهما الباحث فى التاريخ ، لان مجال الابهام والتعميم ، أوسع وأيسر من الدراسات العلمية الاخرى • فكل خطوة من خطوات البحث العلمى تقتضى الدقة والحذر • فعملية البحث عن المصادر تقتضى التفتيش فى كل مكان عن الجديد • واثبات النص والتعرف على المؤلف ، ومكانه وزمانه ، ومقابلة النصوص المختلفة ومقارنتها بعضها بالبعض • كما أن عرض الحقائق العلمية يتطلب الدقة فى التعبير ، والبعد عن الغموض والاضطراب

٥ — النزاهة وعدم الانحياز الفكرى أو القومى : —

ان التجرد أمر يسير فى العلوم الطبيعية ، أما فى العلوم الاجتماعية وخاصة فى التاريخ فهو أمر عسير ، فالانسان يستطيع أن يتجرد من

ميوله وأهدافه وهو يحل مسألة رياضية ، أو يحلل مادة كيمائية • أما فى التاريخ فانه من العسير التجرد من الميول والأهداف عندما ينظر الانسان فى ماضى أمته أو فى قضية قومية • وقديما قال مومسن « أن التـــاريخ لا يكتب بدون حب أو حقد •

والتجرد الذى تتطلبه الكتابة التاريخية هو البعد عن أى هوى أو تحيز أو فكرة مسبقة أن المؤرخ بما له من دقة الشعور ، وحدة البصيرة لقادر على أن ينفذ الى أغوار الشخصيات والجماعات فى المـــاضى ، فيحس أحاسيسهم ، ويختبر ميولهم ورغباتهم وآمالهم وأمانيهـــم ، والظروف التى كانت تحيط بهم ، ومدى تأثرهم بها ، ومدى تأثيرهم فيها • والمؤرخ يجد فى ذلك كله ما يحب ويكره ، وما يقر وما ينكر ، وما يثير فى نفسه الاعجاب ، وما يبعث فى نفسه الحزن والأسى أو الازدراء والاحتقار • لكن واجبه الأمثل هو أن يسعى دائما الى اثبات ما يتوصل اليه عقله ، دون أن يتدخل حبه أو كرهه فى ذلك الاثبات •

٦ ــ الصدق ومحبة البحث عن الحقيقة : ــ

الصدق هو رأس الفضائل التى يجب أن يتصف بها الباحث فى التاريخ، ومن أجل هذه الفضيلة يتحمل مشقة البحث عن الحقيقة بقدر الامكان •؛ لأن التاريخ ليس علما يقينيا • ولا يعلم الحقيقة الا اللـــه • وسلاح المؤرخ فى ذلك الصبر والجلد والمثابرة الدائمة والبعد عن التهويل والمبالغة أو التحقير والتقليل من شأن بعض الأمور • وتجنب استخدام صـــيغ التفضيل والمبالغة • وكلما كان المؤرخ باردا فى تفكيره ، كلما كان أقرب الى الطريق الصحيح • كما أن الأمانة فى ذكر المصدر والمرجـــع ، وفى التعبير ، وفى النقد والشك جزء لا يتجزأ من محبة البحث عن الحقيقة •

٧ ــ الجدية والشعور بالمسئولية : ــ

وهى من أبرز الصفات التى يجب أن يتحلى بها الباحث ، فلابد أن يكون مقتنعا برسالته ، ومدركا للمسئولية الملقاة على عاتقه لتوصيلهـــا للأجيال الحاضرة والقادمة ، وهو مطالب أشد المطالبة بأن يزجر نفسه

ويقهر أهواءه ، ويلتزم بالشروط السابقة ، حتى تأتى أحكامه خالصة ، ونتائجه مفيدة . وتصبح المسئولية ذات عبء ثقيل ، عندما يكون طريق الباحث وعرا محفوفا بالمخاطر أو الاغراءات . كما يجب على الباحث أن يكون مقتنعا بالبحث . فمن الشباب من يهدف من وراء البحث تحقيق كسب تجارى ، فهؤلاء لا تحركهم الروح العلمية ، انما يبتغون تحقيق نجاح ايجابى بروح غليظة .

٨ — **حب السفر والتجوال** : ولابد أن يكون الباحث على استعداد للترحال سواء داخل بلده ، أو الى البلدان الأخـــرى بحثا عن المعلومات والوثائق فيزور الاماكن القديمة ، ومسارح المعارك ، ويتفقد دور الكتب والمحفوظات . ولدينا مثل واضح لما يجب أن يقوم به المؤرخ ضربه لنا المؤرخون الاغريق من أمثال هيرودوت وثوكوديديس ، وكذلك المؤرخون المسلمون الذين قطعوا الأميال بحثا عن الحقيقة فى وقت كانت وسائل الاتصال فيه بدائية وعسيرة ومحفوفة بالمخاطر .

الفصل الخامس

مصادر المادة التاريخية

تختلف مصادر المادة التاريخية باختلاف العصر التاريخى ، بل وباختلاف موضوع التخصص ، فبينما يعتمد دارس التاريخ الحديث على الصحف اليومية والعالمية والوثائق السياسية ، نجد دارس التاريخ القديم يركز على الوثائق البردية والنقوش والآثار ، فى حين يولى المتخصص فى تاريخ العصور الوسطى سواء الاسلامية أو الأوربية أهمية كبيرة للمخطوطات والرنوك والآثار • غير أن هناك ضرورة مشتركة بين الباحثين مهما اختلف تخصصهم فى الاهتمام بما يلى : —

(أ) المصادر الأدبية والفنية للعصر : —

فيقتضى عليه حصر الأعمال الأدبية التى ظهرت فى العصر الذى يتخصص فيه ، وخاصة مشاهير الكتاب ، فنقرأ أعمالهم سواء كانت لها صلة بالتاريخ أو أفكار روائية • كما أن كثيرا من السياسيين اليوم يكتبون سيرة حياتهم autobiography وكذلك مشاهير العصر وهى بلا شك مفيدة للباحث ، لكن عليه أن يأخذ ما بها من معلومات على أنها رواية من جانب واحد ، ولابد وأن يقابلها بروايات أخرى • وعليه أن يتناولها بحذر ونقد ، وألا يصدق كل ما جاءت به تصديقا أعمى ، فالبينة على من ادعى ، لأن الفيصل فى أى ادعاء هو الدليل الذى يقوم على الوثائق الأصيلة •

ولقد اعتاد بعض المؤرخين فى العصور السابقة اعتبار الأدب والشعر والفن جزءا لا يتجزأ من المصدر التاريخى ، فمثلا لأن مدينة أثينا فاقت كل بلاد اليونان فى تراثها الادبى والفنى والفلسفى فقد كانت أغناها تاريخا ، ولكن للفن وللأدب متخصصون وثائقهم هى الفن والأدب ، أما المؤرخ

فعليه أن يفكر مرتين قبل أن يكتب تاريخه على ضوء الأدب والشعر والفنون ، حقيقى أن الأدب والفن وهما المعيار الذى على أساسه نقيم ذلك العصر ، وندرك مدى رقيه ودرجة حضارته ، ولكن لا ندع الفنون وجمالها والشعر وخيال الشعراء ، وتأملات الفلاسفة تفرض نفسها على منهج المؤرخ فى كتابة التاريخ ، فأحيانا يكون المظهر الخارجى للمجتمع Super -- Structure مخالفا لجوهره .

حقيقة أن الأدب والفن والفكر هى الأسس التى تشكل المظهر الخارجى للمجتمع . وأن المزاج والذوق العام فى الانتاج بعكس وضع الوجه الظاهرى للمجتمع ، ولكن ذلك ليس مقيدا لحرية حركة المؤرخ ، لكنه فى نفس الوقت لا يمنعه من الاستفادة من أى مصدر أدبى أو فنى أو فكرى . قد حدث منذ القرن التاسع عشر ثورة ضد المناهج والنظريات الضئيلة لكتابة التاريخ ، فتحت على أثرها الأبواب أمام كل العناصر التى تساعد على تصوير المجتمع من كافة جوانبه الحضارية وعلى رأسها الأدب والفن . ومن ثم يجب على المؤرخ أن يعطى اعتبارا مناسبا للأدب والفن ، اذا وجد فى ذلك افادة تاريخية . ويجب أن يكون هذا الاعتبار محكوما بقدر ، بحيث لا يدع الأدب والفن مثلا يطغى على كتابته التاريخية ، كما يحدث فى بعض حالات الذين كتبوا فى تاريخ مصر القديمة أو تاريخ أثينا ، وفى نفس الوقت يجب الا يهمل الفكر والفن والأدب ويمر عبرها مرورا سريعا لا يلفت النظر ، مما يحرم القارىء من عوامل تساعده على وضوح الرؤيا التاريخية . لكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن الشاعر أو الاديب أو الفنان ليس مقيدابالحقيقة التاريخيةالتى قد تختفى تحت وهج العاطفة ، والخيال ، والحبكة الدرامية ، التى يتطلبها العمل الفنى من أجل اثارة عطف القارىء وامتاعه . فمن مثلا يلزم وليم شكسبير أو أحمد شوقى عما يجىء فى روايتهما عن أنطونيوس وكليوباترا لكن عملا مثل الالياذة لا غنى فى معرفة أحوال بلاد اليونان خلال العصر الذى عاشه هوميروس ، بالرغم من أن هوميروس خلط بين عصرين ، العصر الذى دارت فيه أحداث ملحمته وهى حرب طروادة ، وبين القرن الثامن ق . م وهو العصر الذى عاش فيه الشاعر ، ولا يستطيع أحد

ملاحظة ذلك الا اذا كان ملما بمعالم الحضارة الموكينية (حضارة بلاد اليونان خلال حرب طروادة) وبين حضارة بلاد اليونان خـلال عصر هوميروس • ولكن بالرغم من هذا لا يزال المؤرخون يحللون كلمـات وأفكار الالياذة علهم يرصدون المجتمع والتحرك والتطور الذى حدث فيه ، ولكن ليس كل ما جاء فى الالياذة حقيقة تاريخية • من حق المؤرخ أن يستشهد بأبيات من الشعر وأقاويل من الأدباء اذا تطـابقت مـع الحقائق التاريخية ، وروعة العمل التاريخى هو أن يتطابق الدليل المادى والأثرى مع التراث الأدبى والفكرى •

وفى بعض الأحيان يكون المؤرخ أديبا مثل الحال عند الاغريق فقد كانوا أدباء فى المقام الأول يكتبون ليمتعون قراءهم ، كما أن كتاباتهم كانت تعتبر قطعا من روائع الأدب الاغريقى وهذا واضح من كتابات ثوكوديديس وغيره ، وأن فكرة التاريخ عند الاغريق لم تنفصل أبدا عن غيرها من فروع الثقافة والمعرفة بما فيها من تيارات مختلفة ومتنوعة ، فكلمة هستوريا Historia التى منها أخذت سائر اللغات الأوربية كلمة من صياغ الاغريق ومعناها البحث والفحص فى المعرفة الانسانية التى تختص بماضى الانسان • ومن ثم فان كتابة التاريخ يجب ألا تدرس منعزلة عن الأعم من المعرفة ، بل أنه لا يمكن لأحد أن ينكر فضل المعرفة التاريخية فى مد الشعراء والأدباء بالخيال الخلاق • بل أن البعض يرى أن المؤرخ الناجح هو الذى يجعـل كتـابته مشربة بروح الادب حتى تقرأ كما لو كانت مقطوعات أدبية سامية هدفها مساعدة الناس للالتقاء بالقدماء والتعرف على أحوالهم • ومن ثم فان الكثير من مؤرخى الاغريق القدماء استخدموا طريقة المسرحة فى مؤلفاتهم التاريخية ، ونسـجوا الخطب الغراء ، ووضعوها على ألسنة السياسيين ، واستخدموا طريقـة السوفطائيين فى الجدل والحوار ، وكل ما يساعد المؤرخ على شرح أفكاره التاريخية أن الانسان عندما يقرأ تاريخ ثوكوديديس يحس بذلك كله • فلا مانع اذا أن يستخدم المؤرخ المؤثرات الأدبية والفنية والبلاغية فى صناعة التاريخ •

لقد لاحظ سير أرنولد توينبى أن كتابة التاريخ الاغريقى لم تكن قاصرة على فئة معينة من المتخصصين فى ذلك المجال بل ساهم فى كتابة التاريخ الأدباء والشعراء والفلاسفة حتى الأطباء ، كما أن المؤرخين الاغريق لم يتقيدوا بالموضوعات التاريخية بل كتبوا فى موضوعات متنوعة من الثقافة ، فكتبوا فى الرواية وعلم الوراثة والانثروبولوجيا وعلم الفيزياء وفن الحروب والعسكرية ، وكذلك كان المؤرخون المسلمون.

هناك بعض الحضارات القديمة مثل حضارة مصر الفرعونية وحضارة بلاد ما بين النهرين لا يزال التراث الفنى يلعب دورا كبيرا فى صياغة تاريخها ، لأن هذه الآثار الفنية والأدبية تقوم مقام التاريخ وتمدنا بمعلومات وفيرة عن حياة أصحاب هذه الحضارات سواء الاجتماعية أو الدينية فالرسومات التاريخية الروائية التى تروى أعمال الملوك على بوابات ومعابد الأقصر ، وصورة الحياة اليومية على الأوانى الاغريقية الملونة مصادر مفيدة خاصة اذ صمتت الوثائق والمؤلفات التاريخية القديمة بل أن هذه الآثار الفنية تعتبر المصدر الوحيد لتاريخ الشعوب التى عاشت قبل معرفة الكتابة أو التى لم تحل حتى الآن رموز كتاباتها أو التى لم تترك لنا مدونات مكتوبة ويقل الاعتماد الكلى على المصادر الأدبية والفنية كلما ابتعدنا عن مجال التاريخ القديم الى مجال التاريخ الحديث وفى التاريخ الاسلامى مثلا نجد الاعتماد على النصوص والمخطوطات أقوى من الاعتماد على الفنون المصورة ، وتاريخ أوربا فى العصر الحديث مثلا يكتب فى غياب الشعر والمسرح والفن وعمارة الكنائس لأن الوثائق موجودة وكافية.

كما أن الكثير من الدارسين فى التاريخ القديم يستسهلون عملية كتابة التاريخ على ضوء الادب والفن ، ولهذا اهتموا بتاريخ مصر الفرعونية مثلا وزاد عدد الباحثين فى هذا المجال فى الأونة الأخيرة حتى ضاق حقل البحث وأصبح من الصعب أن يجد الباحث موضوعا فيه. وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ مدينة أثينا المركز الأول للتراث الأدبى والفنى الاغريقى.

ان المؤرخ لن يستطيع أن يحرر نفسه من قيود الموضوعات الأدبية والفنية الا عن طريق المنهج الذى يرسم له طريقه السليم فلا تستهوية الموضوعات الجانبية أو يسحره الجمال الفنى والأدبى ، بل ينظر الى الموضوعات والمواد نظرة خبير متخصص مدرك لما ينبغى أن يكتب ، وتجعله يتحرى ويبحث عن الأدلة المباشرة والواقعية ، مثل النقوش والوثائق البردية والمسكوكات وغيرها من العلوم المصدرية .

(ب) معرفة اللغات الأصلية للوثائق والنصوص الأدبية : —

وقبل أن نعدد أهم هذه العلوم وجب علينا أن نعالج شرطا أساسيا فى اعداد المؤرخ وهو تعلم اللغات القديمة والحديثة اذ يشترط على المؤرخ أن يلم باللغة أو اللغات الأصلية للشعوب التى سوف يتخصص فى تاريخها والمتعلقة بموضوع بحثه . لأن الاعتماد على الترجمة لا يعفى الباحث من لوم عدم الرجوع الى المصدر المباشر ولا يقدم له عذرا اذ كانت الترجمات غير دقيقة أو بعيدة عن روح النص . فمثلا لابد لمن يريد دراسة التاريخ المصرى القديم أن يتعلم اللغة المصرية القديمة وطرق كتابتها الثلاث الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، وكذلك اللغة القبطية أما اذا أراد أن يتخصص فى تاريخ مصر تحت حكم البطالمة والرومان فيتوجب عليه أن يدرس اللغة الاغريقية خاصة الشعبية (Koine) التى (سادت بين الشعوب التى تأغرقت من غير الاغريق) والأغريقية لغة الوثائق البردية ولغة النقوش والنصوص ، ويتوجب على المتخصص أن يلم باللاتينية وان كان استخدامها محدودا فى مصر حتى تحت حكم الرومان . وأما من يريد أن يدرس موضوعا فى تاريخ بلاد الاغريق فلابد من معرفة اللغة الاغريقية القديمة ، واللاتينية بالنسبة لتاريخ الرومان ، أما اذا أراد أن يتخصص فى العصور الأوربية الوسطى فلابد من اجادة لاتينية العصور الوسطى ، وكلما تنوعت اللغات القديمة التى يتعلمها الباحث كلما اتسع أمامه أفق ابحث التاريخى وأصبح قادرا على الدخول فى مجال علم التاريخ المقارن Comparative History

هذا بالنسبة للغات القديمة ، ولكن يشترط أيضا الالمام ببعض

اللغات الأوربية الحديثة نظرا لأن كثيرا من الابحـــاث التاريخية كتبت وتكتب سواء بالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية والايطالية وبذلك يجد الدارس أداة للاتصال والالتقاء والاستيعاب بالأبحاث العلمية الأوربية.

أما المتخصص فى تاريخ الشرق الأوسط القديم مثلا فيتوجب عليه أن يتعلم اللغة السومرية والآكادية ، أو الأرامية والعبرية والفينيقية . أما من يريد مثلا أن يدرس تاريخ مصر تحت حكم العثمانيين فلابد من الالمام باللغة التركية القديمة بكافة خطوطها وهــكذا تختلف اللغــات الاساسية ، ولا يمكن للباحث أن يطرق البحث بدونها .

وقد يرى الطالب أن اجادة اللغات القديمة أمر صعب وعسير ولكن بطول البحث وباستمرار الخبرة تزول هذه الصعوبات وما من باحث أجاد لغة قديمة الا بعد سنوات طويلة من البحث يستطيع الباحث خلالها أن يمرن نفسه عليها مستعينا بالترجمات المعترف بها مؤقتا مع الرجوع الى النص الاصلى ، وهناك سلسلة من ترجمات النصوص — الاغريقيــة واللاتينية سواء باللغة الانجليزية مثل مجموعة Loeb Classical Libarary أو بالفرنسية مجمــوعة Guillium Bude ترجمت مع مضاهاة النص القديم لمساعدة الباحثين الذين لا يزالون فى المرحلة الأولى من تعلم اللغات اليونانية واللاتينية .

أما بالنسبة للوثائق البردية فان الصيغ المتكررة والتقليدية التى نجدها فى الوثائق سرعان ما تصبح مألوفة لدى الباحث حتى أنه اذا وجد فراغا فى الوثيقة يستطيع بسرعة تخمينه ونفس الشىء بالنســبة للنقــوش والمخربشـــات فانهـــا مليئة بالصـــيغ (Formulae) المكررة المألوفة

ولا يكفى الطالب اجادة لغة مصادر بحثه بل يتوجب عليه أن يسافر وينتقل الى أماكن الآثار ليعيش فى المناخ العلمى ، فلا يعقل أن يدرس طالب تاريخ عصر النهضة دون أن يزور ايطاليا ويتجول فى المدن التى أفادت تلك الحركة سواء فى جنوا أو فلورنسا أو البندقية ، ولا يعقل أن يدرس طالب أجنبى الآثار المصرية دون أن يزور الأقصر وسقارة وغيرها

من مناطق آثار مدينة الاسكندرية وغيرها من مناطق الآثار الهللينستية لأن ذلك سوف يضفى على بحثه حيوية ودقة .

ويمكن تقسيم العلوم المصدرية للتاريخ الى نوعين :

(أ) علوم مصدرية أساسية

(ب) علوم مساعدة .

(أ) العلـــوم المصدريـــة Original Sources

١ — الوثائق والمخطوطات Manuscripts and Documents

التاريخ هو الوثائق والمخطوطات ، وبدونهما لا يمكن كتابة التاريخ وأى تاريخ يكتب فى غياب الوثائق والمخطوطات تاريخ وهمى يتوجب النظر اليه بعين الشك وهو فى نظرنا قمامة التاريخ .

ومن ثم يتوجب على الباحث أن يفتش عن الوثائق والأصول التاريخية اللازمة لدراساته . ووثائق العصر الحديث تشمل المعاهدات والمراسلات السياسية ، والتقارير السرية لأجهزة المخابرات ، والتعليمات والأوامر والقوانين . وكانت هذه الوثائق تحفظ قديما عند الملوك والامراء أو عند بعض الزعمـاء ورجـال السياسـة ، أو رجـال الحـرب ، وأحيانا توجد عند بعض الأفراد وتجار الوثائق . أما فى العصر الحديث فقد أدركت الدول أهمية هذه الوثائق منذ قيام الثورة الفرنسية فجمعتها من حوزة الأفراد والتجار ، وحفظتها فى أماكن عامة ، تعرف بـدور الأرشيف (Archives) Record office) ، أو دور الوثائق والمحفوظات ، أو فى دور الكتب والمخطوطات . وأحيانا نجد بعض الكنائس والأديرة مثل دير سانت كاترين بصحراء سيناء يحتفظ بوثائقه(١) . ولهذا ينصح الطالب برصد المكان الذى تحفظ فيه الوثائق الخاصة بالعصر الـذى يريد التخصص فيه ، فهناك أرشيف الفاتيكان ، وفى انجلترا يوجد مكتب

---

(١) دكتور عبد اللطيف ابراهيم . مكتبة دير سانت كاترين . دراسة فى الوثائق العامة فى العصور الوسطى — مجلة جامعة أم درمان الاسلامية بالسودان ١٩٦٨ — ص ١٥١ — ٢٦٠ .

السجلات العامه Public Record office ووثائق وزارة الخارجية Foreign office ، وفى فرنسا تـوجد المكتبـة الوطنيـة ببـاريس bibliotheque Nationale وكذلك أرشيف وزارة الخارجيه الفرنسيه التى تحفظ فيها أغلب الوثائق الفرنسية وفى ايطاليا يوجد مركز الوثائق العامة . وقد حذت حذو هذه الدول كل من ألمانيا وأسبانيا وبلجيكـا والدانمارك وتركيا فأقامت أرشيفات لوثائقها [1] .

وفى عالمنا العربى ، لم ندرك أهمية الوثائق الا حديثا ، ففى مصر يوجد الآن مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر التابع لهيئة الكتاب المصرية . كما يوجد أرشيف وثائق القلعة ، وأرشيف وثائق جامعة الدول العربية بالقاهرة . كما أن جامعة عين شمس قامت حديثا بتصوير أغلب الوثائق التى لها علاقة بتاريخ مصر الحديث وتحتفظ بها فى مركز أقامته هو مركز دراسات الشرق الأوسط . وبالنسبة لتاريخ العصور الوسطى الأسلامية فهناك مركز تحقيـق التراث التابع للهيئة العامة للكتاب كمـا يوجـد مركز المخطوطات بجامعة الدول العربية . وبالنسبة للتاريخ القديم يوجد مركز تسجيل الآثار التابع لوزارة الثقافة المصرية ، كما يوجد فى جامعة عين شمس مركز الوثائق البردية وهو لم يعمل الا حديثا . وتوجد بعض الوثائق والمخطوطات لدى دار الكتب المصرية ، ومكتبة جامعة القاهرة . كما أن مكتبة متحف الآثار المصرية تملك بعض الكـتب والمخطوطات النـــــادرة .

وتسهيلا للباحثين وضعت دور المخطوطات قوائم وفهـارس كثيرة للوثائق والمخطوطات ، ولكن الكثير منها لا يزال غير مفهرس ومطمور بين الأوراق .

وتعرف عملية البحث عن الوثائق بأسم heuristic ، وهى من العمليات الأساسية لكتابة التاريخ . والباحث الذى يكتب بحثه دون أن يحصل على أصول الوثائق ، أو دون أن ينشر وثائق لم يسبق نشرها ،

---

(١) د. حسن عثمان منهج البحث التـاريخى ـ الطبعـة الثـانية ص ٦٥ ــ ٦٨ .

أو التى لم تنشر نشرا عاميا كاملا ، يضيع على نفسه مجهودا كبيرا ، لأن ذلك ينقص من قيمة بحثه مهما بذل من جهد فيه •

٢ ـ الصحف والمجلات :

يعمد الباحث الى مجموعات الصحف المحفوظة فى دور الكتب القومية ، ليستوثق من حدث تاريخى أو اجتماعى معين ، أو ليدرس ردود فعل الرأى العام ازاء اجراء من الاجراءات الحكومية ، أو القرارات والقوانين أو القضايا السياسية والاجتماعية ، أو أى خطوة خطاها حزب من الأحزاب السياسية • فهى اذن مصدر وثائقى عام ، وبالذات عن بعض الجماعات ، أو الفئات الأجتماعية ، والمهنية •

فهى مصدر وثائقى عام لمجموعة المعلومات والوثائق المتصلة بالحقبة التاريخية التى لا يمكن الأطلاع على محفوظاتها ، بل وحتى الحقب التى يمكن الأطلاع على وثائقها السرية ، فالباحث يستطيع استنادا الى الصحافة أن يحدد الخيوط العامة للأحداث •

ومع ذلك فلابد للباحث أن يضع فى اعتباره دائما أن الصحف تميل الى الأثارة ، وتعمد أحيانا الى تشويه الأحداث ، وكما سبق القول ـ ان الدعاية Propaganda هى آفة العصر ، وهى هم كبير للمؤرخين ، الذين سوف يجدون صعوبة فى الكشف عن الحقيقة • غير أن هذا التشوية قد ينصب على فحوى النص ، وطريقة عرضه ، أكثر مما ينصب على المحتوى المادى للاحداث أو الوقائع • وعلى أى حال فالمواجهة بين الصحف الواقعة تحت تأثير السلطة والصحافة ذات الأتجاهات المعينة • قد يؤدى الى الكشف عن الحقيقة • ومن ثم لا يجب الاعتماد على رواية صحيفة معينة حتى وان بدت محايدة [١] •

وثمة حالة أخرى لا يمكن الارتكان فيها على الصحيفة لمعرفة الاحداث، خاصة فى الفترات التى تفرض فيها الرقابة على الصحف ، سواء بدعوى

(١) دكتور خليل صابات : نحو منهج لتحليل مضمون الصحف . مقال منسوخ على الآلة الكاتبة ـ مكتب بغداد ١٩٧٢ •

الأمن القومى ، أو حرصا على سير التحقيق فى بعض القضايا ، لكن فى كل الحالات تبقى الصحف مصدرا غنيا للحياة الاجتماعية ، والسلوك الاجتماعى ، حتى صفحة الوفيات يمكن أن تساعد الباحث على درجة قرابة الفرد المعين برجال الحكم • كما أن الصحف تعبر أحيانا عن الرأى العام ، أو الحادث كما يراه الرأى العام •

وقد تفلت بعض الأحداث الهامة من الصحف ، مثل الاتفاقات السرية التى تعقد بين الدول ، أو قرارات الحروب المفاجئة ، لكن هذه الاخبار قد تظل فى طى الكتمان بعض الوقت ، وعادة ينتهى بها الأمر الى كشفها بطريقة أو بأخرى • فالصحافة اليوم أصبحت السلطة الرابعة •

فضلا عن ذلك ، فأن الصحافة تعتبر مصدرا وثائقيا لبعض الجماعات أو الفئات الاجتماعية ، وتقوم الصحف المتخصصة والمهنية بعرض قضايا هذه الفئات • فلكل جماعة دينية أو اجتماعية أو مهنية أو سياسية صحيفة تعبر عن رأيها ، وما على الباحث الا أن يحلل مضمون الصحيفة ليعرف اتجاه الجماعة التى تصدرها ، وموقفها من بعض القضايا ، وأهدافها التى تعمل على نشرها • وخاصة صحف الأحزاب السياسية ، التى تستطيع من خلال الموضوعات التى تتناولها تحديد الدور الذى تلعبه على الساحة الوطنية والعالمية (١) •

وليست المادة المكتوبة فى الصحف هى موضع الاهتمام ، بل أن الصور الفوتوغرافية التى يلتقطها مصورو الصحف للأحداث ساعة وقوعها ، أدلة ثابتة ومعبرة لا تقدر بثمن ، بل أن رسوم الكاريكاتير المعبرة عن المواقف السياسية والأجتماعية ذات فائدة عظيمة لأنها قد تحمل تعبيرا قد يعجز القلم عن التعبير عنه •

وثمة شىء آخر نلفت نظر الباحث اليه وهو الاتصال الوثيق بين الصحافة المحلية والصحافة العالمية ، فلابد من التحرى عن رد فعل الاحداث

---

(١) دكتور خليل صابات : الصحافة كوثيقة بحث فى العلوم الاجتماعية. بغداد ١٩٧١ •

المحلية فى الصحافة العالمية ، خاصة صحافة البلدان ذات النفوذ الدولى أو التى تتشابك مصالحها مع مصالح البلد الذى ندرسه .

واذا كانت أوروبا قد عرفت الصحف منذ الربع الأول للقرن السابع عشر ، فأن مصر لم تخبرها الا منذ نهاية القرن الثامن عشر مع قدوم حملة نابليون بونابرت . اذ أصدرت الحملة الفرنسية جريدة باللغة الفرنسية وموجهة أساسا الى جنود وضباط الحملة ، وتتضمن كل الأخبار العسكرية والادارية فى الوطن الأم أو فى مصر . وتعرف هذه الجريدة بأسم « أنباء مصر Le Courrier de l'Egypte ، بعد ذلك أسس نابليون بونابرت المعهد المصرى L'Institute d'Egypte ، الذى أصدر دورية لنشر أبحاث أعضائه اسمها « العقد المصرى » La Decade Egyptienne (١)

وبعد جلاء الحملة عام ١٨٠١ توقفت هذه الصحف ، وبقيت مصر بدون أى صحف حتى عام ١٨٢٨ عندما ظهرت مجلة الوقائع المصرية كجريدة رسمية تنشر بالتركية والعربية وقائع ونصوص القرارات . ولم يهتم بها سوى كبار الموظفين ورجال الادارة التركية فى مصر ، وبالتالى كان توزيعها محدودا جدا . وبقيت القاهرة المدينة الوحيدة التى تصدر هذه الجريدة الوحيدة ، حتى أصدر رجل فرنسى يقيم فى الأسكندرية واسمه كامى تورل Camille Turles ، أول جريدة للاسكندرية وهى « المرشد المصرى Moniteur Egyptien ، وذلك فى عام ١٨٣٣ ، وكانت تصدر أسبوعيا وباللغة الفرنسية ، وكانت تتلقى اعانة مالية من الخديو نظير نشر نشاطاته المختلفة ، ونظير المديح فيه أمام الباب العالى . غير أن هذه المجلة الاسبوعية لم تعش طويلا اذ توقفت بعد تسعة أشهر من صدور أول عدد لها .

وفى عام ١٨٦٧ ، بعد افتتاح قناة السويس ، أصدرت الشركة المشرفة عليها بايعاز من فرديناند دى ليسبس مجلة هى جريدة القنال Le Journal du Canal وكانت مهمة هذا الجورنال هو الدفاع عن

(1) Khalil Sabat, La Presse Regionale En Egypte, Le Caire 1971., Passim.

الدفاع عن فرديناند دى ليسبس ومشروعه والرد على هجوم • الصحافة عليه • وفى عام ١٨٧٥ أسس سليم وبشارة تقلا جريدة الأهرام •

ومن العجيب أن أول مجلة اقليمية ظهرت باللغة العربية ظهرت فى أسيوط عام ١٨٨٦ ، وكانت نصف شهرية واسمها « النزهة » وبعد ذلك تحولت الى جريدة أسبوعية ، ثم نقلت مقرها الى الأسكندرية بعد أن تزايد عدد قرائها بشكل مذهل • وبقيت أسيوط بدون جريدة حتى عام ١٨٩٣ عندما ظهرت فيها مجلة الراوى » • وهى مجلة أدبية نصف شهرية ، وفى نفس ذلك العام ظهرت فى أسيوط أيضا مجلة أدبية وعلمية اسمها « رياض التوفيق » وهى مجلة شهرية ، وهكذا توالت الصحف الاقليمية من أسيوط نظرا لبعدها عن القاهرة ، وقلة وسائل الترفية فيها •

ومع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، بدأت الصحف المصرية فى التزايد ، وهذه أهم الصحف التى يستطيع الباحث الرجوع اليها لدراسة تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية

١ — الأخبار •	٢ — الأهرام •
٣ — الأهالى •	٤ — البصير •
٥ — الجريدة •	٦ — السفور •
٧ — الشعب •	٨ — الشباب •
٩ — المقطم •	١٠ — النظام •
١١ — الوقائع •	١٢ — الوطن •
١٣ — وادى النيل •	١٤ — المصرى •

كيف يتعامل الباحث مع الوثائق :

بعد تحديد ورصد أماكن الوثائق سواء من خلال المراجع العامة أو من خلال قوائم الوثائق والمخطوطات يبدأ الطالب مرحلة شاقة وعسيرة وأول هذه المراحل جمع الوثائق وعليه أن يراعى خلال هذه المرحلة النصائح التالية : —

١ - على الباحث أن ينقل بنفسه جزءا من الوثائق الأصلية التى يجدها فى الأرشيف حتى يكسب شيئا من التجربة الذاتية ، بتعامله مع الأوراق المكدسة ، فيلم بشىء من خصائصها من حيث نـوع الورق ، والحبر ، وأقلام الكتابة ، والأختام الممهورة بها ان وجدت وله الحق فى الاستعانه بالأخصائيين فى علم الوثائق • وعليه أن يصور ما يريد من وثائـق •

٢ - من الضرورى أن يفهم الباحث محتويات ما ينقله من الوثائق والمخطوطات ويستوعبها أولا بأول ، حتى لا تتراكم أمامه ، ولذلك ينبغى عليه أن يلخص مضمونها فى هوامش الصفحات ، لكى تكون واضحـة سهلـة •

٣ - يجب على الباحث أن يدون تعليقه أولا بأول ، مسجلا ملاحظاته أو نقده حول الوثيقة ، سواء من ناحية حالتها ، أو ما تثيره من معلومات ومسائل معينة ، أو الاشارة الى وثائق أخرى لها علاقة بها يتوجب الرجوع اليها ، واذا كانت الوثائق منشورة عليه أن يدون المرجع الذى نشرها ليتأكد أنها نشرت بطريقة صحيحة غير منقوصة • وكثيرا ما يتعرض الباحث فى هذه المرحلة من البحث الى صعوبات ومشاكل معقدة ، عليه أن يتقبلها بصبر واناة ، ويدون ملاحظاته أولا بأول [١] •

٤ - لا مانع أن يستعين الباحث بالصور الفنية واللوحات والرسوم والكاريكاتير المعبر وبالتماثيل والصور الفوتوغرافية التى دخلت حديثا كمصدر من مصادر المعرفة وكل هذه وثائق ناطقة • كما يتصل بالوثائق أيضا - كما سنـرى - آثار الانسان من مـلابس ومساكن وأدوات وأسلحة وكتابات منقوشه • لأن من مهمة الباحث التعرف على طريقة معيشة الناس ، وأزياءهم ومخلفاتهم الشخصية ولهذا عليه أن يتردد على المتاحف العامة والخاصة ، ويزور القصور والمبانى والأماكن التى كانت شخصياته تقطنها • وبعضها تحول الآن الى أماكن عامة • فاذا

---

(١) د. حسن عثمان المرجع السابق ص ٧٧ •

ما فعل الباحث ذلك تشبع بـــروح العصر وأصـــبح قريبا من نفوس شخصياته . لكن عليه الا يخلط بين روح عصره الذى يعيش فيه ، وروح العصر الذى يكتب عنه ، والا وقع فيما وقع فيه الشاعر القديم هوميروس عندما خلط بين روح عصرة وأفكار عصر الحروب الطروادية التى كتب حولها الياذتة . ويعرف بعض النقاد عملية الخلط بين عصر المــؤرخ والعصر الذى يكتب عنه بأن افساد للحقيقة التاريخية أو تلويثها Contamination

ولعل من أهم مجموعة الوثائق التى تتعلق بتاريخ مصر خلال العصر الفاطمى والمملوكى وثائق الجنيزة ونظرا لأهميتها لابد من معالجتها بشىء من التفصيـــــل : —

مجموعة وثائق الجنيزة : — The Cairo -- Geneza documents

تعتبر مجموعة وثائق الجنيزة من أهم المصادر الوثائقية عن تاريخ مصر ابان عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، بل فى العصور اللاحقة ، اذ أن بعضها يتبع التسلسل الزمنى حتى القرن التاسع عشر ، وتختص وثائق الجنيزة بوضع الجالية اليهودية فى مصر والعالم العربى خلال هذه الفترة ، وهى لحسن الحظ كتبت باللغة العربية لكن بالحروف العبرية . وكلمة الجنيـــزة Geneza كلمة عبرية تعنى « المخـــزونة » أو « المدفونة » داخل المعبد . فقد كان اليهود يحفظون الأوراق التى عليها أسم الله حتى لا يهان لفظ الجلالة عندما تلقى فى أماكن لا تليق . ولهذا وجدوا الحل فى خزنها فى حجرة بالمعبد أشبه بصومعة الغلال ، أطلقوا عليها اسم الجنيزة ، حيث تختلط الأوراق بعضها بالبعض دون ترتيب أو نظام . وبالتالى لا يمكن أن نطلق عليها اسم « أرشيف الجنيزة » .

وأكثر من تسعة أعشار وثائق الجنيزة خـــرجت من احـــدى معابد اليهود فى مدينة الفسطاط (مصر القـــديمة) والذى بنى منـــذ أيـــام الفاطميين ، ويعرف باسم معبد الفلسطينيين . وظل هذا المعبد القديم قائما . حتى فكر يهود القاهرة فى التعاون لأعادة بنائه بين عامى ١٨٨٩ — ١٨٩٠ بعد دخول مصر تحت الأحتلال البريطانى وخلال عملية هدمه

واعادة بنائه خرجت هذه الوثائق التى تسربت فى أول الأمر الى حوزه الهواة والبحاثة من الاوروبيين الذكن اشتروها بثمن بخس ، ونقــلوها الى متاحف بلادهم • وهناك عكف علماء اليهود على دراستها ونشرها فى مجموعة أهمها مجموعة تشستر Taylor Schechter Collection المحفوظة الان فى مكتبة جــامعة كمبردج بانجلترا ، ومجمــوعة متحف البودليان Bodlian Collection فى اكسفورد • وهناك مجموعات متفرقة فى كثير من مكتبات انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا والنمسا •

ووثائق الجنيزه متنوعة الموضوعات • وهى أغلبها وثائق شخصية ، مثل الخطابات الخاصة وعقود البيع والشراء ، وبعضها أحجبة وتعاويذ ، أو ايصالات لمعاملات أو ودائع • ونظرا لأنها غير مرتبة ، فقد وجد العلماء صعوبة كبرى فى ترتيبها سواء من حيث الموضــوعات أو العصور أو حسب أسماء شخصياتها ، فحاولوا جمعها فى مجموعات متجانسة بقدر الأمــكان •

ولو ألقينا نظرة على مجموعة كمبردج مثلا نجد أنها تحتوى عــلى أربعة عشر وثيقة ، احداها عقد لرهن أحد البيوت ، ووثيقة مــؤخر صداق ، وخطاب من ابن الى والده ، يحدثه فيه عن أول أيامه فى الدراسة فى مدرسة جديدة فى الفسطاط التحق بها ، وقائمة بالبضائع التى أرسلها أحد التجار من القيروان فى تونس الى آخر يقيم فى اليمن ، ووثيقة صلح بين اثنين من اليهود شهد عليها بعض كبارهم وقاضى المسلمين ، وصفحة من كتاب صلوات على هوامشه حسابات خاصة ، كما تحتوى مجموعة كمبردج على أربعة عشر وثيقة أخرى تتناول أشخاصا مختلفين فى بلاد مختلفة من العالم العربى الأسلامى حول موضــوعات مختلفة والفارق الزمنى بين أقدم وثيقة وأحدثها يزيد على ستة قرون من الزمان • وتعرف مجموعة كمبروج بأسم دفينة القاهرة Cairo Geneza
ومن هم الدراســات التى نشرت عن هــذه الوثائق مؤلف ســولومون جويتين (Goitein) الذى يقع فى ثلاثة مجلدات وعنوانه « مجتمع البحر المتوسط كما تصوره وثائق جنيزة القاهرة فى العصور الوسطى » •

وسولومون جويتين (1) يهودى من أصل مجرى ، انتهز فرصة وجوده فى القاهرة حيث كان يعمل مدرسا للغة العربية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة حتى عام ١٩٤٨ ، لينكب على دراسة هذه الوثائق ، ثم نشرها فى هذا المجلد الضخم الكبير الحجم ، والذى ضـــمن فيه كل قرآته فى كتب التراث الأسلامى عن مجتمع العصور الوسطى • سواء كانت هذه الكتب مصادر تاريخية ، أو مؤلفات أدبية ، لكنه ركز بالطبع على ابراز دور الجالية اليهودية ونبوغها فى العالم الاســـلامى • ومن الدراسات الهامة التى كتبت عن وثائق الجنيزة كتاب أصدره اسرائيلى فرنسى اسمه الياهور أشتور بعنوان « الأسعار والأجور فى البلاد الاسلامية فى العصور الوسطى • وهناك أبحاث متفرقة قام بها فريق من الباحثين المصريين مثل البحث الذى كتبه الدكتور حسنين ربيع وعنوانه « وثائق الجنيزة وأهميتها دراسة التاريخ الأقتصـــادى لموانىء الحجـــاز واليمن فى العصـــور الوســـطى •

وبالاضافة الى وثائق معبد الفلسطينيين بالفسطاط عثر أيضا عـــلى مجموعة أخرى من وثائق الجنيزه فى مقبرة البساتين بالقرب من القاهرة وعـــلى أى فـــأنه من المستحيل فى الوقت الحاضر كما أشـــار جويتين Goitein تقدير العدد الحقيقى لوثائق الجنيزة ومن المحتمل أن يبلغ عددها جميعا حوالى عشرة آلاف وثيقة ، منها حوالى سبعة آلاف وثيقة شبه كاملة ، ويوجد من هذه الوثائق الكاملة فى مكتبة جامعة كمبردج حوالى خمســـة آلاف وثيقة ، وفى مـــكتبة البـــودليان Bodlian بجامعة أكسفورد حوالى ٧٠٠ وثيقة • كما توجد ١٤ مجمـــوعة أخـــرى موزعة بين مكتبة المتحف البريطانى بلندن ، والمكتبة الوطنية بفيينا ، ومكتبة جامعة برنستون ، ومكتبة جامعة فيلادلفيا بالولايات المتحدة ،

---

1. Solomon Goitein : Mediterranean Society, 3 vols, Berkeley and Los Angeles, 1967.

2. E. Ashtor, Prices and Wages in the Islamic countries in the Middle Ages. also his A Social and Economic History of Near -- East in the. Middle Ages, (Berkeley, Los Angetes, London) 1976.

فضلا عن عدد من المجموعات الخاصة فى باريس وغيرها من عواصم العالم تحتوى على عدد يتراوح ما بين ٦٠٠ الى ١٠٠٠ وثيقة .

وقد اشتملت وثائق الجنيزة عامه على وثائق سرية وغير سرية وهى متنوعة منها خطابات شخصية وحسابات مالية وضرائبية ، وعقود ايجارات لحوانيت ودور ، وأثمان سلع ومتاجر مختلفة ، وسجلات قضائية ، وايصالات ، وعقود زواج وطلاق ، ورهونات وقـــروض ، ومقايضات ومشاركات ، ووصايا ، وهبات ، وعتق ، وفتاوى شرعية ، ووصـــفات علاجية وطبية ، وسحر وتعاويذ وشعوذة ورسائل تعزية وتهنئة ، كلها رغم تنوعها تذكر أخبار مالية أو عائلية . كما يحمل بعضها التماسات الى الحكام ، ويتعلق البعض الآخر بقوافل الحجاج .

وكما سبق القول ترجع أغلبيه هذه الوثائق الى العصرين الفاطمى (٣٥٨ — ٥٦٧ هجريه = ٩٦٩ — ١١٧١ ميلادية) والأيوبى (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ = ١١٧١ — ١٢٥٠ م) . وهناك وثائق ترجع الى العصر المملوكى (٦٤٨ — ٩٢٢ هـ = ١٢٥٠ — ١٥١٧ م) وبعض الوثائق ترجع للعصر التركى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحتى مطلع القرن العشرين . أى ما يقرب من ألف عام . ان هذه المجموعة الفريدة من وثائق الجنيزة قد أضافت رصيدا لمساهمة مصر فى تراث العالم العربى والاسلامى والحضارة الانسانية ولا يفوقها أهمية سوى مجموعات الوثائق البردية اليونانية . ان مجموعة الجنيزة تلقى ضوءا هاما على الأحوال الأقتصادية والاجتماعية والثقافية فى بلاد العالم الاسلامى ابان العصور الوسطى ، مثل الأندلس ، والمغرب والشام والعراق وايران والحجاز واليمن [١] ، ويرجع ذلك الى حركة انتقال الناس بين هذه البلدان فى ظلال السلام الأسلامى الذى ورث السلام الرومانى . وهى تمدنـــا بمعلومات فريدة عن الأسعار والسلع ، والمتاجر ، والمعاملات ، ونفقات

---

(١) د. حسنين محمد ربيع : دراسات تاريخ الجزيرة — الكتـــاب الأول : مصادر تاريخ الجزيرة الجزء الثانى — مطبوعات جامعـــة الرياض ١٣٧٩ — ١٩٧٩ (وثائق الجنيزة واهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانى الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ص ١٣١ — ١٤٤ .

المعيشة ، وأنواع المعاملات النقدية ، وأسعار الصرف بين الدينار الذهب والدرهم الفضة ، وبين الدرهم الفضة والفلس النحاس . وهى معلومات لا غنى عنها للمهتمين بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، بل أنها تملأ الفراغ فى تاريخ هذه الفترة الذى يعج بتواريخ السلاطين والحكام ، والمعارك والحروب ، والتيجان والتتويج ، انها تمثل تاريخ الناس ، بصورة صادقة وحقيقية . كما أن الوثائق القليلة التى وجدت مكتوبة بالخط العربى واللغه العربية تظهر لغه ديوان الانشاء وغيرها من الدواوين حيث يعمل اليهود فتفيدنا فى معرفة تاريخ اللغة العربية وما طرأ عليها من تغييرات نحوية ولفظية ، فضلا عن الأساليب المتنوعة واللهجات الاقليمية مثل الأندلسية والمغربية واليمنية والشامية والمصرية والعراقية (١) .

والباحث سوف يواجه بعض المتاعب عند دراسة وثائق الجنيزة لانها غير منظمة وتغطى فترة طويلة ، كما أن أغلبها غير مؤرخ ، فضلا عن اختلاف الخطوط ، واللهجات ، والمصطلحات ، فضلا عن تشتتها بين مكتبات العالم . فقد يجد الباحث مثلا جزءا من وثيقة فى مكتبة جامعة كمبردج والجزء الاخر فى البودليان بأكسفورد أو فى المكتبة الوطنية بفيينا ، أو لا يعثر على الجزء الباقى على الاطلاق . ولهذا ينبغى على الباحث أن يتوخى الدقة والحذر لانها غير مؤرخة ، ويستدعى ذلك منه الألمام بالصيغ الكتابية ، واللهجات العربية ، وأنواع الخطوط ، والأحبار ، والورق . ناهيك عما تعرض له شطر كبير من هذه الوثائق من عوامل الرطوبة ، وسوء الحفظ ، ورداءة الحبر المستخدم ، لكنها مع ذلك تبقى كنزا من المعرفة أمام الباحثين والمحللين للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى للعالم الاسلامى خلال العصور الوسطى .

٣ - النقوش :

ان النقوش مصدر يزداد يوما بعد يوم بفضل اكتشافات الأثريين مما يعطى المؤرخ حيوية وتجديدا بدونها تتجمد المعلومات وتتكرر كما أن

(١) انظر د. حسنين ربيع - المقال السابق ص ١٤٣ - ١٤٤ .

الصدفة هى الاخرى تكشف لنا عن كثير من الاثار المنقوشة التى لا تزال فى باطن الارض . ولهذا ستظل النقوش تقدم للمؤرخين المادة والمصدر .

ولقد تقدم علم النقوش خلال القرن الأخير تقدما مذهلا سواء من ناحية ازدياد عدد المتخصصين فيه ، أو من ناحية المهارة والدقة فى حل وتفسير الرموز وجدير بالذكرمثلا لولا حجر رشيد ونجاح شامبليون فى حل نقوشه ما كان هناك علم الدراسات المصرية ، لأنه حل رموز الكتابة الهيروغليفية وقليلا قليلا ازداد عدد الخبراء فيها وأضاف كل منهم ما استطاع الى قاموس اللغة المصرية القديمة . ونفس الشىء بالنسبة لرولنسون Rawlinson الذى حل رموز اللغة السومرية وفنتريس Ventris وشادويك Chadwick اللذان حلا رموز النقوش الموكينية القديمة .

ويقول الاستاذ «وودهيد» فى كتابه عن النقوش وعن أهميتها لابالنسبة للمؤرخ فحسب ، بل للباحثين فى سائر العلوم المساهمة الضرورية «أن مهمة عالم النقوش هى مهمة القائد الاعلى للجيوش فى الميدان ، الذى يحرك فروع القوات المختلفة لصالح المعركة ، ولا يشترط أن يكون دقيق الالمام والخبرة بطبيعة عمل كل فرع ولا يتدخل فيه تدخلا دقيقا » . ومعنى ذلك أنه لا يشترط على المؤرخ أن يصبح عالما فى النقوش Epigraphist بل ، يكون على معرفة بقراءة النقش وتحليله واستخدامه الاستخدام السليم وكلما كان المؤرخ أكثر الماما بنقوش لغة العصر الذى يتخصص فيه كلما كان أقرب الى المعرفة الأصلية . لأن تزايد الاهتمام بالنقوش خلق فريقا من المتخصصين مهمتهم اعداد النقش فنيا وملىء فراغاته وتقديمه كنص تاريخى للمؤرخ ليعلق عليه [1] .

ان علم النقوش يموج بآلاف القرارات والمعاهدات القديمة التى نقشت على الاحجار،وحفظتها لنا الصدفة كما خطها النقاش ،بعضهاقرارات

(1) A.G Woodhead, The Study of Greek Inscriptions, Cambridge University Press, 1959, pp 2-5.

خطيرة ترتب عليها تطورات هامة حدثت منذ آلاف السنين مما يعطى النقوش أصالتها وأهميتها لأن المؤرخ سوف يقرؤها مباشرة كما لو كان يعيش العصر الذى كتبت فيه • وهذا هو سحر التاريخ عندما يصبح الباحث وجها لوجه مع الحقيقة الأصلية وبلا وسيط ، لأن المؤرخين القدماء الذين كتبوا فى التاريخ اعتمدوا على نقوش أيضا لكنهم كتبوا بدافع من اتجاهات معينة أو برؤيا معينة ثم ضاعت النقوش التى كتبوا على ضوئها وبقيت كتاباتهم التاريخية التى علينا أن نقبل تفسيراتهم وآرائهم لأنها الدليل الوحيد المتبقى أما اذا عثرنا على النقش الأصلى فأن دراستنا تصبح موضوعية لا تضعنا تحت رحمة المؤرخين القدماء •

لكن جدير بالذكر انه ليس كل ما يجىء فى النقوش القديمة معلومات حقيقية قد حدثت بالفعل ، لأنها مليئه بصيغ المبالغة واذا تحدث النقش عن قرار فليس معنى ذلك أن هذا القرار قد اتخذ ، واذا كان القرار قد اتخذ فليس معنى ذلك أنه كان ناجحا أو أحدث تأثيرا كبيرا ، فالملوك المصريين كثيرا ما بالغوا فى أعمالهم وفتوحاتهم مثل رمسيس الثانى ، بل أن بعضهم نقل بالحرف الواحد أعمال الملوك العظام ممن سبقوه ، ونسبها الى نفسه ،كما أن القرارات التشريفية التى عرفتها بلاد اليونان كلها كانت رياء وتملقا من أجل أغراض خاصة • فكما يحدث فى البيانات التى تصدر فى عصرنا الحاضر عقب زيارات والتقاءات القادة لابد من قراءة ما بين السطور بقدر ما فى السطور ذاتها ، لان فن الدعاية كان أيضا معروفا عند الشعوب القديمة ويشكل سلاحا من أسلحة صراعاتها السياسية والحربية • وفى بعض الأحيان تتعرض النقوش الرسمية للتزوير ، عندما يخلع ملك أو حاكم معين لوحة منقوشة من على بناء جميل بناه أحد أسلافه ويضع مكانها لوحة تنسب البناء له • وهذا الشىء حدث فى جميع فترات التاريخ ، فالرومان مثلا عندما دخلوا مصر وأسقطوا حكم البطالمة محوا كل ذكر لهم من على الآثار والمعابد ووضعها بدلا منها ما يشير الى أعمال أباطرتهم • ولكن الصدفة أحيانا تكشف عن الحقيقة الأصلية عندما يعثر على النقش الأصلى مدفونا بين الانقاض أو مشوها وهناك مثل صارخ على تزوير النقوش من العصر الاسلامى • فقد

بنى الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان مسجد قبة الصخرة عام ٩٧ هـ ، بعد أن خصص لبنائه خراج مصر ، لمده سبع سنوات • ولما تم البناء أقيم نقش يسجل بنـاء عبد الملك للمسجد ، ولما أسـقط العباسـيون الحكم الأموى ، حاولوا محو آثارهم ، اذ قام الخليفة العباسى المأمون بمحو اسم عبد الملك من النقش وكتب اسمه مكانه بعد أن رمم المسجد ، غير أنه نسى تغيير التاريخ المسجل ، وبذلك اكتشف علمـاء الآثار هـذا التزوير بفضل هذا الخطأ الذى وقع فيه المأمون ولكن تبقى أهميـة النقوش فى أنها تقـدم لنا مـا أراده كاتبوها للنـاس أن يعرفـوه فى ذلك الوقت ، بصرف النظر عن درجات الحقيقة ومقدارها ، ويكفينا أننا نطلع على شىء أصلى ونعرف منه مباشرة •

ومن المشكلات التى تواجهها المصادر النقشية أن غالبيتها تشوهته عوامل المناخ والطبيعة لتعرضها للشمس والهواء والمطر ، ولهذا فـان الكثير منها غير كامل أو مهمل أو غير واضح ، لكن التقدم الذى وصـل اليه المتخصصون فى هذا المجال ذلل الكثير من هذه الصعوبات عن طريق ملىء الفراغات وتخمين الاجزاء المهشمة عن طريق سياق النص العام •

هذه بالنسبة للنقوش الرسمية الكبرى التى تنقش فوق المعابد والآثار الكبرى ، أو تقام على لوحات من الحجر أو المرمر لتقام فى المدن كاعلانات رسـمية •

أما النقوش الصغرى وهى غالبا غير هامة لأنها خاصة بعامة الناس الذين نقشوها على قرابينهم التى يقدمونها للآلهة ، أو توقيعات الرسامين على الأوانى المصورة أو أسماء وتواريخ وفاة الموتى على شواهـد القبور • وان كانت شواهد القبور تساعدنا فى رصد الأوبئة ومعرفه نسبة الوفيات ، ومتوسط أعمار المتوفين •

وينسب الى النقوش أيضا علم قراءة المخربشات Graffiti وهى الكتابة بالحفر البسيط مثلما يفعل الناس على الآثار الحجرية وهى معلومات عفوية وشخصية لكنها فى بعض الأحيان تعطينا صورة تاريخية حية صادقة ، مثل المخربشات التى تراكمت عبر آلاف السنين على تمثال أبو الهول ونشرها المرحوم سليم حسن ، أو مثل المخربشات الموجودة

على معبد الكرنك أو معبد أبو سنبل ، أو حول تمثالى ممنون فى الاقصر ، وهذه المخربشات تصبح مثيرة عندما تكشف هوية الزوار الاجانب الذين زاروا هذه الآثار وتركوا انطباعاتهم النفسيه والشخصية عليها •

ومن فروع النقوش أيضا « الأوستراكا » Ostraka أو قطع الشقف الفخارى المكسور والمستخدم للكتابة عليه بالحبر سواء الاسود أو الأحمر • وقد انتشر هذا الفرع من النقوش فى مصر بعد الفتح المقدونى حيث انتشرت اللغة الأغريقية بين السكان بفعل المستوطنين ، وأصبح يكتب على الاوستراكا فى القرى المصرية خاصة بالنسبة لبراءات دفع الضرائب وأقدم صك من الاوستراكا يرجع الى عام ٢٧٤ ق•م وبمرور الزمن اتسع المجال الذى استخدمت فيه الاوستراكا ليشمل خطابات شخصية وتمرينات لتلاميذ المدارس ، وتعاويذ السحر ، والمدونات الدينية سواء الوثنية أو المسيحية • ويعتبر أقليم الأقصر (طيبة) من أهم مصادر الاوستراكا ويليها أقليم الفيوم ، كما عثر عليها فى قفط وأسوان ودندره والنوبة والبهنسا وبعض المناطق الأخرى فى الصعيد • لكن لم يعثر عليها فى أقاليم الدلتا بسبب رطوبة التربة وكثرة الأمطار •

وعادة تخرج الاوستراكا من أكوام القمامات حيث كان يلقى دائما بالمواد المراد التخلص منها ، كما يعثر عليها أيضا فى أطلال المنازل الاثرية القديمة عندما تكشف عنها الحفائر الاثرية • وقد يجد الباحث فى الأوستراكا مصدرا وفيرا لتاريخ مصر منذ الربع الأول من القرن الثالث قبل الميلاد حتى نهاية القرن الخامس الميلادى •

من حق الباحث أن يرجع الى النقوش سواء كانت منشورة (Edited) أو غير منشورة (Unedited) لكن كلما دعم بحثه التاريخى بوثائق غير منشورة فانه يكون أقرب الى الأصالة •

وتسهيلا على طلاب البحث العلمى فى الأجزاء المختلفة من العالم لجأت الجامعات والأكاديميات الى جمع النقوش المتفرقة فى مجلدات منظمة (Corpus) بعضها يتخصص فى مناطق معينه • حتى توفر على الباحث مشقة السفر والبحث عن هذه النقوش •

٣ - علم الوثائق البردية Papyrology

من المعروف أن نبات البردى من النباتات التى كانت تنمو بكثرة فى مستنقعات مصر القديمه • ومن ثم استخدمه المصريون القدماء بعد تقطيع سيقانه كمادة للكتابه بديلا عن الورق الذى لم يعرفه العالم القديم الا بعد الفتح العربى اذ تعلم العرب طريقة صناعته من شعب الصين القديم • ومن ثم فأن كلمة « ورق » فى اللغات الأجنبية اشتقت من اسم النبات Papyros كما ورد عند الأغريق •

ولتصنيع الورق منسيقان البردى ، تقطع السيقان الى قطع ثم تستخرج الشرائح من كل جزء وتوضع كل بجانب الاخرى ، ثم ترص فوقها شرائح أخرى راسية حتى تلتصق بعضها بالبعض ، ثم ترش بمادة لاصقه ويضغط عليها بثقل وتترك لتجف فى الشمس • وبعد أن تجف يصقل وجه الورق بنوع معين حجر الصقل أو بقطعة من العاج وأحيانا كان يصقل وجه الورق بطبقه رقيقه من معجون الدقيق والماء والخل ويترك ليجف ثم يضغط عليه بثقل مرة أخرى عندئذ يصبح ملمسه ناعما صالحا للكتابة • وأحيانا يباع الورق شرائح صغيرة أو يلصق ليكون لفافات يتعدى طولها مائة قدم • وأطول وثيقة بردية ، بردية هاريس Harris Papyrus المحفوظة فى المتحف البريطانى وترجع الى عصر رمسيس الثانى ويبلغ طولها ١٣٣ قدما • أما عرض البرديات فيتراوح ما بين ٤ بوصات واثنى عشره بوصه •

كانت الكتابة عادة على وجه الوثيقة ((Verso)) وليس على ظهرها ((Recto)) وتطوى بعد ذلك فى شكل لفافه صغيرة ، وأحيانا كان يكتب من الخارج عنوان الوثيقة أو عنوان الخطاب ان كانت رساله • وكان الكاتب يكتب بريشه مصنوعة من البوص ويستخدم حبرا أسود (وأحيانا أحمر فى حالة الكلمات الأولى فى الصفحه أو الجزء أو الكلمات الهامة فى النصوص اللاهوتية المسيحية • والكتابة فى شكل أعمدة متراصه داخل الوثيقة الواحدة) •

وقد كان لمناخ مصر الجاف ، ولرمالها الناعمة ، دور كبير فى جعل مصر هى المصدر الأول للوثائق البردية فى العصر القديم وحتى ما بعد الفتح العربى • وعادة نعثر على وثائق البردى داخل اطلال منازل القـــرى والمدن القديمة على حافة الصحراء والتى هجرت لانحسار مياه الرى عنها ، وأحيانا نعثر عليها فى أكوام النفايات خارج القرى والمدن القديمة حيث كان يلقى عادة بالاشياء المستعملة والمراد التخلص منها • وفى بعض الأحيان نعثر على أوراق البردى داخل المقابر أو المعابد القديمة أو داخل صوامع الغلال الرئيسية فى القرى •

لقد بدأت الوثائق البردية تتسرب من مصر الى متاحف أوروبا منذ عام ١٧٧٨ حيث كان السباخون الذين يبحثون عن السباخ فى أطـــلال المنازل القديمة يعثرون عليها ويبيعونها للهواة من الزوار الأجانب ، وقليلا ازدادت أهمية هذه الوثائق عندما عرفت كمصدر للأداب الأغريقية مما دفع الجامعات الانجليزية الى ارسال بعثات للتنقيب عن أوراق البردى فى اطلال مدن مصر القديمة • وكان من أشهر الذى نقبوا عن أوراق البردى الاستاذان ب جرنفل و أ • هنت ، وكانت أهم مناطق العثور عليها مدينة أوكسيريخوس (البهنسا محافظة بنى سويف) والحيبة (بالقرب من الفشن محافظة المنيا (Hebe) ، كما أن أقليم الفيوم كان من أغنى المناطق الذى أخرجت العديد من الوثائق ، ومن هذه المدن تبتونس (أم البريجات فى جنوب شرق الفيوم) وكرانيس (كوم أوشيم فى شمال الفيوم) ، وأرسينوى (كيمان فارس قرب مدينة الفيوم) • وغيرها من المدن والوثائق البردية المصرية مكتوبة بعدة لغات قديمة مثل الديموطيقية وهى الخط الشعبى للمصرية القديمة وكانت لغة المصريين ، ولكن منـــذ فتح الاسكندر لمصر علم ٣٣٢ ق•م وتدفق المستوطنين الأغريق على وادى النيل بدأت الوثائق الاغريقية تظهر وأول وثيقة بردية أغريقية هى عقد زواج عثر عليه فى أسوان ومؤرخ بعلم ٣١١ ق•م • وبأزدياد عـــــدد المصريين الذين تأغرقوا بظهور طبقه من أبناء الطائفتين اتسع نطـــاق اللغة الاغريقية خاصة أنها كانت لغة الدولة الرسمية التى تشترط الدولة

أن تكون المراسلات والاعمال مكتوبة بها ، ازداد عدد الوثائق الاغريقية حتى أصبح يطغى على الوثائق المصرية ولما فتح الرومان مصر عام ٣٠ ق٠م ، ظلت اللغة الإغريقية كما هى ولم يحاول الرومان فرض اللغة الرومانية عليها ولهذا فان الوثائق البردية المكتوبة باللاتينية محدودة الكمية ٠ وظل الحال كذلك خلال الدولة البيزنطيه ٠ وحتى بعد الفتح العربى لمصر عام ٦٤٢ ميلادية ظلت الوثائق البردية متوفرة فى البدء استمرت تكتب بالاغريقيه ، ثم بالعربية والاغريقية وأخيرا سادت اللغة العربية ، ولهذا فأن الباحث فى التاريخ الأسلامى سوف يجد مجموعات ضخمه من وثائق البردى المكتوبه باللغة العربية والتى ترجع الى مطلع الفتح العربى لمصر ومصدرها عادة مدينة أفروديتوبوليس (كوم شقاو بالقرب من طما) ٠

ووثائق البردى تقسم عادة الى وثائق أدبية أو وثائق سياسية ، وهى التى تطلق عليها اسم (Documents) ، أو خطابات خاصه Private Letters وهى التى تتناول أحوال الناس ومصالحهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية ٠ وهى تتميز بالحيوية والصدق لأن كتابها من زعامة الناس البسطاء بعضهم كان أميا يستخدم الكتبة المحترفين ، الذين كانوا يوجدو بالقرى والمدن ، وكان هؤلاء الكتاب يختلفون فى درجة تعليمهم منهم من درس الادب الاغريقى وتأثر به ، وبأسلوب بلاغته ، ومنهم يستخدم لغة ركيكة ويرتكب أخطاء نحوية ولفظية ، ومن الطريف أن علماء البردى فى عالمنا الحديث يصححون هذه الأخطاء كما يصحح المدرس قطعة املاء لتلميذ صغير ٠

وتتنوع موضوعات الوثائق الشخصية من خطابات يرسلها الناس لبعضهم البعض ، الى عقود زواج وعقود بيع وشراء ورهن وتشغيل ، والى عقود طلاق ، وتبنى ، وشكاوى مقدمة للحكام ، ووصيات ومنازعات ضائعة ، وتمارين مدرسية ووثائق قانونية ، وترانيم دينية ، وتعاويذ من السحر وكل ما يعكس حياة الناس عبر ما يقرب من ألف عام منذ فتح الأسكندر لمصر حتى ما بعد الفتح العربى ٠ ويبلغ حجم ما نشر حتى الآن من

وثائق بردية ما يزيد على ٢٠٫٠٠٠ وثيقة نشرت فى مجموعات أو فى مجلات علمية • أما الوثائق التى لم تنشر فلا يقدر حجمها ولا تزال رمال مصر تجود علينا من آن لآخر بالمزيد من هذه الوثائق •

وهناك نوع من الوثائق البردية نعثر عليه فى أكفان التماسيح المحنطة التى كان يقدسها الناس فى ذلك الوقت فاذا ماتت استخدموا أوراق البردى المستعملة فى تغطيتها بدلا من النسيج وهذا يساعدنا فى العثور على آلاف من الوثائق فى مكان واحد • ويرجع الفضل فى ذلك الاكتشاف الى الحادثة المشهورة التى حدثت فى ١٦ يناير عام ١٩٠٠ عندما كان العمال يبحثون عن الوثائق فى أطلال مدينة تبتونس أم البريجات جنوب الفيوم ولم يوفقوا لأنهم لم يستخرجوا سوى موميات التماسيح المحنطة التى لم تكن بذات قيمة علمية ، وساء ذلك رئيس العمال الذى انهال بفأسه على أحدى الموميات وسرعان ما كشفت عن آلاف الوثائق البردية وأصبح العثور على احدى موميات التماسيح المحنطة ، يعنى العثور على كمية كبيرة من أوراق البردى • وقد قام العالمان البريطانيان المستر هنت وجرنفل بنشر هذه الوثائق المستخرجة من موميات التماسيح بمساعدة زميل ثالث هو سمايلى وذلك خلال عام ١٩٠٢ • ويرجع تواريخ هذه الوثائق من نهاية القرنين الثانى والأول ق•م خلال القرن الثالث الميلادى وفى بعض الأحيان تكون الوثائق متصلة بموضوع واحد وشخص واحد ويطلق العلماء على هذه المجموعة اسم أرشيف Archive ، ومن أشهر هذه الأرشيفات أرشيف زينون المحفوظ بمتحف القاهرة وكان زينون وكيل أعمال أبو للونيوس وزير مالية بطليموس الثانى لمدة عشرين عاما ابتداء من ٢٦٢ ق•م • وكان لابولونيوس ضيعة فى مدينة فيلادلفيا فى جنوب شرق الفيوم (جرزة الحالية) جعل زينون وكيلا عليها وكان غالبية هذه المراسلات تدور حول ما

(1) E.G. Turner, Greek Papyri - An Introduction. The Clarendon Press, 1968, p. 128 f.

E.G. Turner, op. cit., p. 30 ff. An Introduction.

يهم الضيعة وتصدير منتجاتها • وكذلك أرشيف أسرة ســارابيون من الاشمونين (هرموبوليس ماجنا) بالقرب من ملوى •

ان علم الوثائق البردية لا يدور حول موضوع معين بل يشمل كل جوانب الحياة ومن ثم فهو حقل غنى لدارس تاريخ مصر وأحوال الناس فيها دراسة اقتصادية واجتماعية ، انها معلومات مباشرة من النـــاس وعن الناس • وبالاضافة الى ذلك فأن هناك عددا كبيرا من القـــرارات والوثائق السياسية ذات الأهمية التاريخية مثل قرارات ملوك مصــر البطالمة ، أو خطاب الامبراطور كلاوديوس الى أهل الاسكندرية عقب اندلاع الحرب - بينهم وبين اليهود والذى عثر عليه عام ١٩٢٢ فى فيلادلفيا بالفيوم ، وكذلك قرار كاركالا الشهير الذى أصدر عام ٢١٢ ميلادية ومنح فيه الجنسية الرومانية لكافة شعوب الامبراطورية فيمـا عدا المستسلمون ، وبردية الاديوس لوجوس (كاتب الحسابات الطارئة) الخاصة ببعض اللوائح المالية والضرائبيه • كلها وثائق تاريخيـــة سياسية من الدرجة الأولى •

أما الوثائق الشخصية فربما تكون أقل أهمية من ناحية الموضوعات السياسية بسبب عفوية العثور عليها،اذ لم تحفظ بتنظيم معين ،غير أن تنوع موضوعاتها يعطيها حيوية وأهمية خاصة ، وفضلا على أنهاتعكس صورة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والنفسية للشعب المصرى فى فترة معينـــة مـــن تاريخه ، كما أنها مصدرا للادارة والتنظيم فى مصر ، وتكشـــف عن بيروقراطية الادارة البطلمية وجشع الادارة الرومانية فى اســتغلال خيرات الشعب المصرى لاقصى درجة من أجل صالح الشعب الرومانى ، كما تعكس ظهور الأقطاع فى العصر البيزنطى وتدهور الملكيات الصغيرة ، فضلا عن تدهور وانحطاط الثقافة الاغريقية ، وطغيان الثقافة المصرية عليهـــــــــا •

---

(1) J.G. Winter, Life and Letters in the Papyri — The Jerome Lectures, Michigan, An Arbor.

ولغة الوثائق البردية لغة أغريقية مبسطة مصرية محليـــة وقد اتخذت طابعا خاصا وهو تأثرها باللغة والفكر المصرى اذ لم تعــد أغريقية خالصة ، وتتدهور اللغة الأغريقية فى الوثائق البردية تدريجيـــا كلما غادرنا العصر البطلمى حتى تصل الى درجة يرثى لها من الركاكه فى العصر البيزنطى ، ولكن ذلك قد يختلف حسب طبيعة الوثيقـــة ودرجـــة كاتبها من التعليم •

لقد تطور علم قراءة الوثائق البردية فى السنين الأخيرة ووصل الى درجة عاليه من المهارة بسبب وجود متخصصين فنيين يستخدمون الوسائل العلمية الحديثة مثل الأشعة ما تحت الحمراء لقراءة الكلمات «المشطوبة» لمعرفة ماذا كان يريد الكاتب أن يقول ثم تراجع عنه • لكن يجب أن يتوفر فى قارىء الوثائق البردية سواء الديموطيقية ،أو الاغريقية ، أو اللاتينية المكتوبة بها الوثيقه وذلك المام كبير بفقه اللغه (Philology) حتى يتهيأ له القدرة لفهم ما يجىء فى الوثيقة ، لان اللغة دائمة التطور حسب ظروف المكان والزمان ، وتطور الثقافة واختلاطها • وفى بعض الأحيان يتغير معنى اللفظ ليأخذ معان متفاوته أو متضادة ، ومن ثم فعلى المتخصص أن يهيأ نفسه ليكون على مستوى الادراك اللغوى لكاتب الوثيقة • كما أنه يجب أن يتوفر فى عالم القراءات البردية مقدرة معينة فى علم قراءة الخطوط Palaeography لأنها تعوده على القــــراءة الصحيحة وتجنبه الكثير من الخطأ لأن الخط يتغير حسب الزمان والمكان كما تدخل فيه الاختصارات والاختزال • وليس هذا مطلوبا فى المتخصص فى النصوص المصرية والاغريقية واللاتينية فحسب ، بل يشمل تاريخ العرب قبل الاسلام وتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى وفى العصر الحديث • كما ان الخبرة بأنواع الخطوط يساعد الباحث على تقدير عصر الوثيقة عن طريق مقارنة الخطوط المختلفة ورصد تطورها عبر العصور • رغم هذا فان للوثائق البردية مشاكلها ، والقراءات قد تختلف وتتنوع حسب نظرة وقدرة المتخصص وذلك لأن الكلمات لم يكن بينها فواصل بل الحروف منسابه وعلى القارىء أن يقسم كل مجموعة حروف ليحولها الى كلمـــة

وهذا ما يجعل القراءة قابلة للأختلاف فى بعض الأحيان •

ورغم هذا لا يشترط فى الباحث فى التاريخ أن يكون خبيرا بالدرجة الأولى فى قراءة الوثائق البردية لأن هذا من عمل المتخصص فى البردى (Papyrologist) لكن يشترط فيه الالمام بقراءة الوثائق للرجوع الى التحقيق الذى يقدمه المتخصص •

ان أهمية الوثائق البردية يكمن فى انها لا زالت هى المصدر المتحرك فقد نعثر فى أى لحظة على وثائق جديدة تعطينا معلومات قد تغير رأسا على عقب المعلومات السابقة عليها •

والى جانب البردى يوجد الرق Parchment الذى يصنع من جلد الحيوانات من أجل الكتابة عليه • ومن أشهر الوثائق الرقية لفائف البحر الميت The Dead sea scrolls التى عثر عليها أحد الرعاة من الأعراب فى احدى الكهوف المطلة على البحر الميت عام ١٩٤٧ واسمه محمد الدهيب ، وقد عثر على هذه اللفائف محفوظة فى جرار ذات اعناق طويلة ، وحمل الصبى اللفائف لبيعها الى احد تجار العاديات فى بيت لحم وتنقلت هذه اللفائف حتى استقرت فى دير القديس مرقص فى القدس وقد أثارت هذه اللفائف جدلا عنيفا بين الاثريين والمتخصصين بعد أن عثر على المزيد منها وتبين انها كانت مكتوبة بالعبرية القديمة أو الآرامية على رقائق الجلد ، وهى تختص بعظات لنبى يرى البعض أنه يوحنا المعمدان ، ويرى آخرون أنها كانت ملكا لطائفة من اليهود الذين ثاروا على الرومان عام ٦٨ ميلادية وتحصنوا فوق صخرة المسادا الشهيره •

ان وثائق البحر الميت تعد من أكبر الاكتشافات التاريخية فى القرن العشرين ، كما أثارت جدلا دينيا بين المسيحيين واليهود ، لانها احتوت موعظات شبيهة بموعظات السيد المسيح ، وهذا القى الضوء على تاريخ الديانات فى فلسطين والتى انتقل تأثيرها مع المسيحية ليؤثر على عقلية وتفكير العالم المسيحى فى أوروبا والشرق •

٤ ـ علم النوميات (المسكوكات) : Numismatics

ومن العلوم المصدرية التى لا غنى عنها لمؤرخ علم المسكوكات أو النقود لأنها عماد دراسة الاقتصاد القديم ومرآة النشاط التجارى والحركة بين شعوب العالم . فضلا على انها دليل تاريخى واضح لما تحمله من تاريخ ضرب العملة ، واسم الملك أو الامبراطور الذى ضربها وسنى حكمه ، وشعار الدولة ، كما أن الملوك والقادة فى العصر القديم استخدموا النقود لنشر أفكار معينة بين الناس،لانها أسرع تداولا من أى شىء آخر ، ودراسة الشعارات المصورة على العملة لا تزيد معرفتنا بقاده وآلهه الشعوب فحسب ، بل الأفكار والاحساسات التى ترمز لها الشعارات والصور .

والعملة لا تحدد تاريخها فحسب ، بل أن العثور عليها فى مكان يساعد أيضا على تحديد تاريخ المكان ، فلو أننا عثرنا على عملة داخل بيت قديم مثلا نستطيع ان نقارن بين عمر الدار وتاريخ العملة ، أما اذا عثرنا مثلا على عملة فى أساس بيت فلابد أن تكون العملة أقدم من البيت ذاته ، فهى اذا وسيلة هامة لتحديد التواريخ .

ان العملة القديمة مرآة الاقتصاد ، لأن فكره العملة ظهرت لتسهيل النشاط التجارى ، فالتجار قبل ابتكار العملة كانوا يتعاملون بقطع المعادن الثمينة مثل الذهب والفضه ، ثم لجأوا الى وضع اختامهم عليها لضمان نقاوة معادنها ووزنها . وقد ظهر هذا التطور فى آسيا الصغرى خلال القرن التاسع ق. م. وكان المعدن المفضل لسك العملة آنذاك هو خليط من سبيكةالذهب والفضة بنسب معينة ويسمى الخليط الالكترون electrum وتسمى المسكوكة من الفضة والنحاس باسم البللون (Bullion)

ولما بدأت فكرة الدولة تزداد وضوحا وبدأت تشرف على حركة التجارة نظرا لشدة التنافس عليها بين المدن المختلفة تدخلت حكومة

A.H.M. Jones, Numismatics and History, in Essays in Roman Coinage Presented to Harold Mattingly, Oxford 1956, pp. 13-33.

الدويلات لوضع ضمان على هذه القطع المعدنية ، بأن تتعهد بضمان قيمة وزنها ونقاء معدنها ، ويعتقد علماء المسكوكات أن أول دولة توصلت الى ذلك هى مملكة ليديا فى آسيا الصغرى • وسرعان ما أعجب هذا التصرف المدن الاغريقية التجارية التى كانت تنتشر على طول ساحل آسيا الصغرى وفى بحر ايجه وهى مدن كان عملها الأول بل والوحيد هو التجارة بين شعوب هذه المنطقة ، ووجدت حكومات المدن الاغريقية أن فى ضمان الدولة لقطع المعادن المستخدمة لتبادل قيمة الاشياء المباعة ضمانا كبيرا لاستقرار التجارة الخارجية ، ومن ثم لجأوا الى اتباع هذا النظام ، وقد ناسب وضع الشعار الخاص بكل مدينة على قطع المعدن اتجاه دويلات المدن الأغريقية التى كانت تحرص على توكيد شخصيتها واستقلالها • ومنذ عام ٧٠٠ ق•م• بدأت النقود الاغريقية تظهر فى مناطق واسعة من حوض البحر المتوسط ، فى مصر وسوريا وشمال أفريقيا مما يعكس حجم التجارة بين مصر فى عصر الأسرة الصاوية وبين المدن الأغريقية فى آسيا الصغرى أو فى بحر ايجه ، بل انها الدليل الوحيد على قيام هذه التجارة • فقد كانت مصر بلدا مكتفيا اقتصاديا فى العصور القديمة الا من خشب الارز والفضة لأنها كانت معدنا نادرا بعكس الذهب ، ولهذا حرصت المدن الاغريقية على سك نقودها من الفضة لتقديمها الى المصرين فى مقابل القمح الذى كانت تنتجه بلادهم بوفرة ولهذا يجد الدارس للعلاقات التجارية القديمة لمصر أمامه مجموعة كبيرة من النقود الفضية لعدد كبير من المدن الأغريقية ، ومن ثم يستطيع أن يحدد نسبة التعامل مع كل منها والتطور الذى يطرأ على هذا التعامل نتيجة لتغير الأحوال السياسية وتسابق المدن فيما بينها ،لاحتكار سوق التجارة الدولية مع مصر • والعملة ترتبط بقوة الاقتصاد المحلى لأن ذلك ينعكس على مركزها الدولى • فقد كانت مدينة قورينة الأغريقية فى ليبيا مشهورة بتصدير نبات السلفيوم الطبى الذى كان الطلب عليه شديدا فى العالم الخارجى ولقد وضعت مدينة قورينى رسم هذا النبات على عملتها رمزا وشعارا للمدينة • ومن ثم نجد هذه العملة منتشرة فى بقعة واسعة من مصر وبلاد

اليونان وايطاليا وآسيا الصغرى • ولما حاولت روما مثلا أن تفرض سيادتها سياسيا على بلدان البحر المتوسط عقب هزيمة هانيبال فى نهاية القرن الثالث ق•م لجأت الى دعم الدينار الرومانى ليصبح عملة لها احترامها بين بلدان البحر المتوسط بل ان مصر البطلمية خفضت عملتها آنذاك حتى تصبح مساوية لقيمة الدينار الرومانى ، وحذى حذو مصر سائر الممالك الهللينستية • وكان ذلك بداية السيطرة الفعلية للرومان على اقتصاديات بلدان البحر المتوسط •

كما أن النقود هى المقياس الدقيق للتجارة ، ولنفوذ الدولة ، فهى أيضا مقياس لحالة الاقتصاد الداخلى ، فقديما كانت الدولة الغنية تحرص على ثبات وزن العملة ونقاوة معدنها سواء من الذهب أو الفضة ، أما وكلما أفلس الاقتصاد أو تعرضت الدولة لمتاعب اقتصادية فأنها تلجأ الى تخفيض وزن العملة أو تقليل نسبة المعادن الثمينة فيها بخلطها بمعادن رخيصة مثل البرونز او القصدير وقد لجأت الامبراطورية الرومانية عدة مرات الى تخفيض عملتها املا فى اعادة تنشيط اقتصادها وفى مصر مثلا ينعكس الخراب الاقتصادى للبلاد تحت حكم الرومان فى القرن الثالث الميلادى باختفاء العملة الفضية التى كنا نجدها فى بداية حكم الرومان وتحولها الى شبه برونزيه ، أطلق عليها الرومان اسم العملة الأهلية (Rubrai) ، بينما بقيت العملة الفضية رمزا غير موجود تحسب على أساسه الضرائب •

ومن مقاييس الازدهار فى البلدان القديمة تتبع فئات العملة الى فئات متدرجة ، وكلما كان أصغر الكسور متداولا فمعنى هذا أنه مطلوب فى التعامل ، ومعنى مثلا أن نجد « الفلس » أو المليم ونصف المليم متواجد بكثرة ، فمعنى ذلك وجود حالة رواج تعاملى ورخاء اقتصادى ، أما اذا اختفت هذه الفئات الصغيرة أصبح الثقل مركزا على العملات الكبيرة كان هذا دليلا على ارتفاع الأسعار وازدياد التضخم ويستطيع المؤرخ أن يدرس ذلك عن طريق دراسة شاملة للعملة •

ان دراسة العملة علم وفن وتاريخ ، علم لأن لها أصول وقواعد ، وفن لأن العملة مجال ودراسة فنية وتصويريه ، وتاريخ لأنه يسهل تصنيفها زمنيا وحسب الأماكن التى ضربت فيها ، فضلا عن النقوش والتواريخ لتى نجدها على وجه لعملة . ولهذا ساهم علم دراسة النقود مساهمة كثيرة فى اثراء المعرفة التاريخية ببلدان العالم القديم والحديث خاصة عندما تسكت الوثائق أو تعجز عن التعبير ، أو تكون نادرة . فمثلا فى القرن الثالث الميلادى الذى يعتبر أفقر عصور الامبراطورية الرومانية تاريخا ، لا توجد كتابات ذات أصالة ، والنقوش نادرة ، والوثائق لا توجد سوى فى مصر وكلها موضوعات محليه واجتماعية . لا يوجد أمام الدارس سوى دراسة العملة ، لمعرفة شخصيات الاباطرة والتطور الاقتصادى والسياسى الذى حدث .

وللعملة وجهان الوجه الأول (Obverse) ، وظهر العملة reverse ، فعلى الوجه نرى عادة رأس الامبراطور أو الملك Bust وعليه اسمه ولقبه وتاريخ توليه ، وعلى الظهر رمز المدينة أو شعارها أو رمز مناسبة تاريخية معينة مثل ضم مملكة أو قيام دويله جديدة وهذا دليل تاريخى هام . كما أن العملة تكشف عن هوية كثير من الجماعات السياسية التى كان لها كيان خاص مكنها من سك عملة كرمز لسيادتها ووجودها السياسى . وعلى ظهر العملة (Reverse) عادة يوضع رمز المدينة أو الدولة أو أسطورة لها علاقة بالدولة،أو بمناسبة معينة مثل النقود التذكارية وهذا يجعل دراسة النقود مصدرا لتاريخ الأساطير والعبادات والفنون ، وازدهار التجارة أو فتورها وعلاقات الدول والمقاطعات مثلما الحال فى أوروبا ابان العصور الوسطى كما أن انتشار العملة فى مناطق خارج البلاد التى سكت فيها العملة ، يبين مدى النشاط السياسى والتجارى لبعض الدول مثل العملة الصينيه والهندية فى شرق أفريقيا والعملة العربية فى شمال غرب أوروبا ، وآثار العملات الايطالية فى الشرق العربى ، ومثل انتشار الفلورن فى أنحاء أوروبا منذ عصر النهضة ،

ومن هذا يستطيع الباحث استخراج الادلة التاريخية رغم صحة الوثائق والنصـــــوص •

ان الأساطير والرموز الدينية والشعارات السياسيه والتذكاريـــات التاريخية كانت الدولة تستخدمها لنشر أفكار معينة لأن العملة سريعة التنقل بين الناس خاصة أن الصورة كانت أكثر تعبيرا من الكتابة بين شعوب كانت نسبة الامية شديدة الارتفاع بينهما • وكثيرا من الشعارات كانت تستخدم لخدمة الجيوش والصراعات الحربية خاصة لأنها كانت تسك لدفع رواتب الجند فى الدرجة الأولى • فمثلا سك الامبراطور أغسطس فى غداة فتح مصر عمله تذكارية عليها صورة التمساح احدى المعبودات الشائعة العبـــادة ، وتحمـــل عبارة مقتضـــية هى لقـــد فتـــحت مصر Aegypto Capta وكانت أبلغ شعار أوجز كلمات أراد الأمبراطور نشره بين الناس •

وقد يكون هناك صعوبة فى تفسير الرموز الدينية على النقود القديمة لقلة معرفتنا بها ولندرة المصادر التى كانت تفسر معانيها ، ولكن فى أوروبا العصور الوسطى لدينا مصادر أدبية مصورة تشرح معانى هذه الرموز • فمثلا نعرف من يوحنا الافيسوسى John of Ephesus أن رمـــز القسطنطينية فى القرن السادس الميلادى هو رمز ربة الجمال الاغريقية أفروديت ، ولما جاء الامبراطور طيباريوس وغير هذا الرمز الى الصليب عرفنا أن الامبراطور جستينيوس الثانى Justin II صاحب فكرة وضع شعار أفروديت ، كان يعتنق الوثنية سرا •

لقد كانت الرسومات توضـــع على ظهر العملة أشبه برســـومات طوابع البريد فى عالمنا الحديث ، أى أنها كانت وسيلة للدعاية للفت النظر الى حوادثها أو زعمائها أو آثارها أو تفوقها فى مجال ما ، كل هذا يكشف جوانب من تاريخها القومى ويكشف عقلية وسيكولوجية القائمين على الحكم • ومن ثم يقتضى أحيانا الحذر لأن المبالغة والتهويل كان صفة عامة فى الدعاية القديمة مما يجافى الحقيقة التاريخية •

كما تلقى النقود أحيانا الضوء على بعض القضايا الدستورية التى تصمت الوثائق ويسكت المؤرخون عن الحديث عنها . فمثلا تكشف عن مدى استقلال الدويلات والمقاطعات حتى تسك عملة لنفسها ، ولماذا يسمح الأباطرة لبعض الدويلات بسك عملة مستقلة داخل الامبراطورية ويرفضون هذا الحق بالنسبة للآخرين ، وقد يكشف هذا مسائل دستورية وقانونية معقدة ، فهل كان سك العملة حق من حقوق الامبراطور ، أو من سلطه السناتو والشعب الرومانى ، أو من سلطه حكام الولايات ومتى يجوز ومتى لا يجوز سك العملة المحلية ، وسوف يجد الباحث فى تاريخ الاقتصاد والنظم الاقتصادية أدلة أخرى تساعده فى هذا المجال ، مثل ذلك القرار الذى أصدره الاثينيون فى صدر امبراطوريتهم بفرض العملة الاثينية كعملة رسمية فى جميع أجزاء الامبراطورية وهذا القرار يعتمد على قواعد دستورية كما يوجد هناك عدة قرارات تنظيمية تنظم التعامل بالنقد المختلف فى المدينة الواحدة والاعتراف بعملة معينة للتعامل بها داخليا وخارجيا . وهناك خطاب مثير أرسله أحد المسئولين الى أبوللونيوس وزير مالية بطلميوس الثانى ويستفسر فيه عن نظام النقد الرسمى الجديد الذى كانت الحكومة بصدد اصداره وعن مصير العملات الاجنبية القديمة وهل يجوز اعادة ضربها نقودا بطلمية بعد صهرها حتى يمكن — استخدامها فى مصر لأن الدولة حرمت التعامل بالنقد الاجنبى . ويقترح المسئول أن تستورد الدولة كميات كبيرة من الذهب لضربه عملة مصرية حتى يكون النقد المصرى آنذاك جديدا وقويا ، ومغريا للتعامل به خارج حدود مصر عندما كانت تجارتها تسيطر على آسيا الصغرى وجزر بحر ايجه آنذاك . لقد فعل البطالمة ذلك كجزء من مخطط سياستهم التوسعية التجارية فقد كانوا يجمعون النقود الذهبية الاجنبية ويعيدوا ضربها فى مصر بعد وضع شعار البطالمة عليها ، ولكن المسئول الذى أرسل[1] الخطاب يسأل وزير المالية اليس من الأرخص أن تستورد كميات من الذهب تسك باسم مصر بدلا من جمع النقود الاجنبية لاعادة ضربها فى مصر وجعلها بطلمية . فكلما حاولت دولة ما بناء امبراطورية كلما

(1) Jones, loc. cit., P. 16 ff.

سعت الى فرض عملتها جنبا الى جنب ع قوانينها فى الاجزاء التى تطمع فيها ، حتى أن الاثينيين مثلا أعلنوا فى صبيحة قيام الامبراطورية أنهم على استعداد لاستبدال العملات القديمة التى كانت تصدرها المـــدن الاغريقية قبل ادماجها فى الامبراطورية الأثينية ، بعملة أثينا الجديدة أو الدولة المتحدة التى تحمل اسمها وشعارها •

ولما قام الحلف الاخى فى القرن الثالث قبل الميلاد اعلنوا ــ كما يقول بوليبيوس Polybius ــ أنهم اتفقوا على موازين ومعايير وعملة واحدة ، يتداولها الاعضاء كرمز لقيام الاتحاد ، مع السماح بوضع اسم كــل مدينــة على العملــة الموحــدة للاتحــاد ، اذ لم تكن هنــاك خزانة واحدة بل ترك لكل مدينة الحق فى اصــدار عملة محلية يشرط أن تذكر أنها عملة للاتحاد الاخى ضربت فى مدينة كذا • اذن فحركات الاتحادات الدستورية والسياسية تنعكس فى دراسة العملة لكنها مرآة تاريخ الاقتصــاد السياسى •

ويعثر على النقود القديمة فى الاماكن الاثرية ،وخاصة فى المنازل التى تكشف عنها الحفائر الأثرية المنظمة ، وأحيانا توجد فرادى او مخبأة فى شــكل خبيئات (hoards) قد تشمل الخبيئه الواحدة بضع آلاف من القطع ، وهنا يمكن للدارس أن يستخلص معلومات تاريخية مفيدة عن المكان وتسلسل العملة والتطور الذى مرت به مقارنا ذلك بتطور الوضع السياسى والاجتماعى • ففى قرى مصر فى العصر الرومانى مثلا لاحظنا أنه كلما تدهورت الاوضاع فى السياسة الامبراطورية كلما ازداد التدهور الاقتصادى ، عندئذ يلجأ الفلاحون الى جمع الخبيئات فى منازلهم كانعكاس لعدم الامن الاجتماعى ، كذلك يستطيع المؤرخ أن يقيس حجم الرواج العمرانى والتجارى والعسكرى بحجم العملات التى تصدر فى عهد معين ، لان الحكومات كانت تسك النقود لدفع رواتب الجند وللانفاق على المشروعات العمرانية ، اذن فهى مرآة للنشاط العام للحكومات التى تصدرها •

وقد ترتبط النقود ارتباطا عاطفيا ببعض الشعوب والبلاد فتبقى مستخدمة فيها اسما وفعلا والمثل على ذلك واضح من الماريا تريزا Maria Theresa عملة الامبراطورية النمسوية التى كانت لاتزال مستخدمة أو مقلدة فى الحبشة واليمن حتى وقت قريب ، ان المؤرخ يستطيع أن يقدر حجم التجارة بين الامبراطورية الرومانية والهند مثلا عن طريق كميات النقود الرومانية التى عثر عليها هناك لابد أن تكون الهند قد صدرت بضائع بقدر قيمة هذه النقود ان لم تكن تزيد عنها لأن — ميزان التعامل لم يكن فى صالح الامبراطورية مما ادى الى انهيار اقتصادها (١) .

ثانيا : العلوم المساعدة غير المصدرية :

الى جانب هذه العلوم المصدرية التى تمد الباحث مباشرة بالمعلومات التاريخية هناك علوم تساعد الباحث على فهم الحقائق التاريخية واستنباط الجديد منها ولكنها ليست مصدرية كما هو الحال فى أوراق البردى أو النقوش أو النقود أو الوثائق ، ونستطيع أن نوجز هذه العلوم على النحو التالى : —

١ — الجغرافيا الطبيعية والبشرية :

من الأقوال المأثورة أن التاريخ هو علم الزمان أما الجغرافيا فهى علم المكان الذى له أثره فى توجيه أحداث الزمان ، فكيف يدرس الزمان بعيدا عن المكان ؟ ان الجغرافيا هى البوابة التى نمر عبرها الى التاريخ ، فطبيعة الأرض ومصادرها أثرت فى بيئة الانسان ووجهت ظروفه وحددت ملامح تفكيره ومجال خبرته ونوع علاقاته بجيرانه ، بل طبيعة الأرض التى يعيش عليها الانسان أثرت فى تكوينه الفسيولوجى والنفسى ونظمه السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفى المعارك والحروب تلعب طبيعة مسرح المعارك الجغرافية دورها فى تحديد الجانب

(١) انظر بحثى « الرومان والبحر الأحمر » — البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة — سمناء الدراسات العليا بجامعة عين شمس مارس ١٩٧٩ : ص .

لمنتصـــر ، كمـــا قـــدر لدول بسبب موقعهـــا الاستراتيجى أن تسـبق غيرها فى التحرك نحو الحضارة والتجارة والتوسع وبناء الامبراطـورية ولا نعتقد أن السبب يقبع فى طبيعـــة العنصر الســـكانى بل فى جـــغرافية البـــلاد .

وأحيانا تدخلت الجغرافيا تدخلا جاسماغير مجرى الاحداث التاريخية كما يقول الاستاذ الدكتور حسن عثمان ، فمثلا كان البحر هو العامل الوحيد الذى عاق تيمور لنك عن العبور والاندفاع الى أوروبا لغزوها وذلك بعد أن هزم بايزيد الأول فى موقعة انقرة عام ١٤٠٢ م وبذلك نجت الدوله العثمانية الناشئة من الهـــلاك التام وبقيت لتلعب دورها الكبير فى تاريخ البحر المتوسط وتغير بدورها أقدار دول كثيرة .

أن للمناخ أثره ايضا فى حركة الانسان ودرجة تقدم حضارته ، فكلما كان المناخ مناسبا للحياة خارج الكهوف والمنازل كان الاحتكاك الاجتماعى أسرع والحضارة تنشأ من هذه الاحتكاك الذى يتمثل فى البيع والشراء والالعاب الرياضية وتسلية الاخرين بالاغانى والتمثيل أو الانشاد ، أما اذا كان المناخ قاسيا فانه لا يساعد على الحياة الاجتماعية التعاونية بل ان المناخ يتدخل احيانا فى تغيير مسار الاحداث التاريخية فقـــد ساعدت العواصف وهياج البحر ، الاسطول الانجليزى فى سحق الارماد الاسبانية عام ١٥٨٨ ، وبالتالى أدى ذلك الى اختفاء أسبانيا من مجال القوة والسيطرة ، وصعود انجلترا محلها ، كما أن شتاء روسيا القارس وثلوجها تخلق لها غطاء دفاعيا يقيها من الغزاة مثلما حدث عام ١٨١٢ عندما فشلت حملة نابليون وتكبد خسائر فادحة ، وتكرر نفس الشىء خلال حملة ادولف هتلر فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤١ ، وقد قال يومها تشرشل معلقا ان هتلر أحمق لم يستفد من دروس التاريخ .

وللمناخ دوره فى تحقيق السلام والامن من كوارث الطبيعة فكلما كان المناخ آمنا كلما كان تطورت الحضارة بدرجة أسرع لان كوارث الطبيعة تهدم ما يبنيه الانسان وتقتل الاجيال التى هى مصدر الخلق والبناء ، كما لاحظ أفلاطون فى احدى محاوراته ، وضرب مثلا بالمناخ فى مصر الذى

ساعد على خلق الامن والاستقرار للمصرين فراحوا يتقدمون يوما بعـــد يوم ويتعالى مقدار خبرتهم • بينما تعثرت الحضارة فى بلاد اليونان بسبب الثورات الطبيعية •

كذلك للثروة الطبيعية تأثيرها الكبير فى التاريخ ، فالحضارة نشأت فى السهول والوديان حيث المراعى والمزارع وخاصة على ضفاف الانهار كما هو الحال فى وادى النيل وبلاد الوافدين ، وغنى الدولة بالمـــواد الأوليه هو شرط أساسى لبناء نفسها خاصة بعد الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجى الذى حدث منذ القرن الثامن عشر ، واذا كانت الدولـــة قوية ومنظمة وعلى قدر من الحضارة تستغل هذه المصادر لتزيد مـــن قوتها • أما اذا كانت شعوبها فقيرة ومتخلفـــة فان ذلك يـــؤدى الى ازدياد الطامعين فيها من الدول الراغبة فى المواد الأولية ، فتغـــزوها وهذا هو السبب الرئيسى للاستعمار • والمثل على ذلك واضح فى افريقيا والملايو وفى البلاد الصحراوية المنتجة للبترول • ومناطق النزاع بين الدول كانت دائما هى المناطق ثرية بمصدر معين من مصادر الطبيعة ، أو تتمتع بموقع استراتيجى له أهميته العسكرية أو التجارية • فقد شاء حظ العالم العربى أن يكون موقعه الجغرافى حيويا بين الشرق والغرب بالنسبة للتجارة نظرا لتحكمه فى البحر الأبيض والاحمر والخليج ، وفى عدد من المضايق والممرات البحرية مثل جبل طارق وقناة السويس ، وقد زاد على ذلك اكتشاف البترول عصب الحضارة الحديثة فى كثـــير من بلدانه ، مما لفت أطماع الدول الصناعية اليه فتحركت للاستيلاء على بعض اجزائه ، ليس فحسب ، بل وقفت بالمرصاد لاعاقة يقظته ومحاولة التحكم فى مصيره حتى لا يصـــبح يوما من الايام قوة منافسة للدول الصناعية التى تستميت للحفاظ على الخط القديم الفاصل بين الاقوياء والضعفاء • ولهذا فان مستقبل العالم العربى سوف يشـــهد صراعات طويلة ومتشعبة لاتزال تشهد بعض جوانبها ، هذا بينما تسعد جزيرة فقيره فى المحيط الهندى بالحرية والاستقلال والسلام •

ومن الأمثلة الواضحة على اثر الموقع الجغرافى على تطور التاريخ — مصر التى لعب النيل دورا حيويا فى حضارتها لدرجة ان هيرودوت الرحالة والمؤرخ الأغريقى الشهير الذى زارها فى القرن الخامس ق • م قال عنها « أنها هبة النيل » • فقد علم النيل المصريين الكثير مثل فن الرى وهندسة السدود وانشاء المصارف ، كما علمهم الاتحاد والتعاون ، كما كان النيل طريقا بحريا ربط بين جنوب الوادى وشماله مما ساعد على قيام أول دولة متحدة سياسيا فى العالم القديم حوالى عام ٢١٨٠ق•م• كذلك فقد ساعدت الصحراء الشرقية والغربية على حماية الوداى من غزوات البدو وهذا وفر على مصر الكثير من الاخطار الخارجية ، كما أن الطبيعة حمتها من الكوارث فتحقق الأمن الداخلى وهذا ساعدها على سرعة التطور والنمو وحقق لشعبها الاستقرار لنسب طويلة من الزمن بينما مثلا لم يتحقق الاستقرار طويلا بالنسبة لحضارات ما بين النهرين • بسبب عدم وجود الحواجز الطبيعية الواقية •

كما أن موقعها الجغرافى بين الشرق والغرب جعلها محطة مرور للتجارة العالمية منذ أيام الرومان وازدادت هذه الأهمية ابان العصور الوسطى وجنت من جراء ذلك مع غيرها من مدن اوروبا التجارية ثروات طائلة جعلها تقف على قدم وساق بزعامة الأيوبيين والمماليك ضد الحملات الصليبية ، ولكن تغيرا حدث وهو اكتشاف رأس الرجاء الصالح اضاع على مصر الفرصة فحرمت من قدر كبير من دخلها فتدهورت أحوالها ولم تعد قادرة على رد الطامعين فيها حتى سقطت فريسة فى براثن الامبراطورية التركية عام ١٥١٧ بعد زوال دولة المماليك •

وبسبب موقع مصر الاستراتيجى مثلا تمكن محمد على والى مصر العثمانى من تحدى الباب العالى فى الآستانة، والاستقلال بمصر ، واستغلال مصادرها من أجل بناء دولة حديثة فيها، بل وامبراطورية قويه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أى انه حدث ما خشيه الامبراطور الرومانى أغسطس عندما فتح مصر عام ٣٠ ق • م — وادرك أن أى وال قوى يتولى حكم مصر ، قد يغريه موقعها وسهولة الدفاع عنها فيعلن استقلاله بها وقد حدث ذلك من قبل مرات كثيرة عبر العصور •

ومن ثم فأنه من الضرورى أن يستكشف المؤرخ جغرافية المكان الذى سيتخصص فيه ، لأن هناك ارتباطا وثيقا بين جغرافية المكان وأحداث التاريخ فيه ، حتى يصل الى الوعى والفهم الكامل لهذه الأحداث .

٢ ـ علم السكان (أو الجغرافيا البشرية) :

يتناول علم السكان دراسة الشعوب وتكوينها وتوزيعها الجغرافى والمتغيرات التى تطرأ عليها مثل نسبه المواليد والوفيات والهجرات ويساعد فى ذلك قوائم الاحصاءات السكانية وسجلات الزواج والأمراض الاجتماعية الظاهرة سواء فى المدن أو الريف أو فى محيط الأسرة ،وكذلك نسبةالذكور الى الأناث ، فهناك شعوب آخذة فى الانقراض لأن تكاثرها ضئيل لا يتناسب مع النسبه المطلوبة للمحافظة على بقائه ، وهناك شعوب تعانى انفجارا سكانيا قد يدفعها الى مرحلة من التوسع والغزو وعلى الباحث أن يلاحظ العلاقه القائمة بين السكان والعوامل الأخرى المؤثرة فى الدوافع الانسانية المحركة للأحداث التاريخية . ان الاهتمام بالجغرافية البشرية فى المجال التاريخىهو وليد النظرةالجديدةلهذا الفرع من الدراسات الانسانية نتيجة للأهتمام بالمؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والنفسية . ويستطيع الباحث أن يدرك مدى الاهتمام بهذه الفروع فى اهتمام الدراسات التاريخية بالسكان خلال العقد الماضى من القرن العشرين .

ان لكل عنصر بشرى خصائصه بسبب تأثير البيئة الطبيعية عليه ، فالهنود الحمر لا ينتمون مثلا الى نفس العنصر البشرى الذى تنتمى اليه القبائل التى سكنت فى عصور ما قبل التاريخ جزر بحر ايجه والأرخبيل الأغريقى أو شواطىء البلطيق ، ففى كل من هذه المناطق تأثر الانسان البدائى ببيئته الخاصة . ويرى بعض العلماء أن الخصائص العرقية تؤثر حتى على معايير الذوق والجمال عند الشعوب . ومن المعروف أن كل جنس بشرى يمر بمرحلة من مراحل تطوره بأظهار التسامى على غيره من الشعوب ، بما يميزه عنها من صفات بشرية خاصة . وعندما

يضطر شعب من الشعوب الى الاعتراف بتفوق شعب آخر أكثر تقدما منه ، فأنه فى الحقيقة يتخلى عن اعتزازه العرقى ويصير كالفلاح الذى يهزأ فى بادىءالأمر من طبائع سكان المدينة ولباسهم وسلوكهم ولكنه عندما يسيطر سلوك المدينة على الريف يسعى الى تقليدهم بقدر ما يستطيع .

ان للطبيعة تأثير واضح على سلوك وأمزجة الشعوب وبالتالى على تطور أفكارهم وبداعهم وهذا صحيح الى حد ما الا أن هناك ملاحظة وهى أنه لا يوجد شعب من الشعوب يستطيع أن يدعى لنفسه الانتماء الى عرق صاف ، لأن غالبية شعوب العالم ليست سوى نتاج خليط متنوع وتمازج طويل من عناصر عرقية مختلفة ومتباينة .

٣ — علم الأنثروبولوجيا (أو علم الأنسان) :

ان علم الأنسان هو أشد العلوم قرابة للتاريخ لأن المشكلات التى يتعرض لها هذان العلمان واحدة بل ان الخط الفاصل بين الانثروبولوجيا وعلم الآثار غير واضح ، فعلماء الانثروبولوجيا يعكفون على دراسة ثقافات المجتمعات البدائية ، أما المؤرخون فيدرسون ثقافات المجتمعات فى العصور التاريخية . كما تتعرض الانثروبولوجيا الى المسائل التاريخية عندما تعالج التطور البشرى وانتشار السكان على الأرض ونشوء الثقافات والحضارات والهجرات والبناء الاجتماعى ، والتاريخ فى الحقيقة سلسلة متتابعه من ثقافات متميزة فكل تاريخ يتولد من ثقافة وكل ثقافة من تاريخ وعين المؤرخ المدربة يمكن أن ترى خيوط الماضى وهى تبرق تحت سطح الحاضر ، ودراسة أقوال البشر وأفعالهم هى الأساس الذى يميز البعد الثقافى للفعل ويبرز القيم الأخلاقية فى جميع الثقافات . كما أن الفرد يستمد غالبية نظرته من بيئته الثقافية يشاركها فى ذلك التحديات التى يواجهها داخل بيئته والتى سببها اما عوامل المكان أو الطقس أو النبات أو الحيوان ، أو الموقع الجغرافى بالنسبة للثقافات الأخرى فالمسئول عن تطور الأمور فى التاريخ عاملان هما ضغط البيئة والمبتكرون من الأفراد .

يهم المؤرخ مثلا أن يعرف أن الفرد المنبوذ من الجماعة لثورته عليها، قد يصبح فى وقت ما عندما يسود القلق والأزمات — حيث تشعر الجماعة بالانزعاج — قد يصبح زعيما ومخلصا ومؤسسا لديانه جديدة •

وقد يحدث أن تختفى بعض المظاهر المنظورة من الثقافة مثل الأدب وطريقه السلوك ، والملبس والمأكل وتتغير من جيل الى جيل لكن الأصول الثقافية الكبرى تبقى على حالها وان تغيرت أشكالها •

والمفهومات المتصلة بالثقافة والتغير الثقافى تمد المؤرخ بأعظم فائدة سواء فى معرفة شخصية الفرد أو خصائص الجماعة العامة ، فالمجتمع الانسانى ليس تجمعا من الناس فحسب ، بل يتطلب علاقات منظمة وأدوارا متغيرة وأنماطا مختلفة من التفاعل الأجتماعى ، وهذا يقـرب العلاقة بين علماء الانثروبولوجيا وعلماء النفس والاجتماع ، كما أن التقارب بين هذه العلوم الثلاثة يبشر بوضع نظريات جديدة فى عالم الادراك — ستكون بالقطع ذات نفع كبير للمؤرخ •

٤ — علـم الأجتمـاع :

واذا كان علم الانسان (الأنثروبولوجيا) يدرس تاريخ الثقافات ما قبل التاريخ فأن علم الاجتماع يركز على الأفعال والعلاقات الأنسانية ويدرس المجتمع وبنائه ووظائفه وعملياته ، ومن ثم فأن الحد الفاصل بين العلمين كاد أن يكون ضئيلا ، والبحث التاريخى يهتم بالتغير الاجتماعى وبهذا يرى البعض أن علم التاريخ يشمل ميدان علم الأجتماع حسبما يتضح فى الفترة الزمنية التى يتخصص فيها الباحث ، وان كان هناك قصور فى اهتمام بعض المؤرخين بعلم الاجتماع فأن ذلك يرجع الى جرى المؤرخ وراء ظواهر جانبية من المجتمع مثل التغير السياسى والدينى والعسكرى حولت اهتمامه عن الأطارات الاجتماعية للمجتمعات القديمة • ولهذا فقد نشأ نوع من البحث يعرف بالتاريخ الاجتماعى الذى يلقى رواجا من جانب كثير من المؤرخين فى العصر الحديث • ويرى أنصار هذه المدرسة الاجتماعية أن العلاقات بين المجموعات داخل المجتمع تؤثر

فى الأحكام الخلفية للرأى العام ، وفى طرق التفكير وبالتالى فى الاتجـاه السياسى العام ويقولون أن معظم القرارات السياسية تنبع من مسببات اجتماعية • فدراسة التطرف القومى تفسر التطرف السـياسى الذى أدى الى حروب توسعية ، وأن التطرف فى الجماعة ينشأ عندما ينظر الفرد الى الجماعة نظرته الى نفسه ، أما ما يعرف «بمحورية الفئة»، وهذا يظهر فى دراسة تاريخ الأحزاب الوطنية ومجرى التصويت فيها والعوامل المحركة للجماعة • فمثـلا يؤكـد مؤلفوا كتاب « اختيار الشعب » أن للعلاقات الشخصية والصلات القائمة على اللقاء والاتصال المباشر دور كبير فى تقرير لمن يعطى الفرد صوته فى انتخابات الرئاسة ، وفى أوقات الأزمات مثلا تسود نزعة من الشعور والعواطف الـدفاعية ، كما أن الحروب والثورات لها دوافعها الاجتماعية قبل السياسية ، وعنـد حدوثها يصيب المجتمع تغير وتفاوت فتضعف بعض الروابط الاجتماعية مثل الأسرة والحى والأقليم بينما يكبر على حسابها المجموعات السياسية التى تكون راكدة فى أوقات السلام ، كل هذه التغيرات تتسبب من تغير النظم الاجتماعية • وهكذا قد يكسب المؤرخون أفكارا ومدركات جديدة عن طريق دراسة ما يكتبه علماء الانسان ، والاجتماع ، وعلماء النفس ، عن الأسرة والجماعة • فكل مجتمع من المجتمعات مثله العليا وآماله المرجوه التى توجه أفراده ليعملوا بموجبها وهذه المعايير لابد للمـؤرخ أن يكون مدركا لها ، ملما بها • ومن ناحية أخرى فأن عالم الاجتماع يصف البناء المعيارى على أسس سبق للمؤرخين استخدامها •

ان من واجب المؤرخ لفترة معينة من التاريخ أن يراقب الطبقات الاجتماعية ، ويرى أيها يصعد الى أعلى ،وأيها يهبط الى أسفل،مثلا هل حقيقى أن معظم الزعماء السياسيين ينشأون من قرى بسيطة أو أحيـاء المدن القذرة وأنهم عموما ينتمون الى أسر من الطبقة الوسطى ؟ والى أى مدى تقوم المؤسسات الاجتماعية مثل الهيئات الدينية والجامعـة والأحزاب والنقابات بدور الروافع التى ترفع الأفراد من أدنى الى أعلى أو تهبط بهم من أعلى الى أسفل ؟ كما ينبغى على المؤرخ أن يتطرق

فى بحثه الى دور الوظيفة الاجتماعية بحيث يشمل مختلف الأدوار التى يقوم بها الأفراد حين يؤدون تلك الوظيفة • كما أن التغير الذى يطرأ على المجتمعات الصناعية من ناحية العرف والتقاليد الشعبية والمرور من المرحلة القروية الى المرحلة المدنية يوفر فرصة ممتازة للتعاون بين المؤرخين وعلماء الاجتماع • كل هذا يوسع مجال الفكر والبحث التاريخى ليصبح أكثر رحبا من المجالات التقليدية ، بل ويساعد المؤرخ فى عملية تحليل المحتوى والمضمون وهى عملية ضرورية وواجبة •

٥ ـ السيكولوجيا الاجتماعية أو علم النفس الاجتماعى :

ولكى يفهم المؤرخ تاريخ العلوم أو الفنون فى بلد معين وفى فترة محددة ، لابد من دراسة السيكولوجيا الاجتماعية ، لأنه بدون دراستها من الصعب فهم التطور المادى فى المجتمع • والمقصود بالسيكولوجيا الاجتماعية عند الماديين هى العواطف والأفكار التى تسيطر فى وقت ما على طبقة اجتماعية معينة فى بلد معين ويقولون أن منبع هذه العواطف هو العلاقات الاجتماعية • ومتى انبثقت أشكال الوعى الانسانى من الحياة الاجتماعية فانها تصبح جزءا لا يتجزأ من التاريخ الاجتماعى ، ولا يمكن لعلم التاريخ أن يقتصر على تشريح المجتمع ، بل يجب أن تشمل دراسته مجموع الوقائع التى تمكنه من تشريح الاقتصاد الاجتماعى بصورة مباشرة أو غير مباشرة • وما من واقعة تاريخية الا ويسبقها بل ويرافقها ويعقبها حالة معينة من حالات الشعور والوعى ومن هنا تأتى أهمية دراسة السيكولوجيا الاجتماعية للمجتمع الذى نحن بصدد دراسته فى فترة زمنية معينة ، وبدون ذلك لا يمكننا أن نخطو خطوة واحدة فى مجال فهم تيارات الأدب والفن والفلسفه والنكته والأغنية التى تترجم سيكولوجيا الشعب ازاء قضايا معلنة أو مكبوته •

وعندما نقول مثلا ان مؤرخا ترجم بصدق عن عصر النهضة ، فهذا يعنى أنه أندمج تماما مع الروح السائدة فى الطبقات المؤثرة فى نمط الحياة الاجتماعية • ويرى الماديون أن السيكولوجيا الاجتماعية تتغير

بتغير العلاقات الأجتماعية ، واذا ثبتت احداها بقيت الأخرى على حالها، وقد نسمع مثلا عن تعبيرات مثل «روح العصر» «وطبيعة الأمة »،التى هى انعكاس للسيكولوجيا ويحدث انعكاسها تغيرا فى ظهور معتقدات وأفكار جديدة واتجاهات فنية وابتكارات حديثه •

ان دراسة السيكولوجيا الاجتماعية تساعد المؤرخ على أمرين فى غاية الأهمية بالنسبة للبحث التارخى : أولهما تشخيص الحقائق التاريخية ، وثانيهما وضع تفسير ومبادىء لتفسير هذه الحقائق • فضلا على أن المؤرخ يستطيع أن يكسب ويتعلم أشياء جديدة من علم النفس الاجتماعى مثل مفهوم عقدة النقص عند القادة والشعوب والانطواء والكبت وغيرها من سائر الأمراض النفسية التى تنتشر فى مجتمع معين • كل ذلك بالقطع سوف يهذب الكفاية الأدراكية للمؤرخ ويساعده على اعـادة اكتشاف ما هو واضح •

لقد وضع فرويد أساس التحليل النفسى فى صورة عملية طبية • ملأت فراغا وفتحت مجالا جديدا للبحث ، وعن طريق دراسته لعـلم الأمراض النفسية،وتفسيرالأحلام،ودراسة الخطأ الانسانى،كون نظرات نافذة وراء الدوافع الانسانية نتيجة تأثير المجتمع ، أو نتيجة اللاشعور • وفسر مثلا الاسقاط وهى عملية ينسب بها الشخص لغيره صفاته أو دوافعه المكبوتة ، والكبت وهو طرد الشىء من حيز الادراك الواعى أو الشعور بينما يبقى فى — اللاشعور ، ورد الفعل ، والعزل (وهو فصل الأفكار عن العاطفة مما يولد القلق) والتبرير وهو اختـراع أسباب معقولة فى الظاهر لتعليل سلوك ذى دوافع باطنية •

ولا شك فى أن المؤرخ لابد وأن تهمه قضايا اجتماعية نفسية مثـل تفسيرات ظهور الزعيم أو المخلص التى يقدمها هذا الفرع من الدراسات بالرغم من أن بعض المؤرخين الماديين يختلفون فيها ، ويقدمون لظهـور الزعيم تفسيرات اقتصادية وثقافية فى المقام الأول وهناك دراسة أخرى لها صلة قوية بعلم التاريخ وهى دراسة سيكولوجـية الزعامة والقادة الذين غيروا وجه الأحداث التاريخية ، اذ اعتاد علماء النفس الاجتماعى

أن يلتمسوا فى الزعماء والقادة صفات معينة من الشخصية ، كما أن له دور اجتماعى يحدده أفراد مجتمعة • ومن ثم يستطيع المؤرخ أن يتسلل الى نفسية القادة ويقرأ ما بين السطور عندما يحلل قراراتهم •

ان مجتمعات ما قبل التاريخ حيث تتوفر المـــواد الكتابية والأدلة التاريخية لابد وأن تعتمد فى دراستها عــلى علم النفس الاجتماعى ، لأنه مع القلة القليلة من مخلفات الماضى يمكن أن تقدم صورة مقبولة للباحثين والدارسين •

انه من الضرورى للمؤرخ أيضا أن يعتنى عندما يجمع مادته التاريخية بالمؤلفات الخاصة عن سير العظماء،والتراجم التى تدور حولهم،لأنه من خلالها يستطيع استكشاف بعض المعرفة الخاصة بأساليب المعاينة النفسية • فاذا واجه الباحث مسألة وضع سيرة تفسيرية فأنه اذا كان مدربا على النماذج النفسية يقوم بوضع تحليلات تمدنا بمفاتيح لفهم الدوافــع فى تصرفات الزعيم ونوعية التصرف الذى سوف يقوم به لو واجهتـــه حالـــــة معينـــــة •

ان ميدان التعاون بين علم التاريخ وعلم النفس الاجتماعى ميدان جديد وبكر وسوف يفتح أمام المؤرخين أفاقا لا حدود لها للبحث التاريخى لاعادة النظر فى كل ما كتب من أعمال تاريخيه اعتمد كتابها على أدلـــة مادية قد تكون ايجابية من ناحية كونها مادة تاريخية ، ولكنها لا تستكشف الأعماق ، ولا تسبر أغوار نفس الأنسان البشرية ، التى حركته ليقوم بما قام به من أعمال •

٦ ــ العلـــوم السياسيـــة :

لا تزال الأحداث السياسية هى التى تشكل مــلامح التاريخ العام وتلقى الجانب الرائج من الاهتمام ، من جانب غالبية المؤرخين ، وعلم السياسة يلتقى فى جوانب كثيرة مع الانثروبولوجيا وعـــلم النفس الاجتماعى والاقتصاد ، لكن علم السياسة يركز اهتمامه فى المقام الأول على تكوين الجماعات السياسية المؤثرة والعوامل وراء صناعة القــرار

وطريقة الحكم والسلطة • ووضع الدساتير والعقبات التى تصدر من السلطه ضد المخالفين لقراراتها • كما يهتم المتخصصون فى علم السياسة أيضا بالعوامل الحاسمة فى رسم السياسة العامة للدولة وتنفيذها•وهناك اهتمام أيضا بنظم الحكم المقارن ، والعوامل الاجتماعية التى تحرك القرارات السياسية وأصولها التاريخية وتحولاتها بالنظام الذى تسير على أصوله المعتقدات السياسية وهو ما يعرف « بالأيديولوجية » التى بدورها تنبع من الفلسفة السياسية ، والقانون ، سواء الدستورى أو الأدارى •

ان المؤرخ عليه أن يعطى اهتمامه لهذا الجانب لأرتباطه بالقرارات السياسية التى هى بدورها تصبح أحداثا تاريخية ، كما أنها تعكس كيف تسير الدولة وكيف تعمل مؤسساتها التشريعية والقضائية ، وعلى المؤرخ أن يقارن بينها وبين مؤسسات مشابهة أو مختلفة فى بلاد أخرى • فالذى قرأ لثوكوديديس المؤرخ الأغريقى الشهير ، يكادبتخيل نفسه فى مجمع عالمى من كثره مقارناته وعرضه لاراء كل دولة فى بعض النظم السياسية الخاصة بها مما جعل تاريخه تاريخا علميا بمعنى الكلمة •

ومن أهم الجوانب التى يغطيها علم السياسة العلاقات الدولية أو ما يعرف بالدبلوماسية • والمؤرخ بالقطع يهمه هذا الجانب لأنه كما قال بعض الفلاسفة « التاريخ هو علم السياسة فى الماضى » وعلم السياسةهو علم تاريخ المستقبل،« فالعلاقات بين الدول والمعاهدات التى تعقدبينها تشكل اتجاه السياسة العالميه وقيام التحالفات القومية والعسكرية ، كذلكفان قيام الحروب، وعقد معاهدات السلام،كل ذلك وليدعلم السياسة من ناحية والمصدر الأول للمعلومات بالنسبة للمؤرخ وفى كثير من الأحيان يصعب على المرء الفصل بين التاريخ المعاصر والسياسة خاصة فى المجال الدولى فالعلاقات الدولية وما يترتب عليها من نتائج هى المادة الأولى التى يصنع منها المؤرخ مادته التاريخية ، خاصةفى العصرالحديث،حيث تشابكت المصالح الدولية ، ولم يعد هناك دولة واحدة تعيش فى معزل عن الأخرى أولا تتعامل معها •

ان من صميم علم السياسة أيضا تاريخ الفكر السياسى وتطوره وفكرة ظهور الدولة المتحدة وهى الوحدة السياسية للمناطق المتحـــدة ، وهو أيضا مجال يهم المؤرخ ،بل من صميم عمله ، فالتاريخ لا يبدأ فعلا الا من نشوء المجتمـــع الذى نسميه الدولة أو الوحدة السياسيـــــــة Political unit سواء فى شكل الدولة مثلما حدث الحال عندما اتحدت اقاليم مصر الجنوبيه والشمالية ، ثم توحد القطران بزعامة الملك مينا عام ٣١٨٠ ق٠م٠ ، أ وفى شكل دويـــلات المدن المستقــــــــــلة City-States مثلما كان الحال فى سومر القديمة منذ القرن السادس والعشرين قبل الميلاد ،والذى انتقل بعد ذلك الى بلاد اليونان ، وأصبح دعامة أساسية فى نظام الحكم عند الأغريق واحدى المعالم الأساسية فى فكرهـــــــم السياسى ٠

ويرى بعض علماء السياسة أن الدولة هى التنظيم الذى يمكن طبقه اجتماعية او فئة سياسية معينة من ممارسة سيطرتها على سائر الطبقات الأخرى ٠ لكن يمكن أن نعطى اكثر من تفسير لفكرة ظهور الدولة مثـــلا التعاون الجماعى المشترك الذى تقتضيه تنظيم عملية الانتاج وهـــذا واضح فى تاريخ بعض الحضارات الزراعية التى قامت على شواطىء الانهار كالصين القديمة ، أو بلاد ما بين النهرين ، أو وادى النيل حيث كانت الحياة الحضارية مستحيله بدون الاعمال التعاونية الجماعية الواســـعة المجال والمعقدة مثل تنظيم مجرى الانهار وتفادى فيضاناتها وتأمين المياه اللازمه للرى ، عن طريق بناء السدود ٠كما أن التفاوت الطبقى،كان موجودا منذ عصور ما قبل التاريخ ، وكانت الطبقات الأكثر سيادة على غـــيرها والتى كانت تحتل مركزا اجتماعيا أرفع عادة تحقق امتيازاتها بفضـــل نفوذها فى عملية الانتاج الجماعى ، مثلا كانت طبقة الكهنه فى مصر تحتكر الكتابة والعلم والمعرفة ، فالكهنة كانوا خبراء فى الزراعة والفلك والهندسة والمعمار والطب الجسدى والنفسى ، وكان المعبد مؤسسة تسيطر عـــلى قلوب الفلاحين والعاملين ٠ وكان ملوك مصر من الفراعنة يبذلون قصارى جهدهم فى القيام بمشروعات الرى والصرف وشق القنوات واقامة السدود

من أجل دعم عملية الانتاج الجماعية وتحقيق الخصب والوفرة وادخال السعادة على قلوب الناس • ويرى المفكرون الغربيون أن هـذا هـو دور الدولة الشرقية فى تنظيم عملية الانتاج الجماعية • كما أن اختراع الكتابة كان من أجل خدمة التجـارة والمعاملات والضرائب وحسابات الدولة وهو أهم ملامح الانتاج الجماعى وفى بلاد اليونان حيث قـامت المدن المستقله مقام الدولة نجد ان هذه الدويلات فى المدن كانت مصدر نشاط تجارى ، فقيام المدن ادى الى احتكاك الناس وقيام البيع والشراء وتقسيم التخصصات فى المجتمع ومشاكل العمل والعمـال والفـائض والانتاج وسرعان ما نشطت المعاملات وساعد ذلك على ادخال نظـام التعامل بالنقود ، وهكذا ساعدت المدينة على خلق التخصص فى العمـل كنتيجة منطقية لنمو القوى المنتجة فى مجتمع دويلة المدينة • وفى نفس الوقت ساعد على سيطرة أقلية اكثر تحكما فى عملية الانتاج او الاقتصاد كل هذه الشروح والايضاحات والتحليلات ، التى يضعها علماء السياسة الحاضرة او تاريخ السياسة فى الماضى بين يدى المؤرخين سوف تكـون بلا شك اداة نافعة تعين المؤرخ المحلل على الابداع فى كتاباته ومؤلفاته التـاريخية •

٧ ـ الأقتصـــاد :

تتصل دراسة الأقتصاد اتصالا وثيقا بدراسة التاريخ بل ان بعض المؤرخين يؤثرون العامل الأقتصادى كعامل محرك لاحداث التاريخ ومن ثم ولد تخصص جديد هو التاريخ الاقتصادى كفرع من فروع التاريخ الاخرى مثل التاريخ الاجتماعى والسياسى • فالوضع السياسى يتأثر عادة بالوضع الاقتصادى فطريقة توزيع الثروة ومصادر الانتاج على طبقة أو فئات من المجتمع يؤثر على السياسة الداخلية تأثيرا مباشرا • ويحدد علاقة هذه الطبقات والفئات بعضها بالبعض كما يفصح عن نظام الحكم ومستوى المعيشة ، ومشاكل الجماهير ، والدولة القوية اقتصاديا يكون النظام السياسى فيها عادة مستقرا ـ والعمران والرخاء مزدهرا وغالبا ما تؤثر الدولة فى هذه الظروف السلام كما يؤثر الوضع الاقتصادى

فى الدولة على علاقاتها الخارجية ، ويحتم ارتباطها او عدم ارتباطها بالكتل الاقتصادية أو السياسية او العسكرية الكبرى .

وفى التاريخ القديم مثلا كانت مصر وبلاد ما بين النهرين تنعم باقتصاد قوى ثابت،وتكادان تكون مكتفية ذاتيا،ومن ثم لم تسعى هذه البلاد الى التوسع الاقتصادى خارج حدودها الا فيما ندر بعكس الحال فى بلاد الاغريق حيث كانت المصادر الطبيعية محدودة ولا تنتج ما يفى بحاجة سكانها مما جعل الانتشار الاستيطانى للاغريق أمرا ملحا ، كما يقال ان الاسكندر المقدونى قام بحملته نحو الشرق ليضع حلا لمشكلة التزايد السكانى فى بلاد الاغريق ونضوب المصادر الطبيعية بل ان ارسطو معلم الاسكندرية كتب مقالا خصصه لبحث مشكلة الاستيطان ودوافعه .

ان تحركات هجرات القبائل الجامحة فى العصور القديمة كان بدافع الفقر الاقتصادى ، أو بتأثير الكوارث الطبيعية التى تحدث المجاعات ، عندئذ تندفع القبائل فى موجات من الهجرة نحو المناطق الثرية بحثا عن الغذاء ، وبفعل اندفاع هذه القبائل سقطت امبراطوريات ، واختفت مدن ودويلات مما غير الخريطة السياسية فى حالات كثيرة . ففى نهاية الالف الثانية قبل الميلاد حدثت موجات كبيرة من الهجرات الهندو أوروبية التى اندفعت نحو مصر ، فصدها الفراعنة بالقوة ، فنجت مصر بفضلهم من هذا الخطر الذى دمر الامبراطورية الحيثية وقضى على طروادة ، كما أن الحضارة الموكينية لاقت نفس المصير فى القرن الحادى عشر ق . م . فيما يعرف بغزو القبائل الدورية . ومن قبل فى الفترة ما بين ١٨٨٠ — ١٧٥٠ ق . م لاحظ شايفر Schaeffer وجود موجة شديدة من الهجرات مصدرة اواسط آسيا الصغرى التى شهدت سلسلة من الزلازل البراكين التى حدثت فى ارمينيا . ونتيجة لذلك اندفعت قبائل الهكسوس السامية نحو مصر فاحتلتها حتى القرن السادس عشر ق . م . عندما تمكن المصريون — الجنوبيون من تطهير الدلتا ، والاستيلاء على العاصمة التى أسسوها فى الشمال الشرقى من الدلتا ، وتعرف بأسم أواريس . كما أن اندفاع قبائل الهون Huns من سيبيريا ، وقبائل الجرمان والوندال ادى الى سقوط

الامبراطورية الرومانية وتغير الخريطة السياسية الدولية • كما يربط البعض بين فقر شبه الجزيرة العربية واندفاع القبائل العربية في حركة من الهجرات الى سهول العراق الفسيحه ووادى النيل وشمال افريقيا ، وبين الطبيعة المجدبة القاسية التى تتسم بها شبه الجزيرة العربية •

ان هناك معادلة بين مصادر الدولة الطبيعية والاقتصادية ، وبين عدد سكانها ، فاذا زادت المصادر عن عدد السكان تمتعت الدولة بحالة من الرخاء لكنها فى نفس الوقت تتعرض لموجات من المطامعين فى استغلال خيراتها والاستيلاء عليها ، والدول المكتفية اقتصاديا عادة لا تسعى للتوسع أو العدوان انما تكون سياستها « دفاعية » Defensive هدفها الاحتفاظ باستقلالها ضد الطامعين فيها ، أما اذا زاد عدد السكان بدرجة كبيرة عن الموارد الطبيعية فأن الدولة تشهد اتجاها نحو التوسع والغزو من أجل تحقيق مصادر تسد حاجة سكانها من الغذاء •

ولقد كان « القمح » الذى يشكل الغذاء الاساسى لغالبية شعوب البحر المتوسط عاملا مؤثرا فى سياسة دويلات البحر المتوسط ، فمصر مثلا تعرضت للغزو المقدونى على يد الأسكندر الأكبر لتأمين مصادر الغلال لبلاد الاغريق ، وهو نفس العامل الذى لفت اهتمام الرومان الى أهمية مصر كمصدر للقمح فبدأوا فى بسط نفوذهم على البطالمة رويدا رويدا حتى انتهت هذه السياسة باحتلال مصر بقوة السلاح عام ٣٠ ق • م وتشدد الرومان من قبضهم على مصر لهذه الأهمية ، فقد ادرك الأمبراطور الرومانى اغسطس أهمية القمح المصرى بالنسبة للامبراطورية فوضع مصر تحت اشرافه الشخصى لأنه ادرك أن قطع القمح المصرى عن روما يعنى احداث مجاعة واسقاط الحكم فيها ، وبالفعل تسبب استيلاء بعض الجنرالات الرومان وقطعهم القمح عن الحكومة المركزية فى روما الى اسقاط الحكم فيها ، وكان الاستيلاء على مصر والاستقلال بها خطوة أولى للاستيلاء على عرش الامبراطورية الرومانية • ولم تتدهور الحكومة الرومانية فى مصر الا عندما نضبت مواردها من القمح فى القرن الثانى

والثالث الميـــلادى عندئذ بـــدأ اهتمام الرومان بشمال افريقيا كمصـــدر بديل للقمح المصرى •

ومن امثلة أهمية القمح فى رسم السياسة الخارجية لبعض الدول سياسة مدينة البندقية ازاء الامبراطورية العثمانية فى القرنين الخـــامس عشر والسادس عشر •

فقد كانت هذه المدينة فى حاجة ماسة الى القمح العثمانى ومن ثم لجأت الى مسالمة السلطان العثمانى حتى لا يهددها بقطع القمح عنها •

ولا يرتبط غنى الدول فقط بالمصادر الطبيعية التى وهبها الله لها ، بل بموقعها الاستراتيجى الذى يعطيها امتيازات فى مجال التجارة العالمية فقد نعم مماليك مصر كما نعمت جنوا والبندقية ابان العصور الوســـطى بدخل كبير من مرور التجارة من الشرق ، عبر موانىء مصر عـــلى البحر الأحمر والبحر الابيض الى مدن ايطاليا ، مما اكسب هذه الدول نفوذا سياسيا قويا ، ولما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت التجارة عن مصر والبندقية وجنوا ، تدهورت دولة المماليك فى مصر ، كما أصاب الكساد جنوا والبندقية ، مما كان سببا فى نهاية عصور الرخاء والازدهار فيهـــا •

ولمـــا حدثت الثورة الصناعية فى اوروبا فى القرن الثامن عشر نتيجة لاكتشاف الآلة البخارية ، حدثت ثورة فى النظم الاقتصادية فى البلدان الأوروبية ، اذ املت هذه الثورة على الدول الصناعية ضرورة البحث عن المواد الأولية اللازمة للصناعة والتى تتوافر فى البلاد غير الصناعية والمتخلفة فى هذا المجال ، فبدأت مرحلة جديدة من العلاقات الدولية هى مرحلة الاتجاه نحو الاستعمار الاستيطانى الأوروبى فى الهند وجنوب شرقى آسيا وفى افريقيا بحثا عن الفحم والمطاط •

ولما اكتشف البترول كمادة أولية أساسية فى الصناعة استدارت الدول الصـــناعية الى مناطق توافره فى الشرق الاوسط ولا يزال البترول يلعب دورا أساسيا فى سياسة الدول الاوروبية الصـــناعية ازاء دول الشرق الاوسط ، وخاصة العالم العربى ، وبنهوض وتقدم الدول المنتجه للبترول

وادراكها لقوة البترول كسلاح اقتصادى فعال بدأت مرحلة جديدة من العلاقات الاوروبية العربية وفى المستقبل القريب قد تصبح الدولة المنتجة للبترول هى المتحكمة فى مصير الدول الصناعية ، ولهذا بـدأت الدول الصناعية تبحث عن مصدر جديد من مضادر الطاقة . لكن الى ان يتم ذلك سيظل الاقتصاد البترولى يشكل خطوط السياسة الخارجية للدول الاوروبيـــة .

كما أن للعامل الاقتصادى دور كبير فى قيام الحروب بين الدول فقد كان التنافس على المصالح الاقتصادية دائما سببا مؤثرا فى قيام النزاع بين الأمم ، ومن خلف الصراع السياسى توجد مسببات اقتصادية فى كل العصور . وكثيرا ما لجأت الأمم المتصـــارعة الى استخـــدام ســـلاح الاقتصاد من بين وسائل صراعها ، فمثلا كان هدف نابليون من حملته على مصر فى اواخر القرن الثامن عشر هو توجيه ضربة الى الاقتصاد البريطانى فى الهند بقطع الطريق بين الهند ، دورة تاج الامبراطورية ، وبين الجزر البريطانية ولذلك دخلت بريطانيا حربا شرســـة دفاعا عن مصـــالحها الاقتصادية وانتهى ذلك الصراع بتدمير الاسطول البريطانى بقيـــادة نلسون للاسطول الفرنسى قـــرب السواحل المصرية ، ومـــن قبل لـــم تتمكن بريطانيا من تحقيق سيادتها التجـــارية الا بعد تـــدمير الارماد الأسبانى عام ١٥٨٨ الذى كان يشكل منافسا خطيرا للتجارة البريطانية .

ولسنا فى حاجة الى ان نبين الدوافع الاقتصادية للحرب العالميـــة الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وللحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) التى برهنت على أن البترول هو عصب الحرب الحديثة وليس عصـــب الاقتصادية الحديث . ولهـــذا فان فى يـــد العرب سلاح يستطيعـــون أن ارادوا أن يستخدموه بمهارة فى فرض نفوذهم واحترامهم على الدول الاوروبية الصناعية وتحويل موقفهم من الدفاع الى الهجوم وهو نقطة تحول فى تاريخ العرب الحـــديث .

ان الاقتصاد سلاح فعال يلعب دورا أســـاسيا فى سياســـة الأمم والشعوب ، بل وفى صراعها . فمثلا نسمع فى العصر الحديث تعبيرات مثل

« الحصار الأقتصادى » أو « المقاطعة » أو « حظر التعامل » (أو التوازن الاقتصادية) وكلها تعبيرات مستمدة من السياسة الدولية القائمة على المصـــالح الاقتصـــادية •

ان نظريات الاقتصاد البحته فى حد ذاتها ليست بذات أهمية مؤثرة بالنسبة للمؤرخ • لكن ينبغى على المؤرخ ان يلم بلغة الاقتصاد الواسعة الانتشار مثل الربح والتوزيع والمدخرات ورأس المال والاحتكار • والنقد السائل •• الخ • كما على المؤرخ أن يتفهـــم النظريات والتفســـيرات الاقتصادية المختلفه دون ان ينحاز الى احداها •

وهناك ميادين خاصة من ميادين البحث الاقتصادى تهم المـــؤرخ على وجه الخصوص مثل التقدم الاقتصادى لانه لا يمكن فصله عن البناء الاجتماعى والتقدم الثقافى • كما أن اسعار السلع وتذبذبها قد يساعد المؤرخ على استنتاج معلومات، فعندما يدرس المؤرخ مثلا «لائحة الحد الأقصى للاسعار » والتى اصدرها الامبراطور ديوقلديانوس عام ٣٠١ ميلادية ، يعرف من تلك الوثيقة التى تعتبر اعظم وثيقه اقتصادية يفخر بهـــا علماء التاريخ الاقتصادى ـــ يعرف الكثير من أســـعار الســـلع الاستهلاكية المختلفة والتطور الذى حدث فى أسعارها بالرغم من أن علماء التاريخ الاقتصادى يعتقدون أن هذه التسعيره لم تستمر طويلا ولم تقضى على تجارة السوق السوداء التى انتشرت فى ذلك الوقت ولا على صانعى الأزمات الاقتصادية من أجل الكســـب غير المشروع ، لكنها تضع بين ايدينا وثيقة لأثمان السلع والمهن والخدمات والتى عن طريق دراستها نستطيع تبين مدى التغير الذى طرأ على الأقتصاد الرومانى ونستخرج منها ملاحظات ومعلومات قيمة بالنسبة للمؤرخ ، فمثلا نلاحظ من هـــذه الوثيقة ان القمح قد زاد ثمنه كثيرا لشدة الطلب عليه وللنقص فى انتاجه نظرا لهجرة الفلاحين للارض ، وللنقص فى القوى البشرية التى استهلكتها الحروب والأوبئه ، نلاحظ أيضا فى هذه اوثيقة هبوط أســـعار اللحوم وارتفاع أسعار المنسوجات والمصنوعات المعدنية ، ويستنتج المـــؤرخ من ذلك أن مساحات الأراضى المهجورة قد زادت وتحولت الى مراعى

للقطعان الكثيرة وذلك على حساب الانتاج الزراعى،كما فسر الاقتصاديون ظاهرة ارتفاع الأجور فى هذه اللائحة الى النقص فى القوى البشرية العاملة بعد اختفاء العبيد ، كما يعللون ارتفاع أثمان المصنوعات المعدنية الى تدهور الانتاج فى مناجم المعادن . هذا مثل واضح عن كيف تقـــدم المعلومات الأقتصادية فائدة عظيمة للمؤرخ عند كتابة بحثه .

وقد سبق ان وضحنا المدارس المختلفه فى تفسير التاريخ وبينا أن هناك مدرسة مادية فسرت أحداث التاريخ تفسيرا اقتصاديا وقالت ان البشر يصنعون تاريخهم عن طريق سعيهم لتلبية حاجاتهم وأن هـــذه الحاجات تمليها الطبيعة حسب خصائصها وحسب طبيعة القوى المنتجة . وعن طريق العلاقات التى تنشأ بين الناس فى عملية الانتاج بل وفى طريقة الانتاج يحدث التطور الاجتماعى والسياسى والثقافى . فتطور القوى المنتجة يولد انقسام المجتمع الى طبقات ذات مصالح مختلفة بل ومتعارضة وأن هذا التعارض بين المصالح يخلق الصراع الطبقى . والحقوق والنظام السياسى والاخلاقى لدى شعب ما يتكيف بصورة مباشرة ودونما وسيط مع العلاقات الاقتصادية الخاصة بذلك الشعب .

ومن ناحية اخرى نجد مدرسة تعارض فكرة المبالغة فى تصوير العامل المادى بهذا الشكل والكيفية رغم اعترافها بأهمية العامل الاقتصادى لكن العامل السياسى يأتى أولا لأنه هو الأساس فالانسان هو الذى يخـــلق الانتاج وليس الانتاج هو الذى يخلق الانسان ، يقولون أن النظرية المادية التى صاغها كارل ماركس كانت ردا طبيعيا اصلاحيا على الظلم الذى كان سائدا بين الطبقات العاملة فى المجتمعات الأوروبية ابان النصف الاو لمن القرن التاسع عشر من استغلال اقتصادى وظلم اجتماعى ، وأن مثل هذه الظروف لم يعد لها وجود الآن بنفس الدرجة التى كانت عليها وقتئذ بعد ظهور النظم الضرائبية التى ضمنت لكل فئة حقوقهـــا ونظمت العلاقة بين صاحب العمل والعمال . ويقولون أن شـــدة الحاجة الى الاصلاح الاقتصادى قد دفعت كارل ماركس والماديين الى التطرف فى فكرة سيطرة العامل المادى على اقدار وعلاقات الافراد فى المجتمع

اى مســار التاريخ ، ويقولون أن احداث التاريخ تثبت أن الصراع الذى ينشأ هو صراع بين قوى سياسية من أجل تحقيق السيطرة والسيادة وان العامل العسكرى وهو العامل الاساسى فى الحروب يتبع القوى السياسية وأن النظام السياسى القوى والثابت سوف يخلق اقتصــادا مستقرا وقويا وليس العكس ضروريا ، فقد تكون هناك دول مســتقره اقتصاديا لكن لا تحظى بالاستقرار السياسى ومن ثم يتأثر الاقتصاد بحالة عدم الاستقرار فيها • وخلاصــة القول أن التاريخ هو السياسة فى الماضى وليس الاقتصاد وأن السياسة المعــاصرة هى علم التاريخ المعــاصر •

ان المؤرخ يجب الا يقيد نفســه بتفسير واحد بل يترك لنفسه حرية البحث عن أى العوامل اكثر فاعلية فى الاحداث التى يعالجها ومن الصعب فصل السياسة عن الاقتصاد فى بعض الحالات كما انه فى بعض الحالات نلاحظ المصادر الاقتصادية القوية تساعد وتساهم فى خلق الوضــع السياسى القوى • وقد يكون هناك صراع بسبب التنافس الاقتصادى لكن ليس شرطا أن نجزم بأن الصراع الطبقى هو مصدر الحروب ، لأن الحروب صراع لفرض الارادة السياسية بين قوتين متصارعتين ، ففى بعض الحالات تكون هاتان القوتان المتصارعتان متساويتين اقتصاديا ، تماما مثلما الحال فى الحروب بين الاباطرة والبابوات فى العصور الوسطى •

وهذا يبين انه بالرغم من أهمية الظروف الاقتصادية فى فهم وتفسير التاريخ الا انها ليست الوحيدة لاحداثه •

هذه هى أهم العلوم التى تساعد فى اعداد المؤرخ ثقافيا ومهنيــا للتصدى للأحداث التاريخية ، وتحقق له الوعى ، والبصيرة النافذة ، من أجل استجلاء الماضى واحيائه ، ومن أجل فهم الحاضر ، وتوقع المستقبل •

ولقد اتسع نطاق البحث التاريخى فى العصر الحديث ليشمل كل مظاهر الحياة والمجتمع ولم يعد قاصرا على الاحداث السياسية والمعارك الحربية بل تعداها الى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفكرية وكل

ما يساعد الباحث على النفاذ الى الحقيقة ، لكى يعطى حكما متزنا وتحليلا علميا منهجيا بعيدا عن الصنعة والكلفة الأدبية .

لقد اصبح التعاون بين التاريخ والعلوم الانسانية الاخرى فى العصر الحديث أمرا ضروريا من أجل استكشاف حقيقة الماضى ، وأن مجـال التعاون واسع يفتح افاقا جديدة أمام الباحثين ،ويساعدهم على اعادة النظر كل ما كتب من مؤلفات عن التاريخ بصورة اكثر وعيا ونفاذا ، خاصـة أن جميع العلوم تتجه فى عصرنا الحديث الى التعاون ، والتفاعل ، والتلاقى حتى يستفيد بعضها من البعض ، لأنها بالرغم من تفرغها وتخصصها تلتقى فى بؤرة واحدة الا وهى المعرفة الانسانية . وعن طريق الألمـام بهذه العلوم المساعدة الماما عاما ولا نقول دقيقا يستطيع المؤرخ ان يصنع لنفسه معيارا نقديا خاصا ، وأسلوبا منهاجيا موفقا ، يحدده بنفسه لنفسـه .

الفصل السادس

كيف نتعامل مع الوثائق

سبق أن تحدثنا عن أولى مراحل البحث التاريخي وهى مرحلة البحث عن الوثائق heuristic غير أن الوثيقة تمر بمرحلة طويلة من الفحص والتدقيق قبل أن نستخرج المعلومات التاريخية منها نوجزها على النحو التالى .

أولا ـ التأكد من أصالة الوثيقة وأنها غير مزيفة أو منتحلة

وذلك بالتحرى عن الظروف التى كتبت فيها الوثيقة ، وهل شهد كاتب الوثيقة الوقائع بنفسه ودونها ، أم نقل عن رواة آخرين ، أم كتب عن الأحداث بعد مرور زمن طويل على وقوعها . كذلك لابد للباحث من التأكد هل الوثيقة على حالها أم مرممة ومكملة ، وهل طمس بعض فقراتها . وهل هناك قراءات مشكوك فيها لهذه الوثيقة . وتتطلب عملية اثبات صحة الوثيقة دراسة نوع الخط والحبر والورق المستعمل ، والعبارات اللغوية المستخدمة ، واللهجات المحلية التى كانت سائدة زمن كتابة الوثيقة . فاذا ما تأكدنا من أصالة وصحة الوثيقة وخلوها من الدس والتزوير والانتحال تنتقل الى الخطوة التالية .

ثانيا ـ تحديد شخصية كاتب الوثيقة ومكان وزمان التدوين :

بعض الوثائق والمخطوطات تحمل اسم مؤلفها وتذكر زمان ومكان التدوين ، غير أن البعض الأخر يغفل هذا الجانب ، فقد تكون الوثيقة صحيحة لكن المؤلف مجهول ، ومكان الوثيقة غير معروف ، وتاريخ كتابتها غير محدد مثل وثيقة كتاب الطواف حول البحر الأحمر .

ان المعلومات التى توردها الوثيقة ترتبط بشخصية الكاتب ، ومدى

فهمه للأحداث ، وعلاقته بها فى ضوء وعيه وثقافته . وهل هو شاهد عيان أم ناقل خبر . وبالتالى نصل الى الاستنتاج العام هل هو موضع ثقة أم موضع شــك ؟ . وأحيانا تضيع مجهودات الباحث عبثا فى معرفة شخصية الكاتب والعصر الذى كتب فيه ، وربما يكون هو الشاهد الوحيد عــلى الأحداث . وأحيانا لا يستطيع المؤرخ الا أن يجمع القليل من المعلومات عن كاتب الأصل التاريخى . عندئذ عليه أن يدرس معلومات الوثيقة فى ضوء العصر الذى تتحدث عنه ، ويبحث عن وثائق مماثلة فى الأسلوب ، أو نوع الورق ، والحبر ، تساعدنا على الأقل عــلى تحديد العصر ، ونبحث بين معلوماتها ، لعل احداها يقودنا الى الحل .

وليس وجود اسم شخص على أى وثيقة معناه أنه مؤلفها . ففى بعض الحالات ينتحل شخص اسم كتاب أو مخطوط ويضع اسمه عليه وفى هذه الحالة نضيف لفظ Pseudo أى المنسوب الى دون التأكد من النسب ، كما ينبغى على الباحث أن يبين الأجزاء الأصلية التى دونها مؤلف الوثيقة بنفسه بناء على ماشهده ، والأجزاء التى دونها بناء على ما نقل اليه أو سمعة أو قرأه . وتعد الأجزاء الأولى معلومات من الدرجة الأولى أساسا (First-hand Informations) الأجزاء الاخيرة فتعــد معلومات من الدرجة الثانية Second-hand Informations وهذا ينطبق على كتاب هيرودوت الذى كتبه عن مصر .

وفى حالات أخرى سوف يكتشف الباحث أن بعض الوثائق والأصول ليست سوى نقل جزئى أو كلى لوثائق سابقة ، سواء بقصد الأدعاء بالعلم ، لأنها كانت تهم كاتب الوثيقة فجمعها وضمها فى وثيقته ونسى الأشارة الى مؤلفيها . وبالتالى على الباحث أن يتعقب الكاتب الأصلى بقدر الأمكان .

وقد يكون الأصل التاريخى من عمل أكثر من مؤلف ، فبعض الأصول يدخل اضافات وتعليقات فى مواضع مختلفة ، ثم تطبع على هذا النحو ، وبطول المدة يعذ الأصل ، وما أضيف اليه من عمل المؤلف جزءا من الأصل ومن هنا لابد من الحذر ، اذا ضاع المخطوط الأصلى ولم يتبق سوى المخطوط المزود بالأضافات والتعليقات،فى هذه الحالة يمكن للباحث تحليل

اللغة والأسلوب والتأكد هل هما من نفس واحدة • وهل يسود المخطوط فكرة واحدة ؟ ، أم هناك خلافات ومتناقضات وفجوات فى تسلسل الأفكار ؟ •

يتضح مما سبق أنه من الضرورى معرفة شخصية كاتب الأصل التاريخى ، وصفاته الخلقية والفكرية ، لتقييم كتاباته ، ويمكن جمع المعلومات اللازمة عن شخصية الكاتب من بعض أعمال التراجم والمعاجم ودوائر المعارف أو من الأصل التاريخى نفسه • وكذلك يتوجب معرفة الزمن الذى كتب فيه الأصل • فقد يكون الأصل صحيحا غير مزيف ، وكاتبه رجل أمين موثوق فيه ، لكن قيمة الأصل تنقص اذا ما كتب بعد وقوع الحادث بزمن طويل • فالذاكرة كثيرا ما تخون الانسان كلما مر الزمن على الحدث • فالاسترجاع ليس كالتدوين العينى المباشر •

أما فى حاله ضياع تاريخ التدوين ، فيمكن للباحث أن يعين التاريخ الذى لا يمكن أن تكون الحوادث قد وقعت قبله terminus ante quem والتاريخ الذى لا يمكن للحوادث أن تكون قد وقعت بعده terminus post quem ولتحديد ذلك ينبغى أن يلم الباحث بثقافه تاريخية واسعة ، تتعلق بالعصر الذى يدرسه • وبالنسبة لتعيين المكان غير المحدد للوثيقة ، فيبغى على الباحث أن يبحث هل شاهد المؤلف الحادثة مكان حدوثها in Situ أم كتب فى مكان بعيد عنها • وهل أخذ معلوماته عن أشخاص كانوا فى المكان ساعة حدوث الواقعة ، فأذا ثبت ذلك تكون معلوماته من الدرجة الثانية ، أما اذا كان شاهد عيان فتكون معلوماته من الدرجة الأولى • لأن التدوين المباشر أصدق من الاسترجاع والنقل الذى يعتمد على الذاكرة والخيال • وهو أمر يجعل الشك يتسرب الى نفوسنا • فجل من لا يسهو • ويطلق بعض المتخصصين على العمليات السابقة اسم التحرى الظاهرى للنصوص External Criticism •

ثالثا ــ تحرى نصوص الأصول وتحديد العلاقة بين أجزاء الوثيقة :

لابد للباحث أن يتثبت من حرفية الوثيقة ، وعبارتها المخطوطة أو المطبوعة قبل أن يستخدم المعلومات الواردة بها ، لكى يتأكد هل كتبت

الوثيقة بخط المؤلف نفسه ، أم أن أحدا كتبها له ، أم هل هى منقولة عن نسخة أصلية كتبها المؤلف بخط يده ؟ واذا كانت الوثيقة مطبوعه فهل طابق النص المطبوع المخطوط المكتوب بيد المؤلف ؟ أم أدخل الناشر عليه اضافات ؟ أم أسقط عمدا أو سهوا عبارتها ؟ .

وكثير من الأصول التاريخية مفقودة ، ولم يتبق لنا منها غير النسخ المنقولة . وفى هذه الحالة يتوجب على الباحث التأكد أن النسخة منقولة بأمانة ومباشرة عن الأصل . والا تكون قد نقلت عن منسوخ الأصل . وفى ضوء المقارنة يمكن تصحيح النسخة المنقولة عن طريق مقارنتها بالأصل ، حتى لا نحمل المؤلف الأصلى وزر أخطاء ارتكبها الناسخون والناقلون . ويمكن تقسيم الوثائق والمخطوطات حسب الأهمية الى ما يلى : —

(أ) أن تكون الوثيقة أو المخطوط قد كتبت بخط المؤلف نفسه : —

وفى هذه الحالة لا يتطلب من الباحث سوى التحقق من ذلك بملاحظة نوع الورق والحبر ودراسة خط المؤلف ونوع الورق المستخدم ، حتى يستكين ضمير الباحث . ويراعى عند النشر أن ينشر المخطوط أو الوثيقة بحالتها التى عليها ؛ أى بحروفه ، وألفاظه ، وأخطائه الكتابية ، واللغوية ، بعد تصحيحها عن طريق الأقواس الآتية : —

[ ] الأقواس المستطيلة للفراغ الضائع من النص ويملؤه الناشر

( ) الأقواس نصف الدائرية . لا كمال الأختصارات أو الرموز المتعمدة من كاتب الوثيقة .

< > الأقواس المضلعة لملأ الحذف لبعض العبارات والكلمات فى الأصل . أو فى تصحيح خطأ لغوى فى الأملاء وقع فيه المؤلف الاصلى .

[[ ]] الأقواس المزدوجة المستطيلة للحروف التى محيت من الأصل . لكنها معروفة لدى ناشر الوثيقة عن طريق المقارنة أو الخبرة .

{ الأقواس السهمية braces ومعناة أن الكلمات أو الحروف موجودة فى الأصل لكنها زائدة ويجب حذفها •

(••) النقاط الموجودة تحت الأقواس نصف الدائرية تعنى الاعداد التقريبية للحروف الممحية أو المفقودة من الأصل •

••• ( ) النقاط الموضوعة خارج الأقواس تعنى الحروف المشوهه أو غير المقروءة •

••• النقاط الموضوعة تحت الحروف تعنى أن قراءة الحــرف غير مؤكـــــــدة •

بجوز لناشر الوثيقة أن يضع التصويبات فى الحواشى • وعلى أى حال حان بقاء النص الأصلى علىحالته يساعد على فهم تاريخذلك العصر• ويوضح نوع اللغة والأسلوب والتفكير ودرجة الثقافة والقدر من التعليم الذى وصل اليه الكاتب الأصلى •

(ب) أن يكون أمام الباحث نسخة منسوخة عن الأصل بخط ناسخ : وهنا يتوجب الحذر والدقة للتأكد مــن صحة محتــوى الوثيقة ، الأن النساخون كثيرا ما يتعرضون بقصد أو بغير قصد للخطأ فى النقل • وقد يكون الخطأ من باب السهو والنسيان ، أو لعدم وضوح المعنى ، أو بسبب الخطأ فى قراءة بعض الألفاظ ، أو نتيجة لخطأ فى السمع أثناء عمليـــة الأملاء • كما أن بعض النساخين قد يغيرون ويعدلون فى الألفاظ التى ظنوا أنها وردت خطأ ، أو محرفة فى الأصل ، واعتقدوا أن من واجبهم تصحيحها • والتغيرات التى يجريها النساخون على الأصــل يصعب اكتشافها ، كما أن الفقرات التى أسقطوها يصعب اعادتها أو تخمينها ، لكن الأخطاء التى حدث سهوا أو عفوا مثل أخطاء الأملاء وأخطاء النحو يمكن ادراكها • وكذلك تكرار بعض المقاطع • وهى أخطاء شائعة عن النساخ فى كل مكان وزمان •

وعلى الباحث فى حالة ضياع نسخة المؤلف الأولى ، وبقاء نسخة واحدة منقولة أن يدرس هذه النسخة جيدا ، ويعرف كل خصائصها من

ناحية الشكل ، واللفظ ، والمصطلحات ، والمعلومات التاريخية . ثم يدرس حياة الكاتب وأعماله الأخرى ان وجدت ، ويلم بأشهر الكتاب المعاصرين له ، خاصة اذا تناولوا نفس الموضوع . ثم يطبق هذه المعلومات على النسخة الوحيدة المنقولة عن الأصل المفقود . وهذا يساعد فى حالات كثيرة على تحرى النص ، والتثبت من صحة ألفاظه ، للوصول الى الأصل الأول بقدر الأمكان .

(ج) أن تكون النسخة الأصلية مفقودة ، ويوجد عدة نسخ منقولة عنها : — فى هذه الحالة ، ينصح الباحث بدراسة أقدم نسخة نسخت من الأصل . ولكن قدم النسخة لا يعنى أنها أصح من النسخ الأخرى . ومن ثم يتوجب المقارنة بين النسخ المتعددة المنقولة عن الأصل المفقود . ثم يحدد أقربها الى الأصل عن طريق المقارنة . ويقوم ذلك التحديد على فهم لغة الكاتب وروحة والألمام الدقيق بروح عصره . علما بأن القيمه العددية ليست فيصلا فى قضية أصالة وصحة الوثيقة ، فقد تكون هذه الأكثرية منقولة تباعا عن نسخة مضلله ، وانما الاختلاف بين النسخ هو المهم . وبالتالى عليه أن يقسم النسخ الى مجموعات وفصائل على أساس التقارب والأختلاف بالنسبة للأصل الأول . وعند طبع الوثيقة التاريخية أو المخطوط الذى يوجد اختلافات فى النسخ المنقولة عن الأصل . لابد من أن يوضح الباحث فى الهامش الأختلافات التى توجد فى النسخ الأخرى .

رابعا — مرحلة التحليل الباطنى للوثيقة Hermeneutic

والغرض منها الوصول الى الحقائق التاريخية من خلال تحليل الوثائق والأصول التاريخية ، فكثيرا ما يغفل كاتب الوثيقة أو المخطوط ، أن يوضح كيف جمع معلوماته ، أو سجل الوقائع ، أو اختار عباراته المدونة . ولهذا يتوجب التحليل الباطنى لتوخى جانب القصور من قبل كاتب الوثيقة أو المخطوط .

ومن أهم متطلبات التحليل analysis استرجاع المراحل التى مر بها مؤلف الوثيقة منذ رؤيته للحادث حتى كتابته للوثيقة . ويتم ذلك على مرحلتين :

أ ـ مرحله التحليل الباطنى الأيجابى : ـ وهى تحليل محتويات الوثيقة لفهم نصوصها وألفاظها وما قصدة المؤلف بما كتبه ويجب أن يتم ذلك فى مناخ من الحياد التام ، حتى لا يسيطر على المحلل رأى أو فكرة مسبقة،أو يكون تحت تأثير مبادىء سياسية ، أو دينية ، أو اقتصادية . وألا يخضع التفسير لهواه ونزواته (وهو ما نسميه لوى الحقائق) على حساب الحقيقة . وياحبذا لو فسر النص بالنص مثلما فعل علماء التفسير عندما جعلوا القرآن الكريم يفسر نفسه بنفسه . وعموما يشمل ذلك ايضاح المعنى العام لنص الوثيقة واستيعاب محتوياتها لفظا وفكرا وروحا ، كما يشمل ذلك معرفة وجهة نظر كاتبها ، ويلى ذلك رأى الباحث وملاحظاته . ويتم ذلك عن طريق استخدام الكارت أو الفيشات ، أو دفتر خاص بالمخطوط أو الوثيقة . كما يقتضى ذلك معرفة اللغة المكتوبة بها الوثائق بدرجة كافية والأجرومية الخاصة بها ، والألفاظ واللهجات الخاصة بالعصر الذى دونت فيه الوثيقة ، وكذلك أسلوب الكاتب ودرجته الاجتماعية ، ويراعى الا تفسر أى كلمة أو جملة بمعزل عن السياق العام للنص .

ومن متطلبات التحليل الأيجابى للوثيقة معرفة غرض الكاتب،والمعنى الحقيقى لما كتبه ، واكتشاف الأستعارات ، والكنايات،والتعبيرات الرمزية والمداعبات ، والمبالغات ، والتجريح أو التعريض ، والكشف عن المعانى الغامضة ، وأن يحاول الباحث قراءة ما بين السطور بقدر الأمكان . ويراعى الا يسرف الباحث فى التشكك فى معانى الألفاظ الحقيقية ، ولا يحمل النصوص أكثر مما تتحمل نتيجة للتقعر الأجوف ، والتهور العلمى ، أو ارضاء لغرور الباحث . وبأنتهاء مرحلة التحليل الأيجابى يكون الباحث قد استوعب النص لفظا وروحا ومؤلفا .

ب ـ مرحله التحليل الباطنى السلبى : ـ

والمقصود بالتحليل السلبى استجواب المؤلف للتأكد من صدقه وحياده وعدالته ، وعدم انخداعه ، واستبعاد الزائف مما كتب ، والتمييز بين

الوقائع التى شهدها والتى سمع عنها من الآخرين ، وتوزيع درجات التصديق . ان الأثبات العلمى لأى معلومة فى الوثيقة لا يتم الا عن طريق شهادة شهود العيان ، أو القرئن والأدلة ، حتى وان كان المؤلف موثوقا فيه . فالشك هو دليل الباحث ، والبينة على من ادعى . ولهجة الصدق لا تدل على الصدق بل قد تدل على المهارة فى الخداع والتضليل ، وكذلك فأن كثرة التفاصيل لا تدل على صحة الوقائع التى تساق ، بل ربما هدفت الى تضليل القارىء لتحقيق هدف معين . كما أنه لا يجوز نقد الأصل كوحدة عامة ، بل تنقد جزئياته بندا بندا ، كما فى حالات عقود البيع والشراء ، وكل عقد فيه شروط ، أو معاهدة ذات بنود ، أو صلح فيه تعهدات متبادلة .

والتعرف على شخصية وسيكولوجية كاتب الوثيقة تساعدنا على اكتشاف عوامل الصدق أو الكذب ، أو الأسباب التى خدعته . وهل له مصلحة فى الكذب ، أو هدف من ورائه أمرا معينا أراد اقناع القارىء به . وأخطر أنواع الكذب هو الذى يمزج بالحقيقة . وأحيانا يكون كاتب الوثيقة فى مركز سياسى يضطره للكذب من أجل مصلحة الوطن أو المصلحة العامة . وأحيانا أخرى تسكت الوثائق والصحف عمدا عن ذكر واقعة معينة للمصلحة العامة . كما أن محاضر الجلسات فى البرلمانات أو مضابط الجلسات لا تحوى عادة كل ما يثيره النواب ، بل تسقط جمل وعبارات . وبهذا لا تكون الوثيقة الرسمية صحيحة لمجرد أنها أصلية ورسمية . وفى حالات كثيرة نجد كاتب الوثيقة منحازا لحزب سياسى ، أو طبقة اجتماعية ، أو جماعة دينية أو لمذهب فكرى أو اقتصادى أو متشبعا بأفكار عنصرية وقومية . عندئذ يعطينا عمدا معلومات محرفة أو خاطئة ، أو كاذبة . كما أنه من طبيعة البشر ، فى كل زمان ومكان ، الميل الى الظهور ، وحب الخيلاء ، والادعاء بانجاز أعمال لم يقم بها ، أو قام بها آخرون وينسبها لنفسه ، وقد سبق أن نصحنا الباحث بالنظر بعين الشك الى السير الذاتية التى يكتبها أصحابها عن أنفسهم ، وكذلك الى مذكرات السياسيين والزعماء لأنها بمثابة الادعاء والدفاع عن أنفسهم Apology

كما أن التملق السياسى لرجال السلطة داء قديم استشرى بين الكتاب والمؤرخين ، فنجد ما يكتبوه يتضمن عبارات مجاملة تقليديه ، ونفاق •

وهناك عيب آخر هوطغيان الخيال والعاطفة، والأسلوب الأدبى الصرف ، على المنطق العلمى لدى بعض الكتاب ، فيمسرحون الوقائع ، ويعبثون بالألفاظ على حساب الحقيقة التاريخية ، ويطنبـــون ويسقطـــون ، ويستخدمون صيغ التفضيل والمبالغة ، خاصة اذا كان كاتب الوثيقة أديبا أو شاعرا، أوفنانا ، مثلما نجد عند المؤرخين الأغريق والرومان ، وادباء عصر النهضة الايطالية ، وأحيانا نجد الكتاب غارقين فى بحـــر التعصب الدينى الأعمى ، مثلما الحال عند مؤرخى الحروب الصايبية • ومن ثم فأن النقد السلبى يعنى امتحان الكاتب للتأكد من سلامة عقله ، وتفكيرة،وأن حالته الذهنية والبصرية طيبة،وأن يكون صاحب ذكاءوفطنة، ولا تخدعه المؤثرات الظاهرية للحوادث • والسؤال عما اذا كان متخصصا فيما يكتب ، فالمؤرخ العسكرى اذا كان قد مارس العسكرية فهو أصدق من المؤرخ المدنى للشئون العسكرية • فعقلية الكاتب وثقافته همـــا اللتان تحددان نوعية الحوادث والتفصيلات التى يختارها • ولابد اذن من التأكد من درجة الصدق والفهم لما كتب عن طريق الملاحظة ومقارنة كتاباته بمعلومات مأخوذة من مصادر أخرى •

ويجب التأكد من أن كاتب الوثيقة قد شهد الواقعة ، وليس له مصلحة فيما شهده ، وليست لديه فكره مسبقة عما حدث ، وتبيان الوقت الذى مر بين ساعه حدوث الواقعة ، ولحظة تسجيلها حتى لا يكون قدتعرض للنسيان ويكون انتباهه حاضرا ، ولا يغفل عند استرجاع الواقعة،بعض التفاصيل وأن نتأكد أن الكاتب لم ينقل ما سمع أو تخيل ، أو أخذ مادته من تقارير وضعها غيره فكاتب محضر الأجتماع قد يكون غائبا عـــن حضور جلسة الأجتماع أصلا •

وقد يسقط الكاتب بعض الحقائـــق والتفاصيل لأسباب خاصة أو قومية ، وأحيانا يجمع معلوماته عن طريق الاستنتاج والمنطق والأفتراض والتقدير الجزافى ،مثل ذكر اعداد الجيوش ، والأموال ، والقتلى، أحيانا

أخرى يعتمد على معلومات أخذها من مصدر ثانوى ضعيف • ففى حاله القائد الذى يصف المعركة يجب أن نفـــرق بين ما شاهــده بنفسه ، وما شاهده جنوده وضباطه • فما شاهده بنفسه هو المصدر الأول ، وروايات جنودة هى المصدر الثانوى • وهذا ينطبق أيضا على كتاب هيرودوت الثانى عن مصر • فما شهده وكتبه بعينيه هو المصدر الأول ، وما سمعه من التراجمة والكهنة وما نقله من الوثائق الأخرى مصدر ثانــــــــوى •

وكثيرا ما يجد الباحث أصولا لا يستطيع التعرف على مؤلفيها ، لكنه يستطيع التعرف على المصادر التى استقوا منها معلوماتهم أو بعضها • وفى الحالة التى لا يعرف فيها الكاتب الأصلى ، يحسن بالباحث أن يدرس الأصل التاريخى بصفة عامة ، ويبحث عن السياق ايعام لمعلوماته ، ويدلل على أن بعضه أو كله ، مأخوذ من مصادر أقدم ، أو من أشخاص ذوى آراء وميول معينة • ويلاحظ أن الأساطير من أهم الروايات الشفوية ، وتكثر عند الجماعات الفطرية ، وفى البيئات الساذجة ، وفى كل أمة يوجد عصرأساطير• وفى العصور الحديثة توجد النوادر،والقصص،والشائعات والأوهام والقصص الخاطئة لبعض الظواهر ، وبعضها وقائع أفلتت من سجل المؤرخ لأنها سرية بطبيعتها •

وبعض الأقاويل والشائعات قد تحوى بعضا من الحقيقـــة ، وليس كل الحقيقة • وذلك عندما ينسج الخيال حولها ما شـــاء حســـب الحالة السيكولوجية لهؤلاء المتخيليين • ومن المسموح للباحث أن يغربل الأساطير والروايات الأدبيه والشائعات ليستخرج بعض الحقائق • وقد يجد بين الحصى جواهر • فمثلا يدرس الباحثون الألياذة والأودسا ، ملحمتى هوميروس الشهيرتين ، لاستخراج الآراء ، والعقائد والتقاليد ، التى سادت فى بلاد اليونان خلال ذلك العصر •

غير أن هناك شواهد تطمئن الباحث بأن نسبة الكذب والخــــداع محدودة فى بعض الحالات ،مثل الحالة التى يروى فيها الكاتب الحادث أو الوصف بطريقة تخالف آراءه وعاداته • فعندما يكتب المؤلف عن مجتمع

غريب عنه ، وغير مألوف لديه ، فأنه يرى أشياء تفصيلية تلفت نظره، فيهتم بها مثلما شاهد هيرودوت فى بعض عادات المصريين ، لكنه أحيانا يكون هناك سوء فهم من جانب الكاتب لهذه العادات الغريبة بالنسبة له •

وتزداد درجة الصدق فى الوثيقة عندما يكون الحادث واضحا للعيان ومعروفا لعدد كبير من الناس على نحو يجعل من الصعب الكذب أو الخطأ مثل بعض المعلومات الخاصة بمدينة ما ، أو حادث فيضان أو زلزال أو بركان ، أو اندلاع حرب ، أو موت أو تنصيب زعيم • لكن أحيانا يكون اجماع الجماهير خاطئا ، فقد كتب المؤرخ الرومانى تاكيتوس أن الناس شاهدت طائرة العنقاء (وهو طائر خرافى) يحلق فى سماء مصر عام ٣٤ م ، وفى عام ١٩٦٧ كتبت الصحف المصرية أن جماهير ضاحية الزيتون قد شاهدوا طيف السيدة العذراء • وهذان مثلان على اتفاق شهادة الجماهير ، بينما ينفى المنطق العلمى هذه الشهادة •

ولقد حض القرآن الكريم فى مواضع مختلفة منه ، كما حض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن بعده أئمة المسلمين وعلماء الحديث ، والأصول على وجوب التثبت فى قبول الأنباء والروايات والأحاديث • ولقد طبق علماء الحديث طرقا رائعة فى عملية النقدالسلبى، فصنفوا رواة الأحاديث الى طبقات مثل الحديث القدسى (أى المؤكد والثابت) والجيد والحسن (١) •

خامسا : — مرحلة توكيد الحقائق المذكورة فى الوثيقة بالقرائن الأخرى:

وبالرغم من تعقد عملية التحليل السلبى للوثائق الا أن نتائجها ليست قاطعة وبالتالى يجب الخروج بها من مرحلة الشك الى دائرة اليقين ، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق الطرق الآتية : —

(أ) يقسم الباحث النتائج التى وصل اليها عن طريق التحليل والنقد الى طبقات • ويضع فى كل طبقة أو قسم كل المعلومات الواردة

---

(١) انظر حسن عثمان : منهج البحث التاريخى • ص ١٣٥ — ١٤٢ •

أو المتعلقة بحادث أو مسأله معينة : ثم يقارن بينها ليصدر الحكم بناء على حيثيات .

(ب) فى الحالات التى لا يوجد أمامه سوى رواية واحدة عـن حادث معين ، يجب الحذر . وقد فطن علماء الحديث الشريف الى رواية الأحاد ، فقسموا الأحاديث النبوية الى درجات . واشترطوا أن يبلغ عدد المخبرين والمحدثين مبلغا يمنع تواطؤهم على الكذب أو الأدعاء . وينبغى فى رواية الأحاد البحث عن شواهد تؤيدها فالرواية المفردة ، مهما بلغ صدقها ، يجب الا تعد حقيقة نهائية ، ما لم تؤيدها شواهد أخرى ، كما يتوجب ذكر راويها حتى يتحمل مسئولية قولها .

(جـ) وفى حالة تضارب الروايات فيجب التأكد من عدم وجود لبث فى الموضوع وأن المقصود هو نفس الحادث وليس حادثا آخر . فاذا تأكدنا من ذلك فيجب أن نستنتج أن بعضها صادق وبعضها كاذب .ويجوز التوفيق بين الخبرين المتعارضين . لكن فى بعض الحالات لا يجوز ذلك مثلا اذا تعارض مصدران فى تحديد عدد الجيوش المتحاربة ، فلا يصح أن نأخذ المتوسط الحسابى للعدد الذى ذكرته المصادر وهنا يتوجب السعى لاكتشاف أى المصدرين أصدق . واذا تعذر ذلك يذكر الباحث تقدير كل مصدر دون ترجيح أحدهما على الآخر .

(د) وفى حالة وجود عدة أصول تقول برأى معين ، ووجد مصدر واحد يقول برأى مخالف ، فمن الجائز أن يكون هذا الرأى المفرد المخالف هو الأصح ، فالكثرة العددية ليست دليلا على صحة ما تورده ، انما العبرة فى نوع الرأى ، والاختلاف رحمة .

(هـ) اذا اختلفت الوقائع التى تثبتها الأصول من المنطق وقوانين العلوم الطبيعية ، فلابد من تصديق العلم حتى وان اتفق الناس جميعا . فعلم التاريخ ليس له الحق فى تصحيح أونفى أومعارضة القوانين الطبيعية. بينما تساعد العلوم الطبيعية والمنطق الرياضى فى توكـيد الحـوادث التاريخية . فمثلا اعتاد القدماء أن يسجلوا الأحداث بخسوف الشمس

أو كسوف القمر وعلم الفلك يساعد فى تحديد تاريخ الحدث فى هـــذه الحالـــــــــة •

(و) ان اجماع المصادر على حادث معين، لايعنى ذلك أبدا ثبوت حدوثه• والمهم فى هذه الحالات أن يعرف الباحث من هو الشخص ، أو من هـــو الجمهور الذى يبدو له الحادث أمرا بعيد الأحتمال ، ويـــدرس حالـــة الأحتمال وعدمها بالنسبة للجمهور الساذج وبالنسبة للجمهور المثقف على الســــــواء • فقـــد يجمع سكان قرية بأكملها على رؤية عفريت من الجن ، بينما لا يجمعون على وجود ذئب مفترس •

(ز) اذا أورد مؤلف واحد معلومات متنوعة عن حادث واحد فى مصدر واحد فيجب التأكد عما اذا كان المؤلف قد لاحظ الشىء أو فكر فيه أكثر من مرة فى ظروف مختلفة ، وفى حالات صحية أو نفسية مختلفة أو دون هذه الملاحظات نتيجة لعدد من آراء الآخرين •

(ح) ينبغى ملاحظة التآلف والأنسجام بين الحقائق التاريخية ، فقد يؤكد الكثير من الحقائق بعضها البعض ، ويوجد صلة بينها فلابد من ملاحظة العلاقة والأرتباط بين الحقائق التاريخية التى تعنيه تمهيدا للانتقال بها من دور التحليل والنقد، الى دور تركيب الحوادث ،وبناء نصوص رسالته والربط بين عباراتها • كما يمكن أحيانا اثبات وقوع حادث معين على الرغم من سكوت بعض الأصول عنه ، اذا ما اتفقت أصول تاريخية أخرى بشأن حدوثه •

(ط) من حق الباحث اللجوء الى استجواب النص متبعا أسلـــوب المحقق فى القضايا ، أو طريقة رجال البوليس فى حل الحوادث الغامضة وتفضيل رواية على رواية لأثبات الحل واظهار الحقيقة • ولهذا فلابد أن يتحقق للباحث عقلية البحث والتقصى تماما مثل شارلوك هولمز •

ويلاحظ ان اختلافات الروايات فى ارتاريخ الحديث كثيرة ومتنوعة بعكس التاريخ الوسيط والقديم الذى يقل فيه تعدد الروايات المتعارضة فنحن نصدق هيرودوت فى حـــديثه عن مصر ، بالرغم من أنه استقى معلوماته من مصادر مختلفة • وبذلك تختلف نظرة النقد الى أجزاء كتابه

فبعضها موثوق به ، وبعضها غير موثوق فيه ، والبعض الثالث مرفوض لأنه أخطأ فيه بغير قصد ، لاختلاف عقليته عن عقلية المصريين الذين كتب عن عاداتهم وطبيعة بلادهم ، أو لانه وقع ضحية تضليل من الذين أمدوه بالمعلومات • ورغم ذلك يصدق الناس هيرودوت •

سادسا — مرحلة تنظيم الحقائق التاريخية المستخرجة من الوثائق : —

والخطـوة السادسة فى عملية التعامل مع الوثائق هى تنظيـــم الاستنتاجات شبه اليقينية التى تستخرج تمهـيدا لوضعها فى السياق التاريخى المناسب ويجب أن يراعى فيها الباحث ما يلى : —

(أ) أن يختار من الاستنتاجات ما يخص موضوعه أو فكرة التاريخى سواء كان سياسيا ، أو اقتصاديا ، أو اجتماعيا ، أو عالميا • ويبعد ما ليس له علاقة بالموضوع أو أسلوب التفكير وتسمى هذه العملية « بالتصفية » •

(ب) بعد التصفية واستبعاد ما هو ليس مطلوب فى البحث ، يبدأ فى تنظيم المعلومات المصفاة فى مجموعات أو أقســام أو أبواب حسب ظروفها الظاهرية أو خصائصها • وفى كل مجموعة تنظم المعلومات الى معلومات أصلية ، تليها المعلومات الفرعية • ثم ترتب حسب الزمان أو مكان الحدث • وبذلك تأتى المعلومات منظمة ، صادرة عن عقليته منظمة Organized mentality. وليست مشوشة • وكان المؤرخون القدماء من الأغريق والرومان ، ثم تلاهم المؤرخون المسلمون ، لا ينظمون معلوماتهم ، بل يخلطونها خلطا دون تنسيق ، فتجد أخبار الحـروب مـع أخبـار الفيضانات ، والحديث عن فكرة يعترضه حديث عن وباء • وهذا أمـر غير مستساغ فى البحث الحديث والقاعدة المتبعة فى تنظيم الحقائق هو اعتبار كل حدث هو حادث قائم بذاته ، وله مميزاته ، وظروفه الخاصة ، مع تبيان صلته بما سبقه أو لحقه •

(جـ) ولهذا السبب يجب أن تنتظم الحقائق اما على أساس نوعيتها الخاصة ، أو على أساس صفاتها العامة التى تدخل ضمن دائرتها الكبرى ، ويفضل الجمع بين الصفات الخاصة المتميزة ، والصفات الشمولية العامة ،

بمعنى أن يلاحظ الباحث السمات العامة التى تكون فيما بينها وحدة أو رابطة كبرى ، الى جانب ملاحظة الخصائص الجزئية المميزة لكل وحدة مستقلـــــــــه •

(د) يجنى الباحث الحصاد طبقا لنوع البذور التى يزرعها • فاذا طرح أسئلة سياسية سوف يحصل على معلومات سياسية ، واذا طرح أسئلة اجتماعية ، حصل على اجابات اجتماعية ومن ثم ننصحه بأن يضع ما يريد بحثه فى شكل أسئلة ، وتكون مهمته البحث عن اجابات لهـــا ، وفى ضوء نوعية كل اجابة تنظم الحقائق المتعلقة باهتماماته ، وقد يستخدم الفيشات بأن يضع اعلاها اسم السؤال الخاص ، ثم المصدر الـــــذى استقى منه الاجابة • ومن حقه أن يغير لون الفيش ، أو شـــكلها لكى يساعده ذلك على تمييز اختلاف كل مجموعة حسب القضايا التى تحويها •

(هـ) المهم فى هذا التنظيم هو تحديد الموضوع أو المسألة التاريخية المطلوبة حسب الحقائق التى تجمعت بين يدى الباحث خلال عمليــــة التعامل مع الوثائق وأحيانا يجد أن الحقائق خالفت تصوره للموضوع قبل أن يشرع فى كتابته ، لأن تحديد نهاية الموضوع أيسر من تحديد بدايته ولهذا السبب يضطر الطلاب الى تغيير الموضوع أو تعديله نتيجة للتعامل مع الوثائق •

(و) ينبغى على الباحث أن يدرس العوامل المختلفة والمتداخلة التى تؤثر فى المجتمع الأنسانى ، ويضع كل مجموعه من الحقائق فى زمانها ومكانها ، فى اتساق وتوافق بالنسبة للتطور العام ، وكيف صارت الى ما عليه بعد ذلك • وعليه أن يوضح أيها أكثر تأثيرا وتأثرا وتطـــورا ، وما هى الأسباب التى أدت لذلك ، وما علاقة ذلك بالجوانب الأخرى •

سابعا : مرحلة الاجتهاد والابتكار :

عرف علماء المسلمين الاجتهاد فى طلب العلم ، ووصفه الامام الغزالى بأنه « المجهود واستفراغ الوسع فى فعل الفعل ، وشرح أركانه وشروطه » والاجتهاد مطلوب ، بل وأساسى ، لأن الباحث سوف يكتشف أن المعلومات

شبه اليقينية ، التى تقدمها الاصول التاريخية لاتكفى أحيانا لتغطية الأجابات على الاسئلة التى طرحها الباحث لرءوس الموضوعات • كما أن الحقائق قد تكثر فى ناحية ، وتنعدم فى ناحية أخرى ، وبذلك تظهر فجوات Lacunae فى تسلسل الأحداث ، ولا سبيل لملىء هذه الفجوات غير الأستنتاج العقلى ، والأجتهاد ، والخيال المحكوم بمنطق الاشياء — وتسلسلها • ويجب أن يراعى الباحث عند محاولته الأجتهاد والأبتكار ما يلى :

(أ) يجب أن تكون عملية الأجتهاد منفصلة عن عملية التحليل،وكذلك يكون الحال بين الحقائق التى نتوصل اليها عن طريق التحليل ، والحقائق التى نستدلها عن طريق الاجتهاد • وأن نشير الى ذلك عند العرض التاريخى ، حتى لا نحمل الوثائق اكثر مما تتحمل •

(ب) يتطلب الأجتهاد أو الأبتكار حالة صفاء ذهنى ، واسترخاء ووعى كامل • مع مراعاة قواعد المنطق فيما هو قيد البحث أو الاستنتاج •

(ج) لا يجوز للباحث أن يعتبر ما يصل اليه عن طريق الأجتهاد قاطعا ، لأنه لا يملك ذلك ، بل يجب أن ينظر اليه على أنه أقل شكا ، كما لا يجوز له أن يجعل التكهن أو الفرض hypothesis حقيقة قائمة ، ويبنى عليها استنتاجات ، ما لم تتوافر لدى الباحث الأدلة والبراهين الكافية فكل ما يقوم على غير أساس يقينى مشكوك فيه •

(د) للأجتهاد طريقتان : واحدة سلبية negative ، وواحدة ايجابية Positive والاجتهاد السلبى هو ذلك الذى عبر عنه المناطقة المسلمون السلبيون بقولهم « أن السكوت حجة » بمعنى اذ سكتت الوثائق أو الصحف عن ذكر حادث ، قد يدل على حدوث الحدث اذا ما أثبتنا أن هناك تعمدا مقصودا لعدم ذكره ، مع أن غيره من الأحداث من هو أقل مرتبه قد يذكر ، فمثلا سكوت بن اياس عن ذكر مسألة نزول الخليفة المتوكل عن الخلافة للقاهر العثمانى سليم الأول بعد فتح مصر ، سكوت مقصود • وأحيانا يقام البرهان اذا ما نجح الباحث

فى نقض نقيضه ، والذى يعرف عند المناطقة المسلمين بأسم دليل الخلف « فنقول الشىء ثابت لأن نقيضــه مرفوض reduction ad absurdum ، السكوت نتيجة لعدم المعرفة فهو أمر يحتاج الى حذر ، ودقة ، وحرص زائد • أما الأجتهاد الأيجابى فهو محاولة استنتاج حقيقة ، أو ، أكثر من حادث ، بمجرد التثبيت من حدوث واقعة معينة • أى أن الباحث يبدأ بوقوع الحادث المؤكد واليقينى ، ثم يسعى الى استنتاج حوادث أخرى لم يرد عنها نص فى الأصول التاريخية فمثلا « تثبت الباحث أن محصول القطن زاد زيادة وفيرة فى عام من الأعوام ، وأن ثمنه فى السوق الدولية كان مرتفعا ، وبالتالى يستنتج أن حالات الزواج قد زادت فى ذلك العام بين الفلاحين • كما أن العثور على خبيئات للنقود فى منازل فلاحى كرانيس بشكل متعدد خلال عصر معين من حكم الرومان نستنتج منه وجد أحساس بعدم الاطمئنان insecurity ونستنتج من الاستنتاج استنتاجا ثالثا ، وهو أن الأمبراطورية كانت فى حالة من عدم الأستقرار وهكذا دواليك ، فما دام الأساس سليم ، تكون الادوار العليا قــوية •

(هـ) قد يسهل للباحث عملية مقارنة حوادث الماضى بحــوادث الحاضر لكى يضــع استنتاجات • وسوف يجد أن كثيرا من الحوادث مرتبطة بعضها بالبعض ، مثل الخيوط المتشابكة ، واذا عرفنا حادثا معينا ، أمكن استنتاج وقوع حادث أخر ، ترتب وقوعة ، على وقــوع الحدث الأول ، أو لأن كليهما نتيجة لسبب مشترك •

(و) يجب توخى الجذر عند الأجتهاد، اذ توجد كليات عامة مستمدة من تجارب الأنسان ، كما توجد جزئيات ذاتية وخاصة مستمدة من واقع الوثائق وتتعلق بحوادث أو مسائل معينة • والبحث المنطقى هو الذى يبدأ من الجزئيات الى الكليات وليس العــكس • وعنــد الربــط بين الجزئيات والكليات يجب أن تكون الكليات صحيحة ، وأن يكون الأرتباط بين الجزء والكل قويا وواضحا ، ولكى يستخدم الباحث فى التاريخ كلية عامة ، ليطبقها على التفصيلات الجزئية ، ينبغى عليه أن يكــون وطيد المعرفة بالمسائل التاريخية المعينة • فمن الخطأ أن يبنى الباحث اجتهاده فى الجزء على الكل على أساس حادث جزئى ، مستقل بــذاته

ولا يرتبط بدائرة أكبر • وهو ما نسميه « بالحادث الشارد » فلا بد اذن من دراسة كل الظروف المتعلقة بالحادث الجزئى لربطها — ان كانت ترتبط — بالدائرة الكلية •

وهناك ميل طبيعى لدى الباحثين وهو اقامة الأجتهاد على أساس الأتجاهات العلمية التى يقبلها العقل ، وأخرون يقيمون اجتهادهم فى ضوء تجاربهم ومعلوماتهم عن الحياة • لكن هذه الأتجاهات والأراء ليست يقينية تماما ، ومن هنا ننصح الباحث بالتروى والحذر فى الاجتهاد والاستنتاج حتى يصل الى أكبر قسط من الحقيقة ، ونحذره فى نفس الوقت من عدم الشطط • والذهاب بعيدا عند الاستنتاج ، خاصة اذا ما اعتمد علــى معينه وغرورة • فتوافر الأدلة والبراهين الكافية شرط أساسى لأستخلاص النتائج •

(ر) وأخيرا وليس أخرا نذكر الباحث بأن الأجتهاد لا يؤدى فى كل الحالات الى نتائج نهائية ثابته ، بل الى استنتاجات تقريبية من أجــل ملىء الفجوات فى التسلسل التاريخى • ومهما بلغ الاجتهاد مبلغا من رجاحة الرأى والتعقل الا أن الظنون والشكوك ستبقى تحوم حوله • وربما يأتى فى المستقبل من يقوم بأجتهاد أكثر قربا من الحقيقة فى ضوء ما يكشف عنه من الحقائق ، وما يماط عنه اللثام من مصادر • ويبقى الله أعلم العالمين دائما • وعلى الباحث أن يذكر دائما قوله تعالى » وما اوتيت من العلم الا قليلا » •

ثامنا — مرحلة التعليل والتفسير والأيضاح :

ان الباحث مطالب بأن يسعى لمحاولة التقصى عن الأسباب والعوامل التى أدت الى حدوث الوقائع التاريخية العامة ، وتعليل الحــوادث وايضاحها ، مثل ازدهار أمة وارتفاعها ، وأسباب تدهورها وسقوطها ، وعليه أيضا أن يتحرى عن أسباب الحوادث المحددة مثل الانتصار فى معركة أو الهزيمة فيها ، أو ارتفاع نسبة الوفيات أو انخفاض المستوى المعيشى فى فترة معينة •

وبالنسبة للتفسيرات الشمولية للظواهر التاريخية ، فقد اختلفت حسب العصور فى مدارس مختلفة (١) • على الطالب أن يلم بها ويستفيد منها • أما بالنسبة للأحداث المحدودة أو الخاصة ، فيستطيع الباحث أن يتعرف على جزء من أسبابها من واقع الأصول التاريخية التى يعتمد عليها ، والتى يسجلها المؤرخون كل على النحو الذى يراه أو يفهمه • ومن البديهى أن معرفة الأسباب فى حوادث التاريخ تستلزم تتبع الفترة السابقة التى مهدت لها لمعرفة العوامل المباشرة وغير المباشرة ، التى أدت الى وقوعها والى وصول الشىء الى الحالة التى عليها ساعة دراسته • وسيتبين للباحث من دراسة الأصول الظروف التى وقعت فى أثنائها تلك الحوادث ، مثل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية • الخ •

وينبغى على الباحث الا يتقيد بفكرة واحدة وألا يكون سجينا لمذهب معين يفسر فى ضوئه الحقائق التاريخية ، لأن تفسيره سوف يكون معبرا عن لون تفكيره وليس معبرا عن الحقيقة التاريخية • ومهما اجتهد الباحث فى التحرى والأستقصاء ، ستظل أشياء كثيرة غير قابلة للتفسير الكامل المقنع بالنسبة للعقل الأنسانى • اذا أن ارادة الله وقدرته تلعب دورها عندما تأتى النتيجة أحيانا على عكس ما يتوقع الحساب المنطقى للبشر •

ومن المفيد للباحث عند تحرية عن مسببات الأحداث التاريخية أن يوازن الحاضر بالماضى وذلك عن طريق ما يلى :

(أ) معرفة العادات والتقاليد والأراء فى المجتمع الذى يدرسه ، والحالة الاقتصادية ، بالرغم من وجود سمات خاصة فى قدرة الخلق الفنى والفكرى عند بعض أفراد المجتمع ، فلا نستطيع مثلا أن تقيم شاعرا من خلال حكمه على الشعراء المعاصرين له ولا تفسر أعمال فنان معين بأعمال فنان أخر •

(١) انظر : الفصل الثانى : مراحل التفسير التاريخى •

(ب) دراسة التغيرات فى البيئه كجفاف بعض المناطق أو حـــدوث كوارث طبيعية أو اكتشاف طريق جديد للتجارة •

(جـ) الانسان كائن متطور ، فقد يحدث التغيير نتيجة لتغير السلوك وطرق التفكير ، فالله سبحانه وتعـــالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وقد يكون التغيير نتيجة لقدوم غزاة جدد أو مهاجرين ، أو انتشار مذهب أو دين جديد •

(د) على الباحث أن يراعى المسببات الأنثروبولوجية والفسيولوجية والسيكولوجية التى تفسر بعض حوادث التاريخ •

(هـ) للعامل الفردى أيضا دورة كظهور الزعماء والمصلحين ، الذين يغيرون مسار الأحداث ، وهم فى نفس الوقت نتاج تحديات العصر الذى يعيشون فيه ، فالزعيم هو ثمرة عصره سواء كان ذلك بأدراكه مشاكل عصره ، ونجاحه فى تحقيق حاجات شعبه ، أو احساسه بمشاكل بيئته ، وسعيه الى اصلاحها حتى وان فشل فى الاصلاح كما تصوره ، أو سعى لتحقيق طموحاته الشخصية • ويعتبر توماس كاريل (١٧٩٥ — ١٨٨١) الفيلسوف الأنجليزى ومؤلف كتاب « الأبطال والبطوله » من أهم الدعاة النظرية الرجل العظيم • والحق أن كارليل استمد نظريته من الفيلسوف الألمانى نيتشه • غير أن الأفراط فى دور الزعيم غير مستحب ، لأن ذلك يؤدى الى تجاهل المناخ الاجتماعى والظروف الأقتصـــادية التى ظهـــر هؤلاء القادة خلالها • ولابد من أن يضع الباحث أمام ذهنه أن هنـــاك تأثيرا متبادلا بين الزعيم وعصره ، أى بين التركيب النفسى والفـــكرى والثقافى والبدنى والتربوى للزعيم ، وبين ظـــروف بيئته الاجتمـــاعية والأقتصادية والتحديات التى يواجهها شعبه • ثم تحليل أعمال الزعيم فى ضـــوء ما سبق •

الفصـــل السابع

المرحلة النهائية للبحث

مــرحلة الكتــابة

بعد هذا الشوط الطويل • يكون الباحث قد وصل الى المرحلة النهائية، الا وهى مرحلة كتابة البحث أو الرسالة • لكن كتابة الرسالة تتطلب بدورها درجات ، لأن كتابة الرسالة مثل بناء البيت ، فالمراحل السابقة جمعنا فيها مواد البناء ، والآن علينا أن نصب القوالب التى ســوف نبنى منها البناء طبقا للخطة الهندسية الموضوعة • ومرحلة صب القوالب أو تشذيب الكتل الحجرية تعرف بأسم انشاء الصيغ التاريخية ، أمـــا مرحلة البناء فهى تعرف بأسم مرحلة بناء الرسالة • ويلى مرحلة البناء مرحلة « التشطيب وهى وضـــع اللمســـات الأخيرة ، ونسميها بمرحلة العرض ، وتتضمن ــ الى جانب مراجعة النص الأخير قبل الطبع اعداد الهـــوامش والحواشى والببليوجرافيا (أى ثبت المراجع والمصـــــادر فلنعالج كل خطوة من هذه الخطوات بشىء من التفصيل •

١ ــ انشاء الصيغ التاريخية :

وكما بينا هذه الخطوة تعنى صنع القوالب التى سوف ترص لنبنى منها الرسالة ، وتصنع القوالب من المادة التاريخية التى جمعت ونقحت ونقدت ، والمدونة على الكارتات (الفيشات) • وهذه المرحلة من البحث لاتستلزم سوى الجلوس لوقت طويل أمام المكتب • وعلى الباحث أن يراعى فيها النصائح الآتية :

(أ) يحتاج التاريخ الى صيغ وصفية للتعبير عن ظواهره المختلفة • وهذه الصيغ يجب أن تكون دقيقة ومحددة وواضحة ، بعيـــدة عــن

الأطناب أو الأيجاز الشديد الذى يحول دون الفهم • وذلك يتم عن طريق ضغط المعلومات وحذف كل ما هو غير ضرورى أو يثير لبسا أو غموضـــا •

(ب) بعض الحقائق بطبيعتها مطولة ، وبعضـــها الأخر مقتضبة وموجزة بطبيعتها • وعلينا أن نورد الحقائق المقتضبة الموجــزة على حالتها ، حتى لا نباعد بينها وبين واقعها التاريخى • أما اذا كانت ذات تفاصيل ، فمن السهل تلخيصها وتركيزها وتقديمها للقارىء فى صــورة واضـــحة ومعقولة •

(حـ) ننصح المؤرخ الا يستخدم الفاظا مجردة وغير محددة حتى لا نبتعد عن الوقائع المحـــددة الدقيقة ، ولا يستخدم صيغ المبـــالغة والتفصيل الا بحذر شديد •

(ء) اذا أراد المؤرخ ، أن يضع فى صيغة واحدة ، معلومات تتركب من عدة أفعال ، فعليه فى هذه الحالة ، أن يحـــاول تحديد الصـــفات المشتركة بين هذه الأفعال ، لكى توضع فى صيغة واحدة •

(هـ) الصيغ التاريخية الخاصة بحياة الزعيم أو القائد ، ينبغى أن تشمل الظروف التى أثرت فى مجرى حياته ، والتى كونت عاداته عـــلى النحو الذى جعله يقوم بأفعال معينة ، ويتبنى أفكارا معينة ، أثرت فى مجرى أحداث التاريخ سواء من حيث بيئته ونشأته ، أو ظـــروف تعليمه ، أو حالته العقلية والنفسية والصحية • وعليه أن يحدد آراء الرجل ، ودرجته من الثقافة ، ومعلوماته وذوقه وخلقه • وبتحديد كل هذه التفاصيل المتنوعة نبدأ فى تكوين الصيغ التاريخية التى تتطلبهـــا الكتابة عنـــه •

(و) بالنسبة للصيغ الخاصة بالأحداث يجب أن تكون معبرة عن طبيعته ، ومداه ، وأثره والمقصود بطبيعة الحدث ، هو المظاهر الخاصة به ، والتى تميزه عن غيره من الحوادث من حيث الزمان والمكان ، والظروف التى لابسته ، وطريقة وقوعه ، وأسبابه القريبة والبعيدة ، والآثار التى ترتبت عليه ، والدوافع التى أدت الى حدوثه •

(ز) الكاتب التاريخى الجيد يكون مثل الرسام الذى يحقق بفرشته الأبعاد والألوان ليعطينا لوحة متكاملة متماسكة التكوين ، ذات ألوان معبرة تشد انتباه الناظر اليها ، ولا نستطيع تحديد الألوان ولا درجتها لأن الأمر متروك لذوق الباحث وتقديره .

(ح) يعتمد البحث التاريخى فى العصر الحديث على وسائل الأيضاح مثل الصور والخرائط والرسوم . كما يعتمد على الاحصائيات والبيانات ، خاصة اذا كان البحث يتعلق بالناحية الأقتصادية والمالية وهذه الجداول تعد وتوضع فى نهاية الرسالة أو بين متونها حسب ما تقتضى الحاجة . وفى بعض الحالات قد يضطر الباحث الى استخدام الحاسب الالكترونى (الكومبيوتر) وأن يرجع الى عالم الأحصاء .

(ط) جداول التعداد ضرورية بالنسبة للحقائق الخاصة بالسكان . ويلاحظ أن عدد سكان مدينة أو جيش ، لا يدل حتما على مستوى اولئك السكان ، أو أهميتهم ، ولكن التعداد يدل على مدى الكثرة أو القلة ، وارتباط ذلك بالموارد الغذائية ، وبالحاجة الصحية ، والتعليمية ، ونصيب الفرد من الخدمات ومستوى المعيشة ، على أن ينبغى الحذر دائما من الأرقام التى توردها الوثائق الرسمية ، والمحفوظات القديمة (1) .
ولابد من التثبت من صحتها . أما التقدير فهو نوع من التعداد ، ويطبق على قطاع معين فى ميدان البحث ، ويفترض فيه أن ما يسرى على الجزء يسرى على الكل . والباحث مضطر لأن يفعل ذلك اذا تفاوت مقدار ونوع الوثائق التى يعثر عليها . وعادة يكون الكم القائم على التقدير موضع شك ، كما يتوجب التأكد أن الجزء يشبه الكل فى الشكل والجوهر .

(ى) قد يضطر الباحث أحيانا أن يضمن كتابته نماذج أو عينيات . وهما نوع من التعداد الذى يقصر على وحدات تؤخذ كمثال للحقائق فى ميدان البحث ، وتحسب نسبة الوحدات التى يوجد التشابه بينها ، ويقرر الباحث الى أى حد تنطبق هذه العينات على مجال البحث كله . ويجب أن تؤخذ العينات من أماكن متفرقة بقدر المستطاع ، حتى يكون التقدير

(1) Finley, Ancient Economy, P.14.

أكثر انطباقا على الواقع التاريخى ، مثل عند تحديد التناسب بين العادات المختلفة التى توجد فى عصر أو مكان معين ، أو عند تحديد التناسب فى جماعة ينتمى اعضاؤها الى طبقات اجتماعية معينة •

أما التعميم generalization فهو عملية غريزية للتبسيط ويقوم على التشابه فى بعض الصفات المشتركة • ولكن يتوجب الحذر من الأخطاء التى تترتب على التعميم ، مثل أن تنسب عادات قلة من الناس الى شعب بأسره ، أو أن ننسب عادات وجدت فى مرحلة زمنية قصيرة الى عصر بأكمله ، أو ينسب نظاما ما الى عهد سابق أو لاحق لوجوده الفعلى • فعلى الباحث أن يحدد على وجه الدقة الميدان الذى يرغب فى التعميم بالنسبة اليه • وينبغى أن يتثبت من الحقائق التى تقع فى ذلك النطاق المحدد ، وأن تتشابه فى النواحى التى ينطبق عليها التعميم بقدر الأمكان • كما ينبغى أن يكون التشابه حقيقيا وجوهريا • وعلى الباحث الا ينخدع بالتشابه السطحى وبالألفاظ الغامضة • وعليه أيضا أن يتأكد أن الحقائق المعينة التى يرغب فى تعميمها تمثل مجموع الحقائق التى من نفس النوع تمثيلا صادقا وصحيحا وحتى لا يخلط بين أنواع الحقائق المختلفة • كما يتوجب الا تكون الحقائق المراد تعميمها من النوع الشاذ ، وكثيرا ماتحوى الاصول التاريخية أنواعا من الحوادث الشاذة ، والتى قصد كاتبوها أن يسجلوا حوادث شاذة لا تمثل الواقع التاريخى •

(ل) ان الصيغة الوصفية فى الكتابة التاريخية ليست هى النتيجة النهائية بالنسبة للباحث ، اذ أنها تعطى الصفات الخاصة بكل مجموعة صغيرة من الحقائق ومن ثم فلابد من تحديد العلاقات المتبادلة بين الحقائق ، ولابد من الربط والمقارنة بين مجموعتها ، وتحديد مميزاتها ، ومدى انتشارها واستمرارها وأهميتها • وكلما كون الباحث مجموعات أوسع وأعم ، كلما أسقط الصفات التفصيلية المنفردة النوع (أى الشاذة) واستبقى الصفات المشتركة فى الشكل والنوع •

اذا ما اتبع الباحث هذه النصائح ، فسوف يجد أنه قد ركز الحقائق العديدة ، ووضعها فى صيغة عامة واحدة سواء كانت هذه الحقائق متعلقة

بالدين أو السياسة أو اللغة أو الفن أو الأقتصاد • وبذلك يرتب الباحث الحقائق ويعدها للعرض التاريخى بطريقة توضح مضمونها المشترك •

٢ — العرض الأدبى للنتائج :

لا تصبح كتابة التاريخ سهلة وميسرة الا عندما تكون كافة الحقائق ماثلة أمام الباحث ، مثبته ، معلله ومشروحه • بعد ذلك يبدأ الباحث فى تخيل موضوعه كوحـــدة متكاملة ، تعتمد أجزاؤه على بعضها البعض ، وكالبنيان تشد بعضها بعضا • وكثير من الرسائل المهلهلة فكرا وموضوعا ، أهمل كاتبوها وحدة العمل ، ونفوذها فى شكل فصول منعزلة عن بعضها البعض • ومثل هذه الرسائل المتفسخة تفقد الكثير من أهميتها ، ويضيع مجهود السنين من جمع المعلومات ونقدها بسبب سوء البناء أو التخطيط • ولغة الكتابه هى واجهة العرض بالنسبة لبضاعة المؤلف ، والتى يعرض من خلالها أفكاره ، وما يريد للناس أن تعرفه • ومن هنا لابد أن تكون لغة المؤرخ سلسله ، سهلة وواضحة لتنفذ الى عقول قرائه دون صعوبة وفى يسر تام • وليس كل من يعرف كيف يبحث ، يجيد كيف يكتب • وعموما ننصح الباحث بمراعاة ما يلى : ؟

(أ) أن يكون الباحث فى التاريخ ملما بأصول وقواعد اللغة العربية ويحسن التعبير بها ، وليس هناك حرج من الأستعانة بالمتخصصين فيها لمراجعة النص •

(ب) أن يكتب بلغة سهلة ، واضحة ، تلائم الموضوع الذى يتناوله ، وتتفاوت بتفاوت أجزائه وتفصيلاته •

(ج) عليه أن يكتب بلغته ، وبأسلوبه الخاص الذى تتضح فـــيه شخصيته ، فلا يقلد هذا أو ذاك ، ولكل كاتب طريقته الخاصة فى التعبير عن آرائـــــه •

(د) ينصح الكاتب بأن يتحاشى الأكثار من الأساليب الأدبـــية الخالصة ، وتجنب الأسلوب الحالم الشاعرى حتى لا يؤثر ذلك عـــلى

واقعية الأحداث ، فالمؤرخ غير الأديب أو الشاعر ، لكن غياب الخيال نهائيا يؤدى الى قبح اللغة ، وركاكه الأسلوب . والمطلوب أن يجمع الكاتب بين البساطة والدقة ، وروح الفن . فهو كالرسام يوزع ألوانة كل بدرجته فى نفس الوقت يحرص على وحدة عمله الفنى . والهدف من ذلك توصيل الحقيقة الى الناس بطريقة صادقة ، ولكن جذابة وعليه أن يضع فى الحسبان أن ما يكتبه ما هو الا جزء من نهر التاريخ العام ، اذ يسبقه عصر ، ويتلوه عصر آخر ، وكل عصر نتيجة لمسائل العصر الذى سبقه ، كما أن أحداثه هى مسببات أحداث العصر الذى يليه . والباحث الذى لا يعرف طريقه بوضوح سوف يضل ويغرق فوضوح الرؤيا ووضوح الهدف أهم متطلبات الكتابة .

(هـ) ولهذا فلابد من وضع المخطط الذى سيسير الكاتب على هداه قبل الشروع فى الكتابة . وليس شرطا أن يكتب أجزاء البحث طبق ترتيب جدوله ، فله الحق أن يكتب فصلا قبل فصل ، بشرط أن يتم مراجعه الفصول كلها لتحقيق التناسق وحتى لا يحدث تكرار . والذين لا يراجعون العمل ككل ، نجدهم يكررون أنفسهم وهم لا يدرون ، مما يشوه الرسالة ويقلل من درجتها .

(و) اذا اقتضى الأمر تكرار فكرة ، ينصح الكاتب الا يكررها بنفس الألفاظ أو الكلمات لأن القارىء المتابع لفصول الرسالة يريد دائما الجديد فى الفكرة والجمل اللغوية والاستنتاج .

(ز) بعض الباحثين يبالغون فى حجم رسائلهم وقد وصل بعضهم بالفعل فى رسالته للدكتوراه الى أكثر من ألف صفحه منسوخة ، ومهما احتوت من معلومات فلن تكون مستساغة ، وبالتالى الأعتدال فى حجم الرسائل مطلوب ، فلا تكون مطنبة ولا تكون موجزة . ولهذا حددت بعض الجامعات حجم الرسائل من ناحية عدد الكلمات كذلك لابد من مراعاة التناسق بين فصول الرسالة ، فلا يكون هناك فصل طويل للغاية وفصل مقتضب للغايه ، واذ كانت مادة ذلك الفصل بطبيعتها مقتضبة يمكن ادماجها فى فصل آخر ليكون حجمها معقولا .

(ح) كثير من الرسائل فقدت قيمتها بسبب كثرة الأخطاء المطبعية والنسخية بسبب سوء الطبع أو النسخ ، ولا عذر للباحث فى ذلك لأنه مسئول مسئولية مطلقة عن مراجعة ما يطبع وما ينسخ وعليه أن يقلل من هذه الأخطاء بالمراجعة عدة مرات بقدر الأمكان ، ومن المفيد اشراك مراجع آخر حتى لا يغفل عليه خطأ تعودت عيناه عليه ويفضل قبل النسخ أيضا أن يترك الباحث ما كتب فترة من الزمن ، ثم يعود اليه مرة أخرى ، وسيظهر له حتما مسائل غامضة أو غير حسنة الترتيب أو الصياغة فيوضحها أو يعيد كتابتها من جديد ، عندئذ سوف يغير الكاتب من رأيه •

(ط) يجب أن يكتب الباحث وفى ذهنه احتمال الوقوع فى الخطأ ، وعليه أن يبادر بتصويب ما يمكن أن يكشف عنه من الأخطاء ، اذا ما ظهرت أمامه معلومات جديدة ، أو أدلة حديثه ، وحينما يكون غير واثق من معلومة فعليه أن يقرر ذلك بصراحة ، وأحيانا يكون التعديل فى معلومة ما أمر متروك لضمير الباحث ، فالأمر مسألة أمانة ووفاء للبحث العلمى •

(ى) لا يجوز دراسة موضوع سبق دراسته فى بحث علمى — سواء لدرجة علمية أعلى أو أقل فمثلا لا يجوز أن يختار طالب الدكتوراه موضوع ماجستير سبق دراسته بدعوى التوسع والتفصيل ، ولا يجوز لطالب ماجستير أن يختار موضوعا سبق حصول صاحبه على درجة الدكتوراه ، لكن اذا ظهرت وثائق جديدة وكافية لتغيير القاعدة الفكرية للرسالة القديمة يجوز اعادة اختيار الموضوع الذى سبق دراسته ، لكن مع تغيير فى عنوانه ، حتى نفرق بين البحث القديم والبحث الجديد ، وعلى أن يذكر صاحب الرسالة الجديدة ذلك فى المقدمة حتى لا يتهم بسرقة بحث سابق ، واللص عادة لا يدلل على المسروق ، ومن ثم يتعمد سارقوا الأبحاث اسقاط اسم البحث المسروق •

(ك) من المفضل أن يقدم الباحث فى مطلع رسالته لماذا اختار موضوعه ومن من الدارسين سبقوه فى تناوله ، أو درسوا بعضا من جوانبه ، وما مدى القصور فيما درسوه ، وما جد من جديد من الأبحاث منذ أن كتبوا ابحاثهم لان ذلك سوف يزيد من ثقة القارىء فى الكاتب ، لأن

الهدف الاساسى من الكتابة هو جعل القراء يصدقون الكاتب ، والتصديق Credibility يتطلب الثقـــة • والمـــؤرخ الجيد هـــو الـــذى يضـــع فى ذهنه أنه متهم بعدم التصديق من جانب القراء حتى يثبت لهم صدقه وجديته عند فراغ القارىء من الرسالة •

(ل) ومن طرق تحقيق عملية التصديق التدليل على الرأى بالحجة أو الوثيقة ومن ثم على الكاتب أن يضع فى متن رسالته فقرات من الأصول والوثائق التى رجع اليها بلغتها الأصلية مشفوعة بالترجمة • وقد يسىء ذلك الى الاسترسال ، أو يشوه جمال اللغة ، ولكن لابد من التضحية فى سبيل تعزيز الحقائق التاريخية وحيازة ثقة القارىء وتصديقه •

(م) يجب ذكر مصدر كل معلومة أخذها الكاتب ، حتى لاينســب ما يكتبه لنفسه وهو ليس من صنعه ، وحتى يضع مسئولية صحة هذه المعلومة على من أخذها منه ، وكل معلومة تخلو من الأشاره الى صاحبها فى هامش الرسالة ، تعتبر سرقة منسوبة الى الكاتب • أما المعلومـــات التى أصبحت شائعة القبول ووصلت الى مستوى اليقين لدى الناس فلا داعى لذكر مصدر عنها • وقد تختلف درجة ذلك حسب درجة ثقافة الباحث ، فبعض العلماء الكبار يكتبون فى آخر حياتهم مؤلفـــات كبيرة دون ذكر مصادرهم ، لأنهم يكونوا قد وصلوا الى درجة عالية من الثقافة تجعل ذكر المصادر لتدليل على بعض معلوماتهم أمرا لاداعى له ، لأنهم أصبحوا كالمصادر ذاتها •

الحـــواشى والهوامش Footnotes

من أدق وأصعب جوانب الكتابة وضع الهوامش والحواشى لأنهـــا عملية معقدة ، وتحتاج الى معرفة وخبرة ، وتقدر درجة مهارة البحث بمدى دقته فى ترتيب وتنظيم حواشى الرسالة • والحواشى جزء هام توضع أسفل الصفحات ، مرقمة بحسب وضعها فى الصفحة ، أو حسب وضعها فى الفصل ، أو حسب وضعها فى الرسالة كلها • واذا كانت الحواشى مرقمة حسب الصفحة ، فيجب أن توضع أسفل الصفحة ، أما اذا كانت مرقمة حسب الفصل ، فيفضل أن توضع آخر الفصل ، واذا

كانت مرقمة حسب الرسالة كلها ، فيفضل أن توضع فى نهاية الكتاب أو الرسالة • لكن منعا للخلط يفضل وضعها فى أسفل كل صفحة مرقمة حسب وضع كل معلومة من الصفحة ، وان كان الطباعون يفضلون الطريقتين الأخريين • وفائدة الحواشى أنها تضبط وتوثق الوقائع الواردة فى متن الرسالة ، وتحمل المسئولية العلمية لمن أخذ عنهم المعلومات وعلى الباحث أن يراعى الملاحظات والأرشادات التالية :

١ — اذا أخذ الباحث من مرجع أو مؤلف مطبوع ، عليه أن يضع اسم المؤلف أولا ، اسمه الأول والثانى أو الحروف الأولى منهما ، يليه اللقب (Surname) ، ثم يضع اسم الكتاب كاملا ، فاسم الناشر ، ومكان طبع المرجع ، وترتيب الطبعة اذا كان المرجع قد طبع عدة مرات ، ويراعى دائما أن آخر طبعة هى أفضلها ، وهى الأجدر بالرجوع اليها ، لأن المؤلف دائما يصحح نفسه ويضيف الى مؤلفه فى الطبعة الجديدة ، ثم تاريخ الطبعة ، واذا لم يجد تاريخا للطبعة يذكر ذلك بين قوسين دائرين ، أما اذا توصل لتاريخ الطبعة فى مكان غير ظاهر بالمرجع فيضع ذلك التاريخ بين قوسين دائريين أيضا ، يلى ذلك رقم الصفحة أو الصفحات • واذا كان المرجع قد نفذ تماما فيكتب ذلك ، أما اذا كان نادر الوجود فلابد من ذكر مكان وجوده ورقمه وكلمة ارجع الى أن قارن CF •

ومثال على ذلك :

CF, J.L. Talmon, The Origins of Totalitarian Democracy, London, 1952, PP 167.

وكلمة PP تعنى صفحات ، أما اذا تلى رقم الصفحة حرف F فمعنى ذلك « والصفحة التالية » ، أما اذا تلى رقم الصفحة الحرفان FF فمعناها وما بعدها — من صفحات ، أما اذا كانت المعلومات التى اعتمد عليها الباحث موزعة فى كل صفحات الكتاب بحيث لا يمكن تحديد صفحة معينة فيضع الرمز Passim وهى كلمة لا تينية معناها فى كل مكان •

٢ — أما اذا كان المؤلف فريدا فى نوعه ، أى لايوجد مثيل له فى المادة أو الأهمية بحيث لايحتاج مؤلفه الى تعريف أو اذا كان المرجع أساسيا فى الرسالة بحيث تقوم عليه ويعتمد عليه الكاتب اعتمادا اساسيا

فتكتفى بذكر اسم الكتاب الأن المؤلف رجل مشهور مثل آدام سميث فيذكر مثـــلا : CF, Wealth of Nations, Book I, Chapter VIII, P 25. دون ذكر اسم آدام سميث ولاتاريخ الطبعة ولا مكانها اللهم اذا كانت احدى الطبعات مختلفة عن غيرها عندئذ لابد من ذكر اسم الطبعـــة ومـــكانها .

٣ — الكتب السماوية أيضـــا بكتب اسمهـــا ثم رقم الســـــورة أو الآية فقــط .

٤ — اذا كان الكتاب مترجما عن لغة لا يعرفها المؤلف ، فيـــكتب اسم المؤلف والكتاب بعد الترجمة ويذكر بين قوسين دائريين اســـــم المترجم الذى ترجمه والمراجع الذى راجع الترجمة ، وفى حالة تغير المترجم الأسم الكتاب فى ترجمته يذكر لنا الأسم الأصلى ومثال على ذلك

Eugen von Böhm-Bawerk, Zum Abschluss des Marxschen Systems (translated by F.G. Jones as Karl Marx and the Close of his System). London and Now York 1949. P 81.

٥ — اذا تكرر ذكر المرجع دون أن يفصل بين هذا الذكر اسم مرجع أخر ، فى هذه حالة يذكر اسم المؤلف مسبوقا بالرمز CF ومتبوعا بعبارة Op. Cit., ثم رقم الصفحة .

٦ — اذا كان للمؤلف كتابان وذكر اسم أحدهما ، ثم أراد أن يذكر فى مناسبة تاليه للذكر الأول اسم المرجع الثانى ، فلابد فى هذه الحالة من ذكر اسم المؤلف واسم المرجع كاملا ومكان الطبع ويعامل معاملة المرجع المستقل ، حتى يميز القارىء بين الكتابين . اما اذا تكرر ذكـــر المرجعين فى نواحى متداخلة ، فلابد من ذكر اسم المؤلف مسبوقا بعبارة Cf. ثم ذكر اسم الكتاب ثم رقم الصفحة .

٧ — المعلومة المذكورة فى مرجع ومنقولة على لســـان شخص آخر لابد أن توضح فيذكر اسم صاحب المعلومة الأصلى ثم الشخص التى وردت على لسانه واسم المرجع الذى ظهرت فيه هذه العبارة . ومثـــال على ذلك :

Roseberry, quoted by G. Bennett, The Concept of Empire London. 1953, PP 326 — 7.

٨ — أما اذا كانت المعلومة متكررة فى نفس صفحة المرجع ويريد الكاتب أن يكرر الأشارة الى هذه الصفحة بعينها فيكتفى بذكر احتصار Ibid أى فى نفس المكان • فمثلا اذا أردنا أن نشير الى نفس الصفحة المذكورة فى المرجع الذى ضربناه كمثل فى ملحوظة واحد نفعل الآتى :

Talmon, ibid.

أما اذا استمر الذكر للصفحه فلا داعى لذكر اسم المؤلف ويكتفى بالرمــز Ibid

المقــالات : —

١ — اذا ذكرت معلومة ورادة فى عدد من حولية علمية ، يذكر اسم صاحب المقال ثم اسم المقال موضوعا بين شولتين ، ثم اسم المجلــة العلمية مكتوبا بالحروف المائلة in Italic أو يوضع خط تحتها لتمييزها عن اسم المقال ، ثم مكان المجلة ورقم المجلد ، ورقم الجزء منه اذا كان هذا العدد من المجلد قد صدر على مراحل كما يحدث الآن ا ثم رقم الصفحة ومثال :

Paul Stering, «Zü Marschalls neuklassischër Oekonomie,» in *Zeitchrift fure Sozialforschung*, Paris, 1937, Vol. Vi, no. 3, PP 522--40.

٢ — اذا تكرر اسم المقال يكتفى بذكر اسم المجلة كاملا أو مختصرا ثم عبارة Loc. Cit. أى فى المكان المذكور ، ثم رقم الصفحة واذا تكرر ذلك دون فاصل فى استمرارية المراجع ، يكتفى يذكر loc. cit.

٣ — اذا وردت معلومة مأخــوذة عن شخص ذكــرها فى حديــث صحفى فلابد من ذكر اسم الصفحة ، والعدد الذى وردت فيه المعلومة وتاريخ صدوره ، والشخص الناقل للعبارة عن الطرف الأصلى مثال : الأهرام ، العدد ٣٤٤٩٦ — السنة ١٠٧ ، الصادر بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٨١ ؛ ص ٨ (نقلا عن مصدر مسئول بالخارجية) •

٤ — أما اذا أخذ المعلومة من مرجع والمرجع معتمد على حديث صحفى صدر فى مجلة . فلابد من ذكر اسم المجلة والرقم والتاريخ الى جانب المرجع الذى أخذ منه ، هذا اذا تيسر له الرجوع والوصول الى اسم المجلة والرقم والتاريخ ثم يضع بين قوسين عبارة نقلا عن اسم مؤلف المرجع الذى عرف عن طريقة هذه المعلومة ومثال :

Iskra, no 83, January 1905 (quoted by Deutscher, loc. cit, P 104).

٥ — اذا كانت المعلومة مأخوذة من كتيب . Pamphlet
فيذكر اسم المؤلف وأنها بامفلت ثم تاريخ صدورها مثال :

Trotosky, Our Political Tasks, Pamphlet, (Geneva, August, 1904).

٦ — اذا كانت المعلومة مأخوذة من مستخرج من مجلة علمية ، فلابد من ذكر ذلك وذكر المجلة المستخرج منها هذا المستخرج ، ثم رقم العدد وتاريخه .

اذا كانت المعلومة مأخوذة من مصدر شخصى مباشر فيجب أن يذكر الكاتب ذلك بعبارة « مصدر شخصى » حتى يكون مسئولا عن صحة أو كذب العبارة التى نقلها .

٨ — اذا كانت المعلومة مأخوذة من مراسلات أو خطابات يذكر اسم المتراسلين وتاريخ الرسالة وهل الرسائل منشورة فى مجلد أم غير منشوره فأذا كانت منشورة يذكر اسم العمل الذى يتضمنها بين قوسين.

٩ — عند الأشارة الى الرسائل العلمية مثل الماجستير أو الدكتوراه فعلى الباحث أن يذكر ذلك صراحة كما يذكر الجامعة التى قدمت لها الرسالة ، وعما اذا كانت قد أجيزت ثم يشير الى كونها منشورة أى غير منشورة .

الوثيقة أو المخطوط :

١ — اذا كان الأصل التاريخى الذى اعتمد عليه الباحث وثيقة مخطوطة ، فينبغى ذكر دار المحفوظات أو الأرشيف أو المكتبة التى يوجد بها . ذلك المخطوط ، ورقم المجلد ورقم الملف والصفحة وتاريخ الوثيقة.

ومكان تدوينها ، ومكان صدورها أو ارسالها ، وعما اذا كانت ورقـــة رسمية أو غير رسمية أو مسودة • والمقصود بذلك أن تتاح الفرصـــة للأخصائى للرجوع بنفسه الى بعض الأصول التاريخية اذا رغب التثبت بنفسه من مسألة معينة أو اذا رغب فى متابعة البحث فى نفس الموضوع أو المزيد فيه • مثل : مراسلات نابليون • الجزء الخامس وثيقة ٤٠٢٢ بتاريخ ١٥ فبراير عام ١٩٧٩ • محفوظة فى المكتبة القومية بباريس •

٢ — وفى أحوال كثيرة يضطر الباحث الى أن يورد فى الهامش نصا أصليا مأخوذا من مخطوط أو مطبوع ويحسن أن يكون ذلك بلغة النص الأصلية لأن الترجمة قد تغير المعنى ، والا تكتب الترجمة الا اذا تعذر الحصول على الأصـــل التاريخى •

المناقشات والتعليقات فى الهوامش :

أحيانا يجد الباحث أنه من الضرورى أن يناقش أو ينقد نصـــا أو دليلا تاريخيا فى الهامش ، أو ينقد رأى مؤلف آخر فى مسألة ما ، أو أن يوفق بين عدة آراء خلافية عن حادث ما ، وأن يورد الرأى الذى يرجحه ان أمكن مع الأدلة ، وأن يورد الآراء والأخرى وحجة كل منها ، ويناقشها ويستخرج منها رأيا ان أمكنه أن يفعل ذلك ، أو أن تترك المســـألة كما هى اذا عجز عن الوصول الى رأى قاطع ، ولاحرج عليه اذا لم يجد الأدلة الكافية للوصول الى رأى •

٢ — لا يوجد فيصل واضح لمـــا يجب أن يورد فى متن الكتاب أو الهوامش والمسألة متروكة لتقدير الباحث ، وذلك حسب التفاوت فى طبيعة المسائل التاريخية ، والتداخل بين تفصيلاتها الجوهرية والثانوية ، والأختلاف بين باحث وآخر فى تقدير مدلول الحقائق التاريخية فى عمومها وتفصـــيلاتها •

ملاحق البحث :

يجوز تقديم ونشر مختارات من الأصول التاريخية التى اعتمد عليها الباحث وفى بعض الأحيان يكون نشر مثل هذه الملاحق أمرا جوهريا لأنه يقدم للقارئ جزءا من المواد الأولية التى استقى منها الباحث معلوماته . خاصة اذا كانت وثائق لم تنشر ، ومن الأفضل أن تنشر بلغاتها وهجائها وأخطائها كما وردت بغير تعديل ، ويكون نشرها مصحوبا بشرح الفاظها الغريبة وتصحيح أخطائها والتعليق عليها ، وبيان قيمتها التاريخية ، وأحيانا ينشر الباحث فى هذه الملاحق مناقشات خاصة بين بعض الأصول ، أو بحث نقطة تفصيلية خاصة بشخصية أو بحادث أو بمكان أو بتاريخ أو برقم ما .وقد تنشر هذه المختارات أو هذه المناقشات، أو الصور والرسوم والخرائط التوضيحية ، أو جداول الاحصائيات ، والتعليقات فى ملحق منفصل عن الرسالة أى فى مجلد خاص تابع للمجلد الخاص بالنص Text ، أو فى جزء خاص فى نهاية الرسالة .

قائمة المراجع والمصادر التاريخية (الببليوجرافيا)

المرجع reference هو المؤلف الذى كتبه آخرون فى ضوء وثائق أو أصول أو مخطوطات ، أما المصدر Source فهو المنبع الأصلى المباشر الذى أخذت عنه المعلومات ، فمثلا كتاب الجبرتى « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، لابد وأن يكون مصدرا وليس مرجعا » بينما كتاب عبد الرحمن الرافعى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر » يعتبر مرجعا .

وببليوجرافيا البحث هو قائمة الأصول والمصادر والمراجع التى رجع اليها الباحث ويجب أن تنظم أبجديا بحسب أسماء المؤلفين بادئين بالمصادر والوثائق ، ثم المراجع والمؤلفات والمقالات .

٢ — يذكر اللقب Surname ، ثم الأسم الأول والثانى أو الحروف الأولى لهذين الاسمين الأولين وذلك فى المراجع الأفرنجيه ، أما فى المراجع العربية فيكتب الأسم عاديا .

٣ — يجب أن تبدأ قائمة الببليوجرافيا بالمصادر والوثائق

والمخطوطات ، لأنها هى الأصل الذى استقى منه الباحث معلوماته دون وسيط First hand information

٤ — فى حالة وجود وثائق لم تنشر توضع كلها فى قسم مستقل ، بينما توضع الوثائق المنشورة فى قسم آخر . وكذلك المؤلفات المخطوطة ان وجدت ، ثم أقسام للأصول الخاصة وللمراجع الخاصة ، ثم المراجع العامة references ، ثم يجىء بعد ذلك يجىء قائمة الدوريات periodicals الخاصة والعامة ، ولابد من اعطاء معلومات كافية عن كل هذه المصادر والمراجع . فلابد توضيح مكان الوثائق والمحفوظات، وارقامها وتواريخها ، ومن الضرورى بيان التاريخ الذى صدرت فيه المؤلفات المطبوعة ، ومكان طبعها ، وعدد مجلداتها ورقم الطبعة .

٥ — ومن المستحسن أن يعلق الباحث على الأصول والمراجع مبينا أهميتها وجوانب الكمال والنقص فى المراجع الاساسية التى يوردها ، كدليل على جهوده ، وكعون للباحثين فى مجال التاريخ من بعده .

ونقدم فى نهاية الكتاب جدولا للكلمات الاجنبية وما يقابلها بالعربية والتى تستخدم فى الحواشى بصورة مختصرة .

الإختصار	الأصل المختصر	أصله اللغوى	معناه	ما يقابله فى الإختصار فى اللغة العربيـــة
abbr.,	abbreviation	إنجليزى وفرنسى	إختصار	مختصر
acad.,	academic	وفرنسى	أكاديمى	أكاديمى
Afr.,	A Frica	وفرنسى	أفريقيـــا	
A.H.A.	American Historical Association	إنجليزى	الجمعية التاريخية الأمريكية	
Amer.,	American	إنجليزى	أمريكى	
anc.,	ancient	إنجليزى	قديم – القديم	
anr..,	annals-annual	إنجليزى	حوليات – سنوى	
anon..	anonymous	إنجليزى	مجهول الهوية	
app.,	Appendix	إنجليزى	ملحق – تذييل	
Ar..	Arabic-Aramaic	إنجليزى	عربى – أرامى	
Arab.,	Arabia-Arabian	إنجليزى	شبه الجزيرة العربية – عربى	
arch.,	archaic-archasim	إنجليزى – فرنسى	عتيق – الأسلوب العتيق	
archaeol.,	archaeology	إنجليزى – فرنسى	علم الآثار	
art..	article	أوروبى	مقال – مادة	
Assyr.,	Assyrian	إنجليزى	أشورى	
auth.	authentic	إنجليزى	أصلى – حقيقى – معتمد	
A.V.	Authorized Version	إنجليزى	النص المعتمد (فى الكتب السماوية)	
bef.,	before	إنجليزى	قبل	
av.	avant	فرنسى إيطالى	قبل	

ما يقابله بالإختصار في العربية	معناه	أصل اللغوى	الأصل المختصر	الإختصار
	التوراه — توراتى	إنجليزى	Bible-Biblical	bib
	دورية — مجلة علمية	إنجليزى — فرنسى	Bulletin	bu l.,
	كتالوج	إنجليزى — فرنسى	Catalogue	cat.,
راجع — قارن	قارن	لاتينى	Confer	Cf.,
	سلسلة كامبردج فى التاريخ القديم	إنجليزى	Cambridge Ancient History	C.A.H.,
	سلسلة كامبردج فى التاريخ الوسيط	إنجليزى	,, ,, Medienal	C.M.H.,
	سلسلة كامبردج فى التاريخ الحديث	إنجليزى	,, ,, Modern ,,	C.M.H.,
	فصل	إنجليزى	Chapter	Chap.,
	عمود — سطر عمودى	إنجليزى	Column	Col.,
	مجموعة (فى سلسلة كتب أو آثار)	أوروبى	Collection	Coll.,
	مصحح	إنجليزى	Corrected	Corr.,
	بحث أو رسالة صغيرة	إنجليزى — فرنسى	dissertation	diss.,
	وثيقة	إنجليزى — فرنسى	document	doc.,
	قسم	إنجليزى — فرنسى	department	dept.,
	دائرة المعارف البريطانية	لاتينى	Encyclopaedia Britannica	E.B.,
	إقتصاد — إقتصادى	إنجليزى	economy-economical	econ.,
الطبعة	طبعة — محرر	إنجليزى — فرنسى	edition-editor	ed.,
وما يليها	وما يليها (الصفحة)	لاتينى	et Sequens	et-seq.,
وما يليها	وما يليها (الصفحات)	لاتينى	et Sequent	et seqq.,
	كراسة — جزء من كتاب	أوروبى	Fascicle	Fasc.,

الإختصار	الأصل المختصر	أصله اللغوى	معناه فى اللغة العربيه	مايقابله فى الإختصار باللغة العربية
ff.,	folios	لاتينى	ومايليها من صفحات	وما بعدها(من صفحات)
f.,	folio	لاتينى	والصفحة التالية	و والصفحة التالية
fig.,	figure	أوروبى	شكل — أو نموذج	شكل
f.v.,	folio verso	لاتينى	على ظهر الصفحة	
gloss.	glossary	إنجليزى	معجم	
Goth.	Gothic	إنجليزى	قوطى نسبة للقوط	
gp.,	group	إنجليزى	مجموعة	
h.a.,	hoc anno	لاتينى	فى هذا العام	
his.	history-historical	إنجليزى	تاريخى — تاريخى	
Ib., Ibid.,	Ibidem	لاتينى	فى نفس الكتاب أو الفصل أو المقطع أو الصفحة	
i.e.,	id est	لاتينى	أعنى — أى	
id.,	idem	لاتينى	شرحه — مثله	
incog.,	incognito	لاتينى	غير معروف	
Ind.,	Index	لاتينى	كشاف (فى الكتب)	
Intro.	Introduction	أوروبى	مقدمة	
inter alia	Inter alia	لاتينى	بين أشياء أخرى	
I. q.,	Idem quod	لاتينى	مثل كذا — تماماً مثل	
J.C.	Jesus Christ	إنجليزى	السيد المسيح	
L.L.,	Late Latin	إنجليزى	لاتينى متأخر (عصور وسطى)	

ما يقابله بالإختصار في اللغـة العربية	معناه في اللغة العربية	أصله اللغوى	الأصل المختصر	الإختصار
	في الموضع أو المقطع المشار إليها آنفاً	لاتيني	Loco citato	Ioc. cit.,
	مخطوط	أوروبي	manuscript	MS.,
	مخطوطات	أوروبي	manuscripts	Mss.,
	ملحوظة	لاتيني	Nota bene	N.B.,
	بدون تاريخ	إنجليزى	no date	N.D.,
	العهد الجديد في التوراه	إنجليزى	New Testament	N.T.,
	رقم — عـــدد	إنجليزى	number	num.
المصدر السابق	في المرجع المشار إليه أنفاً	لاتيني	opere citato	op., cit.,
ص ، ص ص	في الصفحة — في الصفحات	إنجليزى	page-pages	p.—pp.
	خطـــأ محتمل	إنجليزى	probable error	P.E.,
	فترة — مرحلة	إنجليزى — فرنسى	Period	per.,
	شبه جزيرة	إنجليزى — فرنسى	Peninsula	Pen.,
	تقديم	إنجليزى — فرنسى	Preface	Pref.,
	}أولى — مبدئي	إنجليزى — فرنسى	Preliminary	}Prelim.,
	} » »	إنجليزى — فرنسى	Primary	}Prim,
	حاشية لرسالة — ملحق لكتاب أو مقـــال	إنجليزى — فرنسى	Postscript	P.S.,
	كاتب أو مكتوب بإسم مستعار		Pseudonym.	Pseud.,
	مزيف — كاذب — زائف	يونانى	Pseudo	Pseudoi,
	طبع	إنجليزى	Publication	Publi.,
	ناشر	إنجليزى	Publisher	,,

ما يقابله في الإختصار باللغة العربية	معناه في اللغة العربية	أصله اللغوى	الأصل المختصر	الإختصار
	فلتراجع هذه الكلمات	لاتيني	quae vide	qq..V.,
	بقدر ماتحب بما فيه الكفاية — بالقدر الكافى	لاتيني	quantum placet	qu.p.,
	والصفحة التي بعدها — والصفحات التي بعدها	لاتيني	Sequens-sequentia	seq.-seqq.,
	وبكلمة أخرى — يعني	لاتيني	Scilicet	ss.,
	أعلاه — المذكور أعلاه	لاتيني	Supra	Supra
	مثلا — على سبيل المثال	لاتيني	Verbi gratia	V.g.,
	أنظر أدناه	لاتيني	vide Supra	V. i.,
	أى يعني	لاتيني	vide licet	viz.,
	مجلة — مجلدات	إنجليزى	volume-volumes.	vol.-vols.,
	في أماكن متفرقة	إنجليزى	various places	V.P.,
	قراءة أخرى مختلفة	لاتيني	varia lectio	var. Tec.,
	أنظر أعلاه	لاتيني	Vide Supra	V.S.,
	إشعار — أبيات شعرية	إنجليزى	verse-verses	vss.,

فهرست الكتاب

صفحة

صدر للأستاذ الدكتور سيد احمد الناصرى

المؤلفات الآتية

١ ــ **الاغريق تاريخهم وحضارتهم**

(ثلاث طبعات) الطبعة الثالثة صدرت عام ١٩٨١

٢ ــ **تاريخ الرومان (من القرية الامبراطورية)**

الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية تحت الاعداد

٣ ــ **تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى**

الطبعة الثانية صدرت عام ١٩٧٨

٤ ــ **تاريخ وحضارة مصر من اقدم العصور حتى الفتح العربى**

(بالاشتراك مع أ.د. سيد توفيق وكيل كلية الآثار جامعة القاهرة)

٥ ــ **فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه**

الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٨١

كتب تحت الطبع

٦ ــ **بيزنطة : مدينة وحضارة وتاريخ**

٧ ــ **الامبراطورية الرومانية وشبه جزيرة العرب**

تطلب هذه المؤلفات من

دار النهضة العربية ٣٢ ش عبد الخالق ثروت القاهرة

تم الطبع بالمراقبة العـــامة
لمطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى
المراقب العام
البرنس حموده حسين
١٩٨١/٩/١٤

رقم الايداع ٣٩٢٧ سنة ١٩٨١

١٩٧٧ – ٢٥٦ – ٤٩٧ – x

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٨١/٧٥١/٢٠٠٠)

